منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

وحيد الطويلة

باب الليل

رواية

القبْلة هي النقطة

التي توضع فوق حرف الباء في كلمة الغرام

***اسم لفيلم إسباني إنجليزي مشترك بطولة الفاتنة ناتالي فيربيكي Natalia Verbeke**

*أبواب الرواية : بعضها أبواب مدينة تونس، بعضها أبوابك أو أبوابها.

إهداء:

إلى ليلو ابنتي الصغيرة التي تقول : إنها

تحبني مثل سبونج بوب بالضبط،

وإلى فيروز الكبيرة التي تحلف أنها

تحبني أكثر من رئيس الجمهورية شخصياً.

وحيد

باب البنات

كلّ شيء يحدث في الحمّام،

حمام المقهى بالطبع.

تتحرك البنات صوبه، واحدة واحدة أو اثنتين اثنتين، في الغالب اثنتين، خلفهن بمسافة معقولة رجل أو اثنان، يلِجون بابه بدفعة ناعمة لا تحدث صريراً.

باب لزج متواطئ، يتحرك سريعاً، ثم يرتد بطيئاً كأنه يشارك بدوره في المكيدة، يتلّقاهم حوض من المرمر الأبيض تحت أضواء كامدة تعلوه مرآة عريضة، تعكس بابين متجاورين، واحد للنساء وواحد للرجال بالطبع. باب الرجال في الغالب غير مقفل، موارب فحسب، ينظر عبره الواحد إلى الواحدة، يرقبها، يترقبها حين تهّم بالخروج، يراها في المرآة المتواطئة أيضاً، في الواقع يرمي أذنه من قبل، يتسمع تكته بعد أن أقفلت الواحدة تكتها.

لا ينتظر، على الأرجح لا يتبول أو يفعلها بتهور ليكون الخروج سريعاً، وربما ينسى في غمرة ذلك أن يغلق سوستة بنطاله.

الواحد والواحدة اللّذان في الخلف ينتظران دورهما في الاغتسال كانا قد أنهيا المهمة، تبادلا أرقام التليفونات سريعاً، أخذ رقمها في الغالب، وربما أخذت رقمه أحياناً، قد لا يعجبها من منظره، من بدنه المترهل غير المشدود أو وسامته الغائبة،

لكنه في مستقره داخل الشريحة وسط غابة الأرقام، والاحتياط أحياناً واجب، فمن تعافه اليوم قد تحتاجه غداً.

وعندما يتكدس الحمام، كثيراً ما يحدث هذا، إذ يهرع خلف الواحدة أو الواحدتين رهط هبطت عليهم فجأة فضيلة التبول، حينها تكون أرقام الهواتف المكتوبة سلفاً في ورقة صغيرة، والتي اقتطعت على الأرجح من فاتورة الحساب أو مناديل الورق، قد عرفت طريقها واستقرت مرتاحة في جيب الواحدة.

أحياناً تحدث ربكة وتختلط الحكاية، إذ إن واحدة طيرت نافوخ نصف القوم، سعى خلفها النصف الآخر، تركبها الحيرة للحظة، وقد ترتبك من الداخل، في الغالب لا يظهر عليها ذلك حتى تحافظ على هدوئها وعلى الزبون الاحتياطي.

بسرعة ورشاقة تفتح حقيبة يدها، وعلى مهل تفتش عن شيء غير موجود، وبخفة تسأل زميلة لها مشطاً أو أحمر شفاه، تمنح فرصة لينسحب الفوج الأول في ضيق غير ظاهر، لتنفرد بالفوج الجديد.

على الأرجح لا يحدث ذلك، إذ إنها تضرب بالآخرين عرض الحائط برقة مفتعلة، وتسرع وكأن ميعاد القطار قد يفوتها، وهي تعاجلهم بنظرات ووعود.

كلّه على الحساب، وغالباً لا تستحق المسألة كلّ هذا العناء إلا إذا كان الواحد تبدو عليه مظاهر الثراء.

أقل القليل من يرمي بخفة عالية ورقة بها رقمه على طاولة، أو على ساق واضحة عند مروقه إلى الحمّام.

خارجات خارجون، داخلات داخلون، متدفقون إلى قلب المقهى كأن شيئاً لم يحدث.

كل شيء يحدث في الحمّام.

كلّهم يغشونه، يرمون شباكهم أمام مرآته، يعقدون صفقاتهم، تغمز صنانيرهم، ويرتفع خطّاف هنا وهلب هناك. وعندما يعودون لمقاعدهم، يطلبون بعضهم سريعاً في الهواتف، يتواعدون على اللقاء خارج المقهى، ينطلقون متعجلين بسياراتهم وصوت العجلات يصل عالياً إلى الداخل، لينجزوا الفصل المقدس من المهمة.

كلّ شيء يحدث في الحمّام، كلّهم يزورونه،، إلا مجيد لا ينتظر حماماً ولا بولاً ولا يحزنون.

بعين الخبير يختار، وهو واقف، طاولة الحظ السعيد، معمّرة عامرة بالنهود، يحرص على أن يجلس قريباً منها من أية زاوية، ملاصقاً لها إن وجد فرصة، ينتظر لحظة ظهور فاتورة الحساب، ينتظر بصبر لا ينفد، يراقب بعين متيقظة خفيضة الجفن النادل الذي يحملها، فجأة يقفز كنمر جائع ويخطفها من أمام الجماعة، يصرّ على دفع الحساب وينهي المسألة فوراً دون أن يكترث لنظرة اندهاش تنزاح فوراً لتحلّ محلها نظرات امتنان وأماني .

يجب أن تذهب معه اثنتان، واحدة لا تكفيه، قنّاص الفواتير في المقهى، و كبير القنّاصين في السرير، يشير من طرف عين وهو يبتسم ساخراً إلى عضوه وبصوت مرتفع تخالطه النشوة :

- أبو جميل يسلّم عليكم.

تذهبان معه، حيث يعيش وحيداً منذ عشرين عاماً، لتؤنسا وحدته، يقدم لهما العشاء كأميرتين، يأكلون ويشربون وحين ترتفع الأدمغة يسخنون ويخلعون، يرتطمون ويلهثون، وحين لا تجدان جميلاً ولا أباه لا تختلف المسألة، شربتا وقبضتا، ولا تختلف عنده أيضاً، شرب ودفع.

يعود في اليوم التالي يخطف فاتورة أخرى كصقر ويدفع الحساب كعصفور.

يبحث عن واحدتين تحيطانه من جانبيه المتسعين، كأن شيئاً لم يحدث، يضحك من نفسه بصوت عال :

- أبو جميل في إجازة، من يجده يخبرني عنه.

لا تقلق، الذين يفكرون في الصيد سيحالفهم الطقس، والذين لا يفكرون لن تعود سيقانهم وحيدة أو جيوبهم خاوية، الشباك مفرودة، السمك ينط وحده يعرف طريقه وصنّارة صياده.

اطمئن، الشتاء بارد هذا العام كعادته والدفء فرض عين، البنات هبطن الواحدة تلو الأخرى كأنه قمقم وانفتح، في ظرف نصف ساعة كان المقهى قد فاض واكتمل عن آخره.

رجال وصبايا من كل فجّ عميق، اسمه مقهى " لمة الأحباب "، تقول صاحبته إنها أسمته هكذا براحاً واسعاً وحفاوة بالجميع، يقول الخبثاء : لتسحب أرجل كلّ العابرين والمقيمين ليحضروا ويدفعوا بمزاجهم.

البعض يسمونه مقهى " الأجانب "، يعج ببقايا فلسطينيين بقوا هنا مرغمين بعد أن غادر الجميع تقريباً إلى رام الله مع ياسر عرفات بعد اتفاقية أوسلو. الذين رفضوا تفرقوا في شتات البلاد وراء رزق أو عائلة أو دولة ترحب بهم أو أي مكان أوسع من رام الله وغزة.

بقايا لم يجدوا أسماءهم في كشوف السلطة الفلسطينية. في القوائم الإسرائيلية كانوا ومازالوا، ممنوعين من العودة، أياديهم ملطخة بدماء الإسرائيليين، وأرواحهم ملعونة أيضاً، وعليهم إن تنفسوا أن يفعلوا ذلك في مكان آخر يستحسن أن يكون قبراً سحيقاً في جوف الأرض.

رحل الجميع وتركوهم كما لو كانوا مصابين بالجرب.. أسماء مكتوبة بالأحمر في قوائم إسرائيل. مشطوبة بالأحمر في كشوف الفلسطينيين.

رحلوا دون أن يتذكروا مهمة التوديع، ولو بأحضان مرتبكة.

حُشروا هنا، لا علم يستظلون تحته، لا أرض ولا عشيرة، لا ضفة يقفون عليها ليلوّحوا لأي قبطان أو شيطان.

حُشروا وبقوا محشورين من وقتها في أحلامهم البطيئة الكسولة وكوابيسهم السريعة.

على الطاولات دائماً ليبيون عابرون يقضون أياماً أو أسابيع، يطيرون إلى تونس للسياحة.. تونس قريبة وجميلة.. فيها كلّ شيء، يقول واحد منهم ويلعب بحواجبه ولسانه. بضعة مصريين وواحد من الخليج، سوري أو لبناني أتى للتجارة أو ربما هرباً

من رصاصة أو قضبان من حديد في دولته، كلّ واحد يحمل بين ضلوعه حكاية يبحث عن واحدة يحكيها لها.

المقهى في شارع جانبي متفرع من شارع المقاهي، الذي ينتفخ بنحو ستين مقهى آخر، ظل لسنوات بمقهى واحد، وحين ارتفعت المباني وسكن الناس، تناسلت معهم المقاهي في شهور وجيزة، يمتلكها لاعبو كرة القدم وبعض الفنانين وأصحاب الأموال القادمة من مدينة صفاقس تحديداً.

ينتصب المقهى على ربوة تصعد إليها عبر سهل، وتهبط منها في أرض منبسطة، ومن أية نافذة يمكن لعينيك أن تمتد بين ربوة وقبة ومنبسط.

أجساد البنات اللائي هبطن للتّو تشبه هذه الأرض مصنوعة من طين مدموغة بلونها الأحمر، وأبو شندي الفلسطيني يقول: يبدو أن الأفارقة مروا من هنا، دقوا أوتادهم وماءهم عميقاً.

أجساد أفريقية، سيقان طويلة متماسكة تسند بجسارة عجيزات جسورات، وافرة واعدة، مندفعة بحساب.

بطون ممتلئة قليلاً من الأمام، ما بين السرّة والغرّة، على حافة النبع، غافية في غالب الأحيان، وجوانب زائدة من الخصر أحياناً، لكنها غير متهدلة، قل متهدلة بقدر، لكن فتنة الصبا تمنعها من الترهل، تشي بكل قطعة زائدة وتضعها برشاقة في ميزان الغواية.

عندها فقط يمكن لك – إن أحببت — أن تمد يدك لتعرف الفرق الدقيق بين جسد الآلهة وجسد البشر.

ولا عين في مكانها، عيون تدخل وتخرج مثل عيون أفلام الكارتون، تندفع بعيداً عن مكانها في الوجه بسرعة وتستمر معلقة، ثم تعود أكثر سرعة وزغللة وأشدّ اتساعاً.

تكذب عليهم عيونهم لو شبعت.

عيون تخترق رائحة بخار الشاي الأخضر ودخان الشيشة ومواقد الفحم المشتعل في مقهى مشتعل.

كلّ البنات يلبسن الجينز، يعرفن فضائله، و يترحمن في سرّهن كلّ ليلة على الرجل الذي اخترعه.

الرجال يترحمون قبلهن.

يحبس العجيزة تحت قماشه القاسي، الحنون عليها، القاسي على قلوب الرجال المتلمظين، وإن ترطبت عيونهم.

عجيزات ربانيّة مستقرة داخله، محاصرة بحفاوة بالغة رغم أنها تستعد للانطلاق.

حكاية غرام ما إن تنتهي حتى تبدأ، يلم كل شيء، يحوّطه، يحتضنه، ويمنحه شحنة عالية، ما بالك إن كان مشحوناً من أصله.

ليس هناك مكان للباس غيره، أحياناً تزاحمه تنورات شاردة، صغيرة، أضيق من صابونة ركبتك، فوق جوارب لامعة مثل الكريستال و بدونها.

وحده الجينز، ليس هناك غيره من يهب كل قطعة من الجسد نشيدها، ويتيح لها أن تغني بمفردها وأن تغني جماعة.. بعض القطع تصرخ وأنت تعوي.

بطاقة حياة ممتدة للأرداف والرفوف، يرتفع بالمتماسك، يضغط المترهل، ويخبئ بخبث عن العيون غير الواثق بنفسه.

متواطئ مع الجميع، ضد الجميع، يكوّر المتكوّر وغير المتكوّر.

وأبوشندي الفلسطيني الذي عمل لسنوات في منظمة التحرير الفلسطينية أثناء وجودها في تونس، يضرب كفاً بكف ، يسرح بنظره بعيداً، شبح ابتسامة ساخرة وبصوت يكاد يكون مسموعاً يقول : الآن فقط عرفت لماذا كان ياسر عرفات يرفض بتاتاً أن يدخل عليه أحد يلبس بنطالاً من الجينز، وإن اضطر وقابله لا يقبّله.

بنات يتجولن في المقهى، يخترن طاولة ثم يبدلنها، كأنما يقتربن بخفة من مواقع الأهداف، بالله عليك لا تنزعج من مشيتهن، ولا تنفرط من هيئتهن فما تراه اليوم ستتعود عليه غداً.

ستتعود عيناك على عشرات الكيلوتات التي تتنزل عليك، حين تنحسر حواف الأحزمة، تنزلق لأسفل فيما عيناك حائرتان في الأعلى.

أشكال وألوان، لو أن مصمميه وباعته جاءوا هنا، لاستغنوا عن تكاليف الإعلان عنه في التليفزيون أو عرضه على فترينات الحوانيت.

عرض مجاني ساخن، وعلى عينك يا تاجر، مخرّم منقوب، مثقوب، بفتلة واحدة، بسيور رفيعة ، على هيئة شبكة، بفيونكة أحياناً، بكرانيش في الأعلى أو بشريط في منتصف حزامه من الخلف يمتد خارج البنطال كزر طربوش عثماني.

يكاد كل واحد يتفلّت من مخبئه، انحسار البنطال كشف المستور، لحم خمري غالباً، أبيض تحت الأضواء، يكاد ينط فعلاً من المنطقة الفارغة بين حافة البنطال وشرائط الكيلوتات، قد يبدو الشق واضحاً يطل قبل المنتصف يردد نشيده الوطني وحده.

بينما جورج وسوف وحده بصوت أجش وطبقة خشنة يصول ويجول في سماعات المقهى :

قلب العاشق دليله .

شتاء بارد، هواء لاسع يضرب الأنوف، يمرق من تحت الباب، ينحني بأدب إن مّر أمام الصدور المرتفعة، لكن هواء الرغبة يضبط إيقاع الحرارة، يحمى عند دفع الفاتورة أو عندما تومئ واحدة لطاولة مجاورة :

تسمح بولع لي، والأخرى بجوارها بضحكة متغنجة : تسمح تولعني.

هنا، من هنا بالتحديد – ودون لف أو دوران – تبدأ ماكينات البخار في التكتكة، تدير تروسها وتغلي القدور، يلوح بخار وترتفع غيوم داكنة مسرعة ويشرع مطر الرغبة في إرسال رذاذه.

وتبدأ الحكايات.

لا تقلق.. قلت لك لا تقلق، البنت التي تخرج الآن مع رجل، إن أعجبتك لا تجحظ عينيك، لا تمصمص شفتيك، لا ترخي جفونك، ولا تسمح لضغطك أن ينخفض أكثر من اللازم، ستكون لك غداً، لا أحد يستقر على عجيزة واحدة أو نصل وحيد في هذا المقهى.

لا تقلق، في الغد ستحشوها تحتك وستحشوه لها بقدرة ربي.

تقول نعيمة بابتسامة رخوة :

- كلّهن كسروال العساكر، يخلعه جندي مجهول لا تعرفه، ليلبسه جندي مجهول آخر لا تعرفه.

تلعب بحواجبها :

- هذا اللعب كله من أجل النقود، واحد يدفع ويركب، وواحدة ترقد وتقبض، التعادل نتيجة مرضية للطرفين في مباراة لا يفوز فيها أحد، وحتى إن حدث ففي الغالب تفوز البنات، جنس سريع مثل الوجبات الخفيفة ولكن بفاتورة مرتفعة، لا واحدة تأتي إلى هنا من أجل المتعة.. كله من أجل النقود، الورق الأخضر والأبيض والملّون، ولا بأس بالدينارات طالما كانت كثيرة..

حط الفلوس على وجه الميت يضحك.

تضحك وتشير كأنها تكلم أحداً.

لن تجد واحداً يضع يده على كتف واحدة أو يحمل وردة، قد يشتري لها عقداً من الفل إن أصّر البائع السمج، وإن لم تبعده هي، يده في بنطالها من الخلف أو مدسوسة بين ساقيها أحياناً.

لا ذراع حول خصر، لا غمزة طرية بالعين تحمل وعداً، لا قبلة في الهواء، ولا كلمة تفوح منها الرومانسية، لذا يحسدون زوجات المصريين واللبنانيين على اللسان المعسول لرفقائهن، وأحياناً يقولون بنصف حسرة :

بياعو كلام .

- لا غرام في هذه المدينة، بل لا غرام في هذه الدنيا، الفلوس، الفلوس فقط.

يدها على خدها وعينها على الباب، الذي انفتح فجأة بأثداء نصف عارية هلت مباغتة.. قبيلة من النهود.

كان سرب من البنات بأصوات عالية بضحكات مرقوعة قادماً من الخلف، سحب العيون وبعض الحواس في اتجاهه.

وواحد في طاولة بجوار نعيمة يقول :

الله أكبر، كتيبة المجاهدات وصلت.

يبلع نصف ابتسامة لعوب ويكمل : المنتخب القومي وصل في الميعاد، يرجع بالنصف الآخر : وبدون مدرب.

يكاد يستمر، لكن رنين هاتفه يشغله وبشيء من الغضب:

– إذا لم تعودي قبل العاشرة..

ملامحه تتعكر.

– قلت لكِ – وبصرامة تكسو وجهه الصارم أصلاً – إن تأخرتِ بعد العاشرة لا تعودي للبيت مرة أخرى، وابحثي عن مكان آخر.

وبلهجة حاسمة عالية النبرة :

– هذا بيت وليس مقهى.

– بنتك؟

تقول نعيمة، لكنه لا يعبأ بها، لا يرد ولا يلتفت ناحيتها.

غيظ يتعرق من وجهه:

– منك لله يا بورقيبة، منك لله، صحيح عملت الاستقلال والتعليم وتنظيم النسل.. محسوب لك، عملت الباهي، لكنك عملت الخائب أيضاً، قويت المرأة على الرجل، مددت الاستقلال لكل حاجة.. وكل حاجة بعده أصبحت ممدودة.. تخيلي، معقولة!

– بنتك؟

– تصوري، لا أستطيع أن أقول لابنتي لا ، ما إن بلغت تريد أن يكون لها صاحب، والآن تريد أن تخرج معه حتى لو حاولت أن أمنعها.

– كبرت وتفعل أمامك أفضل من أن تفعل خلفك.

- وتريد أن تعود متى شاءت دون إذني، ولا أستطيع أن أمنعها أو أبدي اعتراضي.

يحاول أن يبلع ريقه الناشف، يمد بصره الزائغ من فورة الغضب، يرفع يده يعد البنات الجالسات في المقهى.

- واحدة ، اثنتان..

.. بنات العائلات لا يذهبن لهذه المقاهي.

صاحبة المقهى لا تحب البنات العابرات، تفضل المقيمات، تعرفهن جيداً وتأنس لهن، وإن لم تفتح حواراً ممتداً معهن، يبتعدن عن المشاكل ويصطدن زبائنهن بكل خفة وحرفنة وإحساس بالذات، لا يجرؤ أحد أن يقلل من قيمتهن أو يخدش مقامهن أو يعاملهن كعاهرات ولو من تحت الطاولة ولو بإشارة، يجلسن كبنات منعشات منشطات يعرفن أنهن ملح المقهى والحياة، ولا يتركن آثاراً خلفهن، يزدن في إيراد المقهى، يشربن شيشة أو اثنتين لأن الأولى طعمها غير مناسب، وعصيراً على حساب كل زبون قبل أن ينطلقن معه،حتى ولو استغرقت المفاوضات بضع دقائق.

اتفاق غير مكتوب معهن، يشربن قهوة واحدة فقط طوال اليوم مهما طال إن لم يتوفر الزبون.

وأبوشندي يقول : عند افتتاح مقهى جديد في المدينة، تسقط عليه البنات من كل حدب وصوب، يقمن بغارة جماعية بترسانة أسلحة فاخرة من لحم وملابس

وماكياج وعطور، يبخّرن المقهى بحضورهن ويمنحنه بركة الرغبة والبهجة، وليكونن في صدر الفتح المبين، يأتين على زبائنه الجدد، يقفزن بإيراد المقهى حتى تعوض صاحبته أو صاحبه مصاريف الافتتاح، ثم ينتقلن لمقهى جديد وفتوحات أخرى بعد أن تركن رائحتهن فيه وحكاياتهن.. وهكذا.

لذا تحتفظ صاحبة المقهى بالمقيمات، وتبسط وجهها للعابرات ليلتي السبت والأحد، الإجازة الأسبوعية عند الحكومة، و ليلتي العمل الشاق عندها.

العلب الليلية مكلّفة، وجيوب الزبائن لا تحتمل، والبنات أكثر من الهم على القلب.

جرَّت رجلهم، فرقة موسيقية كاملة بمطربها نصف المخنث، يغني أغاني جورج وسوف في فترة الإحماء، والأغاني اللبنانية القديمة التي تصنع الفرح، ثم يصعد بعد ذلك بأغاني أحمد عدوية لتصعد الأجساد فائرة من كراسيها إلى منتصف المقهى ترقص وتنتشي، وعندما يقترب " السح" تحتك مؤخرات وعجيزات، وعندما يدخل " الدح" تنتفخ الأعضاء في مكامنها، وليسبح المقهى كله فوق رغوة كبيرة.

الكل منتشٍ يعقد صفقاته سراً وعلانية وهي تربح.

وهو مازال رافعاً يده يكمل العد :

خمسة.. عشرة .

دخلت بنتان وحدهما بلباس أنيق يومئ إلى خريطتيهما بحدة، لم تجدا مكاناً فارغاً سوى طاولة صغيرة بجواره.

- عشرون.

جلستا تحدقان في المشهد، ترقبان البنات، أومأت لهما نعيمة، تعرفهما جيداً، عادة تحضران باكراً، تعرضان بضاعة جيدة لم تتفسخ بعد، تأخذان أرقاماً في هدوء وتنصرفان وحدهما وتلحق ضحيتان بهما أو يعدو صيادان خلفهما، تفعلان كل شيء بأدب ودون صخب.

- ثلاثون.

أخرج قلماً واستعان بفاتورة الحساب، راح يحسب على ظهرها الخالي.

- خمسة وثلاثون قحبة، لا لا، كلهن قحاب ماعدا واحدة.

ونعيمة لا تنظر إليه لكنها ترمي أذنها.

تصبح النسبة إذاً.. يقول بصوت عالٍ، ويضرب ثم يقسم :

- النسبة تسعون بالمائة.

يفرد قامته سريعاً، ثم يغادر.

قالت البنت التي جلست على مقربة منه لصاحبتها:

- يا خبر اسود !

والأخرى تتلفت سريعاً تقلب عينيها في كل الاتجاهات، وتقول بانزعاج مصطنع :

- ما الذي جرى ؟.. يا خبر اسود فعلاً، لا لا، المقهى لم يكن هكذا من قبل.

باب الفتح

كل شيء يحدث في الحمّام، الجميع في اتجاهه، يزورنه ويتبركون به، إلا مجيد وبعض المجاهدات، إلا نعيمة التي ترقبه في جلسته المتسعة وأجنابه العريضة التي تخرج من حافتي الكرسي الذي يغوص فيه.

تضحك منه بصوت خفيض: كان الله في عونه ، لكنها تسحب ضحكتها سريعاً وترسل له نظرة طيبة تكاد تربت عليه :

- ما أخبار الإرسال؟

يقابل ضحكتها المنسحبة بأخرى سريعة متسابقة :

- أبو جميل في إجازة.. في معسكر تدريبي، البث سيبدأ قريباً وحين يعود سيكون في استقبالك مرفوع الرأس.

- أبو جميلك عليه عفريت.

تصيح في وجهه بلطف، وبضحكة مرقوعة تنظر في عينيه جيداً وتكمل :

- الدنيا مع الواقف.. الواقف.

تهدأ ضحكتها وتعود لداخلها.

وحدها تجلس في ركن عند المنتصف تحت عمود بضوء خافت، قلقة من الأجانب، كل من ليس تونسياً أجنبي، لكنها غير قلقة منه.

على العكس عنده حكاية، وهي تحاول أن تطرد حكايتها بحكايته.

لبناني يقيم هنا من زمان، كأنه من أهل المدينة لولا ملامحه، أنيق يعيش وحيداً، يقول كلاماً كبيراً لا تفهم أكثره، من إحدى الطوائف الكبيرة في لبنان، يقول إنه دبلوماسي وموعود.

موعود أن يكون سفيراً في إحدى البلاد قريباً، ينتظر أن تتبدل الحكومة وتركب جماعته الحكم ليركب هو.

- أي حاجة تعملها ممكن أصدقها، غير أنك تركب.

يملك النقود، وتستطيع أن تأخذها منه بسهولة في أغلب الأحيان.

عندما تكثر عليه البنات ينساها ويدخل في جديده، يدخل ويخرج كأنه لا يعرفها، لكنه سرعان ما يعود لها.

لا يسافر إلا نادراً، يعود محملاً بهداياه لصاحبة المقهى التي تظهر له المعزة وتفرد له جناح المحبة، وتعرف أن نقوده - نصفها أو كلها- ستقع عاجلا أو آجلاً في فواتير الحساب.

وحيداً إلا من رغبته العارمة في جمع البنات حوله، دائماً اثنتان أو ثلاث، صباحاً ومساءً، يغمز بعينيه ويقول كلاماً حاراً، كأنه إعلان مدفوع الأجر عن فحولته.

يدفع للبنات فواتير أكلهن وشربهن، وهن يعتبرنه صيداً ثميناً جاهزاً في كل وقت.

يلاعبنه ويتركنه بعد أن ملأ جوفهن ودفع فواتيرهن ليخرجن مع آخرين يملئون فروجهن وجيوبهن.

وهو ينعتهن بالغزوات، غزوة ألفة، غزوة درصاف، وغزوة مونيا، وأحياناً غزوة نعيمة.

في لحظة نادرة أنس لها، قال والأسى يركبه إن الوحدة تكاد تأكله وأنه قارب الستين لا طفل ولا أنيس، يقضي نصف وقته في المجمعات الاستهلاكية ينفق نقوده ليشتري أشياء لا يحتاجها، ينفق وقته الفائض عن احتياجاته، يشتري الشيكولاته ويوزعها على البنات كيفما اتفق.

– زعيم في الشيكولاته جداً ، فالح فيها.

لم يعد يعنيها أمره، لكنها تحاول أن تطرد حكايتها بحكايته.

وحدها في مقعدها، تنتظر زبونها على طاولتها، تهبط إلى المقهى بعد منتصف النهار بقليل، في انتظار من أنهوا أعمالهم الصباحية ويريدون أن ينعشوا قيلولتهم.

تقبع في الركن ذاته، تقلب عينيها بين الأجانب، وحين تستقر على الطريدة، تقف، تفرد جسمها، ترخي ثنياته ثم تشدها، وهكذا..

لا تذهب للحمّام، تتمشى على مهلها بالكعب العالي،، يجعلها تمشي كأنها ترقص، بقوامها غير الطويل غير القصير، بتدويرة واسعة عند خصرها تسلمها لانحناءة أخرى كغيمة واطئة – كما يقول شاعر مصري اسمه عبد المنعم رمضان — فوق عجيزة مرتفعة، ممتلئة مدوّرة، تهبط بالناظر إلى بئر رغبته، سقط عنها بنطالها الجينز إلى ما قبل منتصف عجيزتها تقريباً، وليمدد الكيلوت أذرعه الرفيعة في وجه العيون، نصف العجيزة الظاهر قدر نصفها المخفي بالتمام والكمال.

تتكئ على حافة الكونتوار، حافة المكان الذي تصنع فيه مشروبات المعازيم، تكسر ساقها ، لا تدفع عجيزتها للخلف، مندفعة متعجلة وحدها، منفلتة كأنما تجري من شيء ضرب أسفل بطنها.

تتحدث مع صانع الشاي والقهوة، تسأله أي شيء، تدور برأسها وعجيزتها ثابتة تقلّب عينيها تكتشف الملعب، تعابثه وهي تعابث البعيد ليقوم بالإحماء والتسخين.

ترمي بضاعتها ثم تعود، المشية نفسها، الإيقاع نفسه، وسط مقهى واسع بأعمدة غريبة لا يتسع لها هذا المشهد حتى لا ينكسر الإيقاع، مكتظ بأجانب انتشروا في لهجاتهم ورغباتهم، يأتون فرادى أو جماعات، وفلسطينيون دائمون يأتون فرادى موزعون على طاولتين، يحكون بصوت خفيض، ثم ينسون.

تضحك وتقول : ملجأ الأيتام.

أجانب يأتون باحثين عن قعدة طرية، يصطادون طرائدهم ويمضون.

بائعات هوى تحت أجمل ملبس وأحلى زينة، بعضهن واضح، وبعضهن يلبس قناعه.

مقهى العشاق أحلى من ملجأ الأيتام، تقول نعيمة بصوت يختلط فيه الضحك بالكلام، يقطع ضحكتها كسوف، الأستاذ كسوف، كضوء مارق من باب المقهى إلى طاولتها، يحجل ويرقص كطائر من طيور الشتاء.

يحط بجانبها بعد أن صف جناحيه، ابتسامته تتسع وسلامه يتطاير.. لا أحد يعرف ماذا يعمل، يقولون : يحتال، يغيب عن المقهى كأنه لم يدخله، ويأتيه كأنه لم يبارحه.

في يوم نادر انكسفت فيه الشمس، هدته حيلته، أحضر ورق الألومنيوم المفضض، استلفه من حانوت، واعداً صاحبه بأن يسدد ثمنه سريعاً، صنع نظارات واقية لرؤية الشمس في خجلها وهي مكسوفة من القمر ليراها من يراها في لحظة قد لا تتكرر في حياته، هكذا ردد بقوة.

با ع لكل زبائن المقهى بمساعدة نعيمة، النظارات للبنات، والرجال يدفعون.

من ساعتها اكتسب اسمه وشهرته : الأستاذ كسوف، لكنه في الحقيقة ليس كسوفاً من أحد، حين تكون نعيمة في إحدى غزواتها يحط على طاولتك، يلم جناحيه سريعاً، وبوجه المحتال الباسم يسألك أن يشاركك الجلسة، يأخذ كأس شاي على حسابك، وإن أفرطت في الحفاوة وأومأت بطرف حديث، يعاجلك بالقاضية الفنية ويطلب شيشة : أنت باهي... باهي بالحق.

بابتسامة واسعة مطبوعة على وجهه، كأنه نام ليلة عرياناً، وحين استيقظ وجدها ملصوقة عليه، حلت بسهولة محل ملامحه القديمة، ومن يومها لا يفارقها ولا تفارقه، وسيلته في الحياة والطلب.

وحين ضاقت به الحال وهربت الشمس من القمر، فتح جرابه و أخرج حيلة جديدة، عمل قارئاً للكف والفنجان بمساعدة نعيمة، تقص عليه حكايات الزبائن وتعطيه طرف الخيط، وهو يرد لها الجميل، إذ يمد طرف أحدهم أو يلقيه جاهزاً في حجرها، ويلهف نصيبه من الناحيتين.

يفعل ذلك بأناقة كأنه لورد قديم، أحياناً ينقل أرقام الهواتف بين المشتاقين والمشتاقات، لكنها حين تتكدس، يعرض خدماته من تلقاء نفسه بصوت خفيض، ويوفق رأسين في الحلال بابتسامة مرسومة من قبل.

ونعيمه تحبه، تلقف حكاياته لتخبئ حكايتها.

لا تقلق، قلت لك من قبل، إن أوجعتك شهواتك وحضرت في وقت لا تحضر فيه البنات عادة، ستجد نعيمة في انتظارك في ثكنتها المعتادة، نعيمة جرينتش، جاءت من بعيد من أقصى الشمال، بشهادة متوسطة لا تستطيع أن تمنحها عملاً ولا شربة ماء في مدينة يتسكع فيها حاصلون على شهادة أعلى، ويدوخ فيها كثيرون بحثاً عن أية فرصة.

المدينة فرصة دائمًا، والأهل في ضيق، والعمل هناك مستحيل، والعريس بعيد.

وراء رزقها صعدت، معها شهادة بكالوريا وعجيزة وبعض فرنسية وإيطالية..
وعجيزة محترمة مع بكالوريا تكفيان بالكاد للعمل في مقهى.

عملت نادلة، والبنت في المقهى مطلوبة تناغي وتناجي.

في المقاهي تسقط الحواجز، كلمة من هنا، ويد تصدم بعفوية أي جزء بارز أو ليّن، هدية من هنا وسهرة في علبة ليلية مع الصديقات تريح الأعصاب، والجو العام يسحبها من شواطئ براءتها بقوة.

في البداية كانت تتفرج، تشاهد ما يجري دون أن تشارك سوى بالضحك الخفيف، كان يكفيها أن تنقل رقم هاتف من زبون لزبونة، وتحاول أن تزيد في إيرادها كي تكفي مئونة العيش.

في البداية كانت تخشى أن تخلع سروالها، كله على الناشف وتعود لحجرتها، لكنها بعد أن جرفها التيار وتعرفت على ماء الآخرين ونقودهم صارت تنساه في مكان قد لا تعود إليه.

تبيت في فراشها وحدها، أحياناً مع أختها التي تكمل تعليمها الجامعي على حس نعيمة وفلوسها، تنام في المدينة الجامعية، تقضي عندها ليلتي العطلة السبت والأحد، وتأخذ نصف ما في جيبها.

كان عليها أن تساعد أختها، تعطيها ما حرمت منه، وأن تساعد أخاها الذي ربت طويلاً عليها، قبلها ونزل ليعمل.

- أنت تعبانة في عرقك، لك وحدك، كان يجب أن أعطيك أنا وأنا سأعمل.

أختها مغرمة بالمدينة، ونعيمة مدعوكة في مقاهيها ومآقيها، من مقهى لآخر ومن فخذ لأخرى، يأكل عليها أجرها أصحاب المقاهي أو يماطلون فتبحث عن غيره، عن فرصة أوسع.

تعوّدت على المقهى، وتعوّد الشارع عليها.

في الطريق بين مقهى وآخر تعثرت بإيطالي طيب، في منتصف الخمسينيات، وهي في أول الثلاثينيات، اكتشف أنه نسيَ محفظته بعد أن شرب قهوته، بشت في وجهه وأمهلته لليوم التالي.

حين عاد ليدفع مست بيدها صدرها العالي:

- ضيفناك على حسابنا.

وأصرت.

علق خفيفاً بها، بمجاملتها ولطفها، هذه مدينة لا يدفع فيها أحد لأحد لوجه الله والمحبة، ولو في الأعياد الوطنية.

الإيطاليون والفرنسيون تحديداً يروحون ويجيئون دائماً، الشاطئ قريب والشهوة كامنة، الحنين متقد واللغة مشتركة.

والحب يحتاج للغة، وحتى إن لم يكن موجوداً، فالغرام وإخوته يحتاجونها، تفتح الباب وتضيء القنديل.

الجسد سيد اللعبة واللون الخمري بوابته، والعجيزات بطاقته، وبنات محتاجات يعملن في مقاه غالباً، يلقِّطن أرزاقهن، يضعطن على أمعائهن بقسوة زائدة، يعصرنها كصائمي الدهر ويدخرن ما استطعن من نقود للمظاهر، يلبسن ويمنحن أنفسهن مظهراً براقاً وعافية وفيرة.

والزواج بعيد - نصف البنات عوانس — وفرنسي أو إيطالي في الخمسين فرصة يجب أن تطبق عليها بما منحتها الطبيعة كي تستطيع أن تطفو على سطح الدنيا.. بلاد

جميلة غير هذه البلاد البليدة، وفلوس ومعاش للعمر وتأمين للمستقبل والصحة، حتى ولو استمر سنة واحدة.

- الدنيا هنا مقفولة.

أنس لها، إيطالي مطلق بنصف كرش وآثار وسامة، وليست في إيطاليا ذراع فارغة لبنت في الثلاثينيات غير معلقة في ذراع واحد آخر .

حين هبط تونس شدت سمرة البنات خيوط قلبه وأنعشت الأرداف المنطلقة والعجيزات العالية بقايا جسده، وسمراء أو خمرية في إيطاليا باهظة التكاليف.

رتبت له شقته، طبخت له، أرخت جناحاً حين قرأت في بريق عينيه وارتعاشة يديه أنه مغرم، لم تسمح له أن يتذوق عرقها، وإن

هفهفت بالجناح الآخر.

اكترى لها شقة، طبع على خدها قبلة، وسافر بوعد أن يعود قريباً ينهي أوراقها ويطيران معاً.

اشترط عليها ألا تعمل.

يصلها مصروفها، ضعف أجرها في المقهي أو يزيد، إيجار الشقة وأشواق خفيفة، والتليفون بينهما.

الطبع غلاّب، بسرعة نزلت للشارع، تطوّحت من مقهى لآخر، لم تقنع بما في يدها، والإيطالي بعيد.

تضرب جبينها بكف يدها، تركل الطاولة تكاد تسقطها وتقول كالمجانين : مخ التونسي هكذا، لو فتحوه لن يجدوا خلايا وأعصاباً، سيجدونه محشواً بأوراق نقدية من كل الأنواع والألوان، وإن لم يجدوها فسيجدوا صوراً ضوئية منها.

نزلت للشارع وتركت أختها في الشقة، أختها الفاتنة التي تأخذ نقودها لتصرفها على زينتها، والتي لم يرها الإيطالي إلا قبل سفره بيومين، حكى لها عن الجسد في لوحات عصر النهضة الإيطالي، فحدثته عن الجسد في الشارع التونسي، برم معها المدينة بحثاً عن هدايا تذكارية في غياب نعيمة التي كانت في الحمام العمومي تجهز نفسها لسهرة أخيرة قبل سفره.

تعمل، وإن أكلها فخذها تسد جوعه، وتقتسم مع أختها النقود.

الغيبة طالت، والنقود تصل من إيطاليا في الموعد، ظله يبتعد ، تكاد تنسى ملامحه لولا انعكاس لمعة الليرة على وجهها، وحلمها بالسفر وتغيير حياتها.

حين طلبها في تليفون الشقة – لم تكن الهواتف المحمولة قد اخترعت بعد- كانت أختها هناك تخبره بصوت متردد أن نعيمة عادت للعمل، وتطلب منه بقوة أن يسامحها.

مرة ثانية وثالثة، والخيط الذي يرتخي بينه وبين نعيمة يشتد يقوى بينه وبين أختها، في المرة العاشرة قالت له : نعيمة عادت لصاحبها.

عبأته بنعومة حتى الفجر، وحين تناثرت شظاياه لملمتها، دعكت رجولته، ودعته أن يبرما الحياة معاً.

– فهمتك من أول نظرة.. نعيمة بنت سوق، بنت الشارع... وأنا... أنا عشقتك.

بسرعة عاد.

الخيوط السوداء دخلت في البيضاء، البكرة تتدحرج بسرعة مخلفة خيوطاً واهية لا تكاد ترى.

حين شاهد نعيمة في المقهى مع صاحبها، لم يترك فرصة لشيء، خرج تائهاً يتأرجح على منحنى، عند أعلى نقطة فيه قبل صابونة الانزلاق، أخت نعيمة كانت هناك، في أعلى المنتصف أيضاً على مسافة قدم واحدة، على مسافة يد واحدة، زحزحت نفسها بخفة، لعبت بأصابعها، شدته والتقطته، نَفَسه مقطوع بردان، وفي منتصف المنتصف احتضنته، لا شيء ينعش قلباً قدر حضن في لحظة برد الروح، كان جمالها يكشط ضباباً وألماً خفيفاً عن عينيه، وسخونة خصرها تعيد الدم لعروقه ومنتصف حزامه والمناطق المجاورة.

قلب العاشق لا يبرأ، قلب المغرم يبرأ، الأول يحتاج حانة وعاهرة، والثاني يحتاج حضناً وخمرية مغوية بأقل تكلفة.

احتضنته ثالثة وسابعة.

انزلقا معاً، ثم طارا معاً.

مثل الأفلام الهندية بالضبط، تقول نعيمة، فيلم أمام شاشة عينيها طوال الوقت، معروض على مدار الساعة، وأسئلة تنغزها من كل جوانبها.

لماذا يغير الأوروبي بوصلته فجأة وهو المعروف عنه أنه لا يكذب مثلنا، ولا يشغل مخه كعادتنا؟

لماذا غدرت بها أختها، لحمها ودمها وفلوسها، لماذا خطفته منها ؟

يحدث ذلك بين البنات أحياناً، أما أختها فلا..

تكاد تُشَل.

لم نشلته وهي التي تملك فرصاً أخرى كبيرة.

لا أحد يملك هنا فرصة يا نعيمة أو نصف فرصة، إنها تأتي بغتة إن أتت، والذي يجدها أو تهبط بين يديه ويتركها تمرق ولا يكمشها لم يخلق بعد على هذه الأرض.

لم تقدري أن تحلمي جيداً يا نعيمة، كان عليك أن تحلمي وأنت ترتدين كيلوتاً آخر غير هذا، حتى الحلم كنت ضعيفة فيه.

نظرك قصير، لم تحاولي أن تمديه بعيداً حين صادفك الطلياني، كأنك فوجئت حين طرقك وحين تركك.

أختك حلمت، وخططت، وطارت.

لا إجابة عندها ولا عتب على نفسها، الإجابة الوحيدة التي تلقتها وانغرست في روحها:

- أختك وأخذته، أحسن من أن يذهب لواحدة غريبة !!!

تكاد تجن.. كأنها جنّت.

من أجل فرصة أكلتها شقيقتها ولاكت قلبها أمام عينيها.

برجان من عقلها طارا خلف الطلياني وأختها، خلف فرصة ، والثالث دلها على أحضان الرجال فأطاعته.

كرهت الرجال، الأجانب تحديداً.

أول فكرة تقفز إلي ذهنها كل صباح بعد التثاؤب، أن تغير على الأجانب، تحصد النقود من جيوبهم، تحصدهم، تنهب أجسادهم، وتسبي أرواحهم إن استطاعت.

هبطت إلى مقهى الأجانب، أغارت عليه، كل يوم تبحث عن أجنبي غير مجيد اللبناني، تعبت منه ومن نقوده.

تريد أجنبياً حقيقاً ورجلاً، يأكل جسدها، يحصده، وتنهشه هي وتحصد نقوده.

تنتقم من الإيطالي فيه ، من أختها، من أنوثتها المكسورة التي تنزف أمامها كل لحظة، من إحساس بالغدر يخرج لها من تحت وسادتها قبل النوم.

قررت أن تحب نفسها، وأن تربت هي عليها دون انتظار لأحد، وأن تدوخ الآخرين بها.

وبدأت الطاحونة، تأكلها و تأكلهم.

للحم الأجانب طعم مختلف، لنقودهم أيضاً، تحاول أن تمحو صفعة أخذتها على قفاها، أمام عينيها.

قد تذهب مع تونسي على سبيل التغيير أو التقشف.. تشجيع الصناعة الوطنية مطلوب، لكنه في الغالب يعطيها عشرة دنانير أو لا يعطيها، قد لا تطلب، أحياناً يضربها أحدهم ويهرب، أو يشتري لها علبة سجائر ويعبىء هاتفها بخمسة دنانير وأجرة التاكسي.

الأجنبي في النقود أفضل، وابن البلد في الفراش أفضل والثأر مطلوب!

يوم وراء آخر، وأجنبي خلف أخيه.

تبديل السروج فيه راحة.

بدأت تهدأ، والكراهية تبتعد.

الثعابين المتنوعة التي زارتها ربتت على أنوثتها، والحليب الذي تشربته برّد جوفها.

لم تعد تجرح روحها، خففت عنها، أعدت جدولها ودللت نفسها، تصرف الإيراد بالكامل على لباسها وجسدها.

اطمئن، نعيمة تهبط إلى المقهى كل يوم عدا يوم الجمعة، لا تقبل أن تضاجع أحداً ليلتها أو يومها، ولا توافق مهما تلقت من هواتف، لا تحب أن تكسر قدسية اليوم والليلة.

– الجمعة، تنتشر فيه الملائكة بأعداد كثيفة.

مثلها كثيرات.

كل شيء يحدث في الحمّام، والحمّام فارغ اليوم، أحد كئيب كعادته، يوم من يومي الإجازة الأسبوعية،، الذين سهروا ليلته مازالوا في بيوتهم أو بيوت الآخرين، يجترون لذّة الليلة وتعبها.

والمقهى فارغ أيضاً، الرجال الذين أمُّوه صباحاً غادروه ظهراً، ولا فائدة منهم حتى ولو جلسوا، موظفون في الكهولة أو العجز، يقرأون الصحف، يتحدثون في كرة القدم، يتعاركون ويتصايحون بلا فائدة، ألسنة طويلة وسيقان متعبة.

والبنات القليلات اللواتي لم تجدن صاحباً أو مغرماً ليلة أمس تتخذن ركناً قصياً تجلسن بوجوه مكسوة بخيبة واضحة، تتحدثن بغيظ عن اللواتي اقتنصن مواعيداهن أمس، تتحسرن على الفرص الضائعة وسيغادرن المقهى جماعة بعد قليل، تضحك بقلب متعاطف وتقول : بنات الأحد.

تخرج لمقهى آخر علّها تغير حظها، تعود، تخرج وتعود.

والمقهى مازال فارغاً والوقت بطيء، الليلة جاوزت نصفها الأول، وصاحبة المقهى ليست هنا، لعلها تقضي اليوم بطوله مع صاحب لها.

على طاولتها تنتظر نصيبها، عينها على مهدي، القابع على مقربة منها، بوجه أحمر مكتنز به وسامة ساذجة، وجسد يشبه جسد مصارع، مترهل قليلاً، بقميص مفتوح على صدره العريض، يطل منه صليب كبير.

صامت، وجهه بين كفيه، ينظر بغيظ إلى الفراغ أمامه، كأنه يعارك أحداً داخله.

فجأة ينتفض وبلا سابق إنذار يباغتها، يصيح عالياً:

- أنا مسيحي، أنا حر.

يباغتها كما يباغت الجميع دوماً.

يقولون إنه المسيحي الوحيد تقريباً في المدينة غير القساوسة الموجودين في الكنيسة.

داخ ليبحث عن عمل، وحين سُدَّت في وجهه، ويأس من وجود فرصة تحول إلى الدين المسيحي.

مسيحي واحد وستة قساوسة.

عمل سابقاً حارساً ليلياً لمعظم الملاهي الرديئة، يتلقى الضربات من الرواد السكارى والبوليس، يقطع المعازيم ثيابه وينهش البوليس جيبه.

تحاول أن تكلمه لتأمن غضبه، وقد يؤنس وقتها، لكنها تخشى أن يضيّع عليها زبونها المحتمل والذي قد يطل في أية لحظة.

يقولون إنه يجري في الشوارع صباحاً، وحين ينهكه التعب والجوع يهجع إلى المقهى، قد يجد نصف ساندويتش أو قطعة كرواسون وكوب شاي، في كل مرة يسأل عن النعناع.

بصوت خفيض يقول لجار لا يعرفه : إن الحكومة ضيقت عليه الخناق حين تحول إلى المسيحية، وأخذت منه هويته، لكنه أخفى جواز سفره.

وقد يُسر لك إن اطمأن، بأنه كان يهرب إلى الحدود المتاخمة يدخل الجزائر، يصعد الجبال، يوقف سيارة كيفما أتفق، يرمي صاحبها خارجها ويستولي عليها.

يبيعها بسرعة لأناس يفككونها ويبيعونها مذبوحة بالقطعة، يعود لتونس يصرف غنيمته حتى تنتهي، وهكذا.

مغامرة رابحة، لكنه الآن خائف، اختلطت الخطوط والوجوه بين الحكومة هناك وجماعات مسلحة من كل لون وأصبح الصعود مقامرة قد تؤدي به إلى الموت.

اطمئن، إن كنت أجنبياً من رواد المقهى وأمامك جهاز الكمبيوتر، سوف يقترب منك فجأة وأنت مستغرق، لا تنزعج منه، بأدب شديد وبصوت بين الأمر والرجاء سوف يطلب منك أن تدخل على صفحة أميركا، وتقدم له طلباً للعمل في المارينز.

يطلب هذا من أجنبي فقط، يخفض صوته، يهمس بأن التوانسة الموجودين في المقهى قد يبلغون عنه الجماعة.

- ساعدني، بالله ساعدني، أنا لا أعرف الإنجليزية.

وحين تخفض صوتك أنت أيضاً إلى أقل موجة وتقول له : في وقت آخر يكون المقهى فيه فارغاً حتى لا يشعر بنا أحد، أو أنك ستفعل له ما يريد في البيت بعيداً عن أعين الجماعة ، ترتخي ملامحه وينسحب بهدوء، لا تعرف إن كان ممتناً أم يائساً، وحين يصل إلى طاولته يصيح :

أنا مسيحي، أنا حر، لن أتحرك من هنا إلا إذا جاء المسيح وأخبرني.

بحسرة ينظر ناحية نعيمة المنتظرة بالحسرة أيضاً، ويقول كأنه يخاطبها ويخاطب نفسه :

- المليح يبطئ.

تبتسم.

هو ونعيمة، كل يبحث عن مسيحه.

هو يريد أن يراه رؤية العين وأن يخبره، وهي تريد أن تراه وتلمسه وأن تنام معه لترتاح راحة أبدية، لولا أنها تخشى أن يضبطها الأمن معه.

– اليوم يوم الجبانات يا نعيمة، يوم التُرب.

ويدير ظهره.

وحدها نعيمة، تربي وحدتها في زاوية المقهى نصف المضاءة نصف المعتمة، العمال شرعوا في جمع الكراسي والطاولات، ومهدي غادر فجأة كسيارة شحن طائشة، كان يسلي وحدتها، تخبئ حكايتها في حكايته، تكاد تقشر وحدتها علّها تجد سبباً يريحها.

ولا زبون لتذهب معه، صاحبتها التي تبيت عندها أغلقت هاتفها، سيحضر صاحبها، وهي حريصة ألا تأخذ واحدة عندها ليلة حضوره.

تُخرج محفظتها، تدسها أسفل الطاولة، تعد نقودها خفية خشية أن تضبطها الملائكة، علّ غلتها توصلها لمنطقة الزهراء البعيدة عن حي النصر حيث يقع المقهى.

حصيلة اليوم قليلة، أربعة عشر ديناراً فقط، والأجرة بالتاكسي أربعة عشر أيضاً، تعرفها.

ولا باص ولا أتوبيس يمر في حي الأغنياء.

الأضواء انسحبت، تقف على باب المقهى، ربما يعبر أحدهم، تنظر بعين واحدة إلى الذين يهبطون من سياراتهم ليسحبوا النقود من ماكينة الصرف الآلي في فرع البنك المتاخم للمقهى.

ماكينة صرف آلي تقذف النقود، وماكينة صرف آلي تنتظر النقود.

تيأس، تنزل الهضبة، تصعد للناحية الأخرى، تجر ملامح منهكة، زائغة، بجسد واقف ووجه من مخلفات الحرب، مرت عليه سيارة متهورة.

تشير لسيارة أجرة، تفتح الباب الأمامي جنب السائق، تسأله وهي مازالت بكامل عدتها على الأرض لم تدخل بعد :

– الزهراء؟

تتحسس الدينارات القليلة التي حصدتها بعد أن حصدتها أوراك وصدور نهمة.

بسرعة يقول لها :

– ادخلي.

المعتاد ألا تركب البنات جنب السائق.

– الزهراء ؟

بحدة :

- قلت لك ادخلي.

تتحسس الدينارات ثانية.

تدخل قدماً، وإلى أن تدخل الثانية وتستقر في مقعدها بجانبه يبدأ شريط صور من زاروا خبيئتها في المرور أمام عينيها، تكاد تتذكر كل الكوابيس التي وقفت لها على حافة سريرها وحياتها ، كيف باعت ولم تشترِ، تسأله وهو يحرك فيتيس السرعة غاضباً لينطلق :

- لحم ؟

- نعم !!!

- لحم ولاّ فلوس؟

باب الهوى

كل شيء يحتاج لبائعات الهوى.

يقول لك أبو شندي وهو جالس، على طرف طاولتة، في زاوية قصية يراك ولا تراه، تحت صورة الرئيس مباشرة.

تبدل المقعد ولم تتبدل الأعوام ولا صورة السيد الرئيس.

وجه محايد دون تعبير واضح، يبدو كأنه قضى وطره من الدنيا، كأنه لا يأمل في شيء بعد الآن، ينفث سيجارة تلو أخرى بعجلة، غالباً ينساها مشتعلة ليدخل في غيرها.

أعوام وهو في المقعد نفسه، لا يفارق طاولته وإن وجدها مشغولة يجلس على مقربة حتى تفرغ وإن عرف أن شاغليها حضروا للتو يخرج ليأخذ لفة ويعود، في الغالب لا يعود.

وحيد غالباً إلا من بقايا فلسطينيين يأتنسون به أويؤانسونه، يفرغون ما تبقى من شحنات غضبهم أو غيظهم معاً، يلتمون على بعضهم كأنهم اجتمعوا لعزاء.

ينضمون واحداً تلو الآخر، يجلسون متفرقين على طاولة واحدة في يأس واضح يمكن لك أن تعرفه بمجرد رؤيتك له.

عاد الفلسطينيون إلى رام الله و إلى غزة بعد أن قضوا أعواماً في ضيافة تونس منذ الخروج الكبير من بيروت عام 1982.

بسرعة لملموا تاريخهم، وما اتسعت له حقائبهم، وتجمعوا صفوفاً ليتأكدوا من أسمائهم.

بضعة أفراد لم يجدوا أسماءهم في كشوف العائدين، هو واحد منهم، اسمه كان في كشوف الإسرائيليين، ممنوع من العودة، يده ملطخة بدمائهم.

الإسرائيليون أشاروا عليهم بالواحد، كان على رأسهم، وأمروا :

هؤلاء لا عيش لهم عندنا ولا عندكم.

رحلوا – رحل أصحاب القوائم البيضاء- تاركين لهم أفران الغاز القديمة وطناجر المقلوبة.

يجلس في المقهى بملامح مكتفية بدون وظيفة ولا عمل ولا نقود تحسب سوي المنحة التي تأتيه من هناك.

يسرح بعينيه بعيداً متخطياً كل الحدود التى أمامه، كل الحكايات وكل التبريرات، يسحب نفساً عميقاً من سيجارته و يقول بدون أسى :

- سبحان الله، جماعتنا يسمعون الكلام والجماعة عندهم لا يرضون بأقل من قتلنا .أودفننا أحياء حيث نكون

لا تضغط عليه، لن يحكي لك كثيراً أو قليلاً ! دعه يحكي حسب الحالة.

عشرون عاماً من النضال تحت راية الثورة الفلسطينية في بلاد الله ومثلها في تونس بعد أن طارت الراية أو تبدلت.

لم يعرف ألعاب الأطفال، لم ينم ليلة على أغنية مفرحة، لم يعرف سوي أسماء الشهداء، صاحب البندقية، أخذها في حضنه ونام، لم يلعب بها، قسم إيمانه على نصفين، نصف في ظهره ونصف بين عينيه.

حين اشتد عوده شده أبوه من كتفيه، قال له، لا تعد إلا ودماؤهم على يديك أو مت ودماؤهم عليها.

الطريق طويلة والنضال اختيار.

يتذكر دائماً طعم العملية الأولى، كانت في بوخاريست ضد واحد من عصابة الهاجاناه اليهودية، التي دبرت مذبحة دير ياسين ونفذتها في الفلسطينيين العزل، أبادوهم بدم بارد، أشعلوا النيران في بقاياهم، حتى لا تنبت عظامهم في الأرض مرة أخرى، وبعد أن استتب الأمر لهم تفرقوا في البلاد سعداء بعد أن كبروا وكبرت إسرائيل، وحتى لا يكونوا هدفاً سهلاً للانتقام القريب.

الباقون على قيد الحياة منهم حوالى أربعمائة انتشروا بعد أن شربوا من الدم ما يكفي لقيام إمبراطورية، تم تحديدهم وتحديد أماكنهم.

الثورة شبت في العروق، ودم الأهل لم يجف بعد، واحد منهم كان في رومانيا يستمتع ببقية عمره سعيداً، تقدم منه أبو شندي وخلفه زميل له يحميه وعالياً صاح في وجهه : باسم الثورة الفلسطينية.. أطلق النار، أرداه قتيلاً وتأكد من غيابه، ثم وضع سلاحه جنب قدمه، رفع يده بعلامة النصر وسلم نفسه سعيداً أيضاً للسلطات الرومانية.

يخدش خده برفق :

- بعد هذه العملية لم نعد ننتظر الأوامر، أصبحنا نبحث عن الشغل بمفردنا.. شعرنا أننا كبرنا وعرفنا طريقنا وحدنا.

انتقل للإعداد والتخطيط، يكوِّن مجموعات، يدربها يشحنها وينتقل من بلد الى آخر يطارد الذين طاردوا أهله وأخرجوهم من ديارهم، يخطط لقتل الذين يقتلونهم صباح مساء، فجأة يلتفت ناحيتك ليقول: المومسات. ويضغط عليها :

- كل شيء يحتاج للمومسات حتى الثورة.

يمد أصبعاً، تكاد تدخل في عينك، وبكل جدية غير متوقعة :

- الثورة الفلسطينية الحقيقية بدأت في سوق المومسات.

قلت لك أبو شندى يحكي حسب مزاجه، لا تنتظر منه شيئاً غير هذه الإشارات أو العبارات الملغزة والمباغتة.

اهدأ ولا تتعجل، سوف يحرك أبوشندي أصابعه في اتجاه الهدف، أصابع نحيلة طويلة مشطوفة كأصابع عازف البيانو في خيالك و يقول: مسرح العمليات ضد إسرائيل في تلك الفترة كان في أوروبا، كان لا بد أن يكون لنا موطئ قدم هناك، نقطة وصل مع القيادة المتمركزة في لبنان في ذلك الوقت، مركز يحتاج لغطاء حتى يستطيع التخفي.

اشترى ماخوراً في ألمانيا، داراً أو سوقاً للمومسات كما يحب أن يسميها، يلفظها كأهل لبنان، من دورين : التحتي صالة للقمار يرتادها الألمان والأجانب من كل لون وفي العلوي اثنتا عشرة غرفة للعاهرات المرخصات، ساحة للعمليات، يدخل من يدخل ويخرج من يخرج.

البدروم كان مخزن العمليات : القنابل والرشاشات والخرائط واللاسلكي وبقية الأجهزة .

العمليات في الأعلى والمخزن في الأسفل، كانت الفكرة لعميل مزدوج بيننا وبين إسرائيل اشتكى من بعد مركز اتخاذ القرار عن مكان العمليات.

- واشتغلنا..

العاهرة الثانية عشرة ماتت فجأة، شيعناها كما يليق بمجاهدة حقيقية، وعندما عدنا وضعنا الورورد على سريرها واتخذنا غرفتها مخزناً إضافياً لقنابلنا ورشاشاتنا.

العاهرة الثانية عشرة أوقعت صدفة بإسرائيلي كان يريد أن يصطادنا، فاصطدناه في غرفتها بمساعدتها، قتلها فقتلناه، وشيعناهما معاً في تابوت واحد.

- حرقناه حتى لا تنبت منه عظمة واحدة..

كانت بنت أصول، العشرة والعيش والملح بيننا منعتها من خيانتنا.

يغيب عنك طويلاً وهو يجلس أمامك كأنه يمد بصره هناك حتى سريرها ويقول:

- تصور، المجاهدة الثانية عشرة كانت تعلق في غرفتها وفوق سريرها مباشرة من قبل أن نشتري الماخور- صورة ياسر عرفات .

- لم نكن نعرف.

يلتفت ناحيتك صامتاً ، يحملق فيك بعينين لوزيتين صافيتين تحكيان وحدهما :

- اشترينا سوق المومسات بثمن خمس كيلوات من الهيروين دبرها أحد مناضلي الثورة المتحصنين في لبنان، تصور!

استلمت الكمية في بون، وباعها العميل المزدوج في برلين، وبجزء من ثمنها اشتريت الماخور، بعد ذلك اشتريت مطعماً ونادياً للرقص، نصرف من إيراداتها على العمليات في أوروبا.

يضم ملامحه:

- العدو كان ناجحاً، يمتلك أكثر من خمسة وعشرين موقعاً في ألمانيا وحدها.

يكثف ملامحه، تكاد تشعر أنها تتعارك.

- كنت مغتاظاً، قلبي يحترق كل يوم من قدرته وضعفي، من ضيق أفق معظم الذين كنا نعمل تحت قيادتهم حتى استطعت بمساعدة الهيروين أن أقتفي أثر العدو، أحاربه بما يحاربني به وأوجعه حيث يوجعني.

لم أعرف طعم النوم ولا رائحته لليال طويلة، نسيته، فقط نمت حين نجحنا فى حرمانهم من النوم، أدخلناهم جحورهم، ورأينا ذعرهم فى قلوبهم قبل عيونهم، شاهدنا دموعهم بعد ان أبكونا سنين طويلة، ولا مناديل عندنا تكفي.

لكن جماعتنا بعد أن فتحوا خطًا مع الأمريكان وتوهموا أنهم وصلوا خط النهاية – أمرونا ببيع كل شيء فجأة، وانهد الفرح في غمضة عين.

سبحان الله جماعتنا يسمعون الكلام !

لم يطاوعه قلبه أن يبيع دار المومسات بنفسه، ترك ألمانيا ورحل.

يشعر أن كل عاهرة، كل ضحكة متهتكة وكل عجلة روليت على طاولة قمار قطعة منه، يحفظها ولا ينساها.

- كنت أتمنى أن أودع العاهرات واحدة واحدة، أن أنام في حضنهن جميعاً لأفوز بالسعادة القصوى وأحتفظ بأوسمة من عندهن، الوسام الوحيد الذي نسيته : أن أضع وردة أخيرة على سرير العاهرة الثانية عشرة.

لم أستطع، باعها العميل المزدوج مرة أخرى.

الشيء الوحيد الذي لم ينس أن يشدد عليه هو ألا يبيعها للإسرائيليين مهما دفعوا حتى لا يحلوا محلهم.

يموت ولا يخرج من دار أو محل أو قطعة ولا شجرة زيتون ولا سرير عاهرة ولا قطعة أرض ليطأها إسرائيلي بعده.

- أمرونا أن نبيع كل شيء فجأة ومرة واحدة.. الحمد لله توفرت لدينا مناديل كثيرة.

على وجهه أسى نادر لا لون له وإن كان برائحة الحنظل، يدق الطاولة يكاد يرمي مطفأة السجائر :

- جماعتنا يطبخون كل يوم بيومه لا يُبقون حليباً للغد، لا يوفرون فرصة لمساء ولا يخططون أبداً للمستقبل.

يخف الأسى وتنفرج أساريره، يقول :

- الهدية الأخيرة كانت من العميل المزدوج بعد سنوات، خفت أن تكون مفخخة من العدو، للمفاجأة كانت سراويل العاهرة الثانية عشرة وسريرها.

رحل الفلسطينيون الى رام الله وغزة، لا يقول لك أبداً عادوا، يعتبره نوعاً من الرحيل العشوائي لكنه يجد لهم دائماً نوعاً جاهزاً من العذر، عيونه تكاد تفضحه بالحسرة، وغياب الأمل يسرح على وجهه، لكن اسمه الموجود في كشوف الإسرائيليين يضيء سماءه وروحه ويطفيء جهاته وجبينه.

رحلوا، تركوا أبو شندي وآحاداً مثله يدورون داخل دائرة مغلقة يركلهم من يركلهم بقوة، لا يعرفون من أين، يرتطمون بالسقف بسرعة ثم يجدون أنفسهم على الأرض فجاة.

في لحظة يأس وحنين لحائط يتكلم معه، لامرأة تضحك في وجهه وتمضي، تزوج تونسية وأنجب بنتين تعلقان خريطة فلسطين في عنقيهما ولا مانع لديه أن يتسول ليشتري لهما لعبة تلعبان بها...أو ليلعب بها معهما.

- إسرائيل حبستني وحبست أولادي.

وحيداً على طاولته، يقلب أيامه، يقلب هاتفه، يفتحه بين دقيقة وأخرى، يتفحصه بوجه ضجر كأنه ينتظر هاتفاً ما، وحين يسمع رنينه يكاد يقفز من مقعده، ثم يقول :

- الله يرحمه الله يرحمه.

ينهار داخل نفسه، والمقعد يغوص عميقاً.

قد يغالب نفسه ويلتفت ناحيتك ليقول بصوت منخفض عميق :

- لم أعد قادراً على الصحبة ، آخر واحد من أصحابي مات في التسعينيات، أكثر جملة أقولها منذ سنوات : الله يرحمه.

يقول ونصف سخرية العالم في نصف وجهه والألم في النصف الآخر:

- إسرائيل حبستنا كلنا في أماكننا.

لا عمل له، يصحو كل صباح من النجمة يصنع الفطور لطفلتيه، يلبسهما ملابسهما بنفسه، يهبط معهما إلى المدرسة المجاورة، يعود إليهما في وقت الفسحة، يحمل الساندويتشات التي صنعها بنفسه أيضاً، يلعب معهما الألعاب التي لم يلعبها صغيراً، يحضر للمقهى حتى تنتهيان، يعود ليأخذهما، ويعود في المساء، وهكذا يدور حول نفسه طول النهار لا يجد ما يفعله، لا نقود تعزي، ولا أمل يغري، ولا أطفال يكبرون سريعاً ليرتاح، ولا بصيص أمل في العودة لدار أبيه، ولا موت ينقذه من هذه كل هذه الألعاب التي لا تنتهي، وحتى حين تسرقه السكينة ويغني لا يجد من يسمعه وإن تصادف لا ينصت ولا يفهمه.

ضاقت عليه تونس والدائرة انكمشت، البلد ضيق حيطانه ناشفة، وشوارعه كلَّت من مروره المتعاقب، والوقت لا يمر، حاول أن يذهب للأردن، الباب الوحيد الباقي مشرعاً، يستطيع هناك أن يجد الصحبة والونس بين الفلسطينيين، يأكل المقلوبة ويجد أطفالاً يلعبون مع أطفاله، يحكون حكايات متشابهه، وربما يجد واحداً يحكي له عن أبيه.

قد يجد عابراً من الأردن إلى الضفة ينقل رسالة من جملة واحدة : مت وأنت مرتاح، نفذتُ وصيتك.

الطائرة التي جلبته للأردن أرجعتة لتونس، في فترة الانتظار راح يعبث في صحيفة يقتل بها الوقت الكئيب، وجد أباه في صفحة وفيات الأرض المحتلة.

– إسرائيل حبستني داخل مترين، واحد في الدار وواحد في المقهى.

ملامحه تطفح بالهزيمة، هزيمة لامعة بسوادها، تميل متثاقلة على جسده، يتمنى لو يتركها على مقعده ليكنسوها يوماً بعد يوم.

يدفن وجهاً مكسوراً بين كفين، بعد برهتين يفتحهما قليلاً، يواربهما ليقول بسخط :

–هذا وجه أستطيع أن أقابل به الله والشيطان ولا أستطيع الدخول به الى بلد آخر..

أصبحنا بقايا، الحكاية كلها بقايا، بقايا نضال، وبقايا حياة، هنا لا أعيش ولا أموت.

و على حظه يعيش في منطقة يقطنها الصفاقسية، قدموا من صفاقس أخذوها بيضاء وعمروها، لا يحبون أن يشاركهم أحد أو يشاركوا أحداً إلا مضطرين .. تعلموا من اليهود، لن تجد واحداً بسهولة يقول: الله يسامحه، بل يقول: والله لنحشوه له، يقولها بغِلٍ وهم بكل أسف يعتبرون أن كل الناس أجانب حتى التوانسة غيرهم، وقرشهم لا يذهب أبداً لأجنبي، إذا احتاج أحدهم شيئاً ولو بسيطاً من

عطار يبحث عن عطار صفاقسي مثله، من نفس جنسيته ولو كان بعيداً، يتاجرون في الأعمال الخفيفة التي تجلب مكسباً سريعاً ولا تتعرض للخسائر: نظارات وذهب وخلافه.. شربوا من اليهود، عاشروهم وشبعوا منهم.

- لا أعيش ولا أموت.

كان أبوشندي قد داس على الموت منذ حمل البندقية بوصية أبيه، داسه في أكثر من موضع وبلد، فرمه بقوة تحت قدمه ومضى، تخلص منه تماماً كأنه ديناصور منقرض، يوقن إن حانت ساعته أنه سيصعد، سيطير إلى الأعالي بعد أن يلوح لأصحابه مودعاً، ولن يموت تماماً:

- لم يكن هناك عقد بيني وبين فلسطين ولا شروط، الشروط كلها لها، بصمتُ بالعشرة ومضيتُ.

يلف ميدالية مفاتيحه على إصبعه ينقر بها، يصنع إيقاعاً منتظماً مفرحاً : - عندما تعشق امرأة أو أغنيه لا ترى فيها شائبة، تراها كالكريستال صافية، تحبها تعطيها روحك وتخصم سعيداً من بقية عمرك ليزيد عمرها، حتى عندما تحب فكرة أو أغنية تفرد شراع قلبك راضياً سعيداً..

ما بالك ببلدك.

لكن السلَطَة الفلسطينية – ينطقها مفتوحة – يكرمها الله، كسرت الكريستال أو أعطته لوناً آخر وأكملت جميلها : خفضت رواتبنا، أحالتنا إلى التقاعد أحياء بعد أن رمتنا سابقاً على رصيف الموتى الأحياء.. بالكاد نكمل نصف الشهر.

يزفر بقوة، وجهه ينطق بالغيظ يكاد الدخان يخرج منه، سحابة تحترق فوقه، أو كأن قطاراً يشعل فحم الداخل ينطلق فجأة و يقول : من ثار تقاعد، من ثار جاع، من ثار لم يعد يعرف إن كانت فروض الصلاة أربعة أم خمسة، لا شيء مؤكد، الشيء الوحيد الأكيد الذي يعرفه جيداً أن قبلته أصبحت في اتجاه الغرب، في اتجاه إسرائيل والدول المانحة.. ثم بوجه تتلبسه الحكمة يكمل : لا تتعب نفسك، لا يقتني المرء كلباً لينبح بنفسه. يقولها ثم يخرج دون أن يودعك.

إن كنت سعيد الحظ قد تصادف أبو شندي في المقهى بالليل بوجه حليق، شكله ابن ليل أنيق، النبل يكاد ينط منه ، وإن صادفته نهاراً فستجد الضيق يطفح من خلقته بوجه فائض عن ملامحه بالهزيمة.

يغيب أياماً، ربما نفدت نقوده، ربما يصعد إلى الشاطئ الذي أبحرت من شواطئه سفن الفلسطينيين العائدة إلى رام الله ليتأكد أن الشاطيء مازال في مكانه.

مرة اختفى، عاد بوجه غائب تماماً كأنه ليس هو، يتنهد و يقول : كنت هناك. يصمت برهة ثم يضيف : كنت خائفاً ألا أجد الشاطئ هناك، أن يكونوا حملوه.. خفت أن يكون البحر قد أكله.

يهبط كل يوم من داره صباح مساء، يقتطع من راتبه ستين ديناراً شهرياً نصيبه من الراتب و يترك الباقي لصغاره.

– الموت ليس واحداً، الموت حزمة، هزمتُه داخلي من زمان و قرأت الفاتحة على روحه، يهزمني الآن يتجسد في الخوف على طفلتين.

ستون ديناراً، لكل يوم ديناران واحد للنهار وواحد لليل ثمناً لفنجانين من القهوة، وإن صادفه أحد شاركه طاولته ودفع نيابة عنه لا يعود في المساء أو صباح اليوم التالي.

يحب أبوشندي هذا المقهى، لمة الأحباب، باسمه بأحبابه بصاحبته بمومساته : المقاهي الأخرى تولد الكآبة يقول، ونحن لسنا في حاجة لمضاجعتها بكآبتنا.

يحب المقهى بثواره القادمين من كل البلاد شاهرين أسلحتهم، بمجاهداته القادمات مشرِعات أردافهن، بحركاتهن التي تسحبه إلى الماخور الذي اشتراه وانتزع منه، تسحبه الى حب الحياة .

يتفرج على فلوس الثوار، فلوس المجاهدين وهي تعبر أمام عينيه إلى جيوب المجاهدات.

يتفرج وحده.

واحد من المجاهدين يتطلع بغبطة إلى المجاهدات، يعشقهن يصاحبهن ويقضى أوقاته على وقع ألعابهن، يلتفت إليك في آخر الليل قبل أن ينهض من مقعده مودعاً :

– نحن نشبه المومسات، صدقني، لكنهن أفضل منا، الفارق الوحيد أنهن يفهمن أكثر من قادتنا.

تكاد تصعق من صراحته وتشبيهاته، لعله يستهزئ أو يسخر، لكنه يعاجلك :

– على الأقل هن يحصلن على مقابل أما نحن فلا.

باب الأقواس

عشقتُها.

كانوا مجموعة من المشايخ يرونها لأول مرة، كنت أعرف أنهم يريدونها، أما أنا فعشقتها، حكايتي معها حكاية : ذبنا في بعضنا كعاشقين.

يودون لو يفهموها وأنا لا أريد أن أفهم شيئاً.

تنام عندي مرتاحة هانئة، تفتح عيونها، تسلمني شفرتها بوداعة بمجرد أن أمرر أصابعي عليها، حين تشعر بنبضها أو سخونتها تستعيد وميضها، تبوح بأسرار قلبها.

– البندقية ؟

– نعم.. البندقية.

كانوا مجموعة من مشايخ الدرجة الثالثة أو الرابعة من الإخوان المسلمين، إخوان ورق، وكان علي أن أدربهم أن أفك لهم شفرتها، رموزها، أن أسلمهم مفاتيحها، لم يمسوها من قبل ولا شموا رائحة بارودها مرة، لم يشعروا برجفتها حين تنطلق ولا حين تنزلق بين أيديهم كأنها امرأة تريد أن تهرب منك لتعيدها أنت ولا بهياجها حين تفعلها مرة، ولا بأنينها عقب أن تملأها وتفرّغ جوفها، كأنها تريد من يغمزها فقط بإصبع لتعود بإرادتها، من يضغط على سرتها لتنطلق وتحكي.

بين مجموعة مشايخ نصفهم عميان عاش أبو شندي أجمل فترة في حياته في لبنان أثناء وجود الفلسطينيين هناك.

اختبأ عندهم، عاشر وصاحب، درب وأعد، خطط وضحك، عرف اللذائذ دون مساحيق.. مشايخ على حق ربنا لا يفكرون سوى في الأكل والنسوان، الآن تبدلت الأدوار، جاء دورهم ليعرفوها ليفهموها جيداً كي يشاركوا في الثورة.

ماذا يفعل مع أصحاب الكروش والشهوة العارية والخراطيم الجائعة ؟

لو شرحها لمهندس لحدثه بلغة يفهمها عن الأعمدة والأقواس الناعمة والحديد والنتوءات والزوايا، العمارة بمعنى الجسد، عمارة الجسد، مثله، بشكله، بروحه، أعمدته صلابته ، انحناءاته والفراغ الممتلئ والأشياء الملفوفة.

لو شرحها لمن يعمل في صناعة الأحذية لحكى له عن القالب والمقدمة الرفيعة والمؤخرة العريضة الملفوفة والعيون التي يمر منها الرباط ولمعة الخد والكعب العالي.

– القالب غالب.

يضحك.. الفتة إذاً قياس مناسب.

لكنه لن يقول لهم، إنهم أمام قصعة من الفتة حتى لا يجري ريقهم ويلهثوا.

يحتاج لمقياس آخر يقيس عليه.

البندقية مثل المرأة، تشبهها.. قال.

– أكثر ما يشبهها..

الجزء الخلفي فيها اللامع المصقول بعناية، المنتفخ بحساب حتى تضمه لصدرك جيداً ليركن ويرتاح فيه – هو المؤخرة.

بلعوا ريقهم.

– هو باب البدن..

مخزن الطلقات هو فرج البندقية، يسع ثلاثين.....

ضحكة مكتومة انفجرت في الجمع ومن الجمع.

الله يلعن أباكم (في سره).

- يسع ثلاثين.. ثلاثين طلقة.

يده تتحرك بهدوء لأعلى.

الجزء الممتلئ تحت رأسها الرفيع المدبب هو صدرها.

يحاول أن يضبط الحكاية قليلاً، أحس أنها تكاد تتملص منه وتغنج وحدها، وأنهم ساحوا وأدمغتهم ارتفعت بدل أن تفهم.

– هذه القطعة الصغيرة المدورة ذات التجويف والنائمة داخل مركب هي نن العين التي نرى من خلالها الأعداء والأحبة.

عيونهم مفتوحة على آخرها.

والشعيرة الصغيرة المرتفعة هي منخارها الحلو، والغطاء الذي يفتح ويغلق هو ثوبها الذي تتزين به، ستارها وسترها، هو غطاء باب البدن.

لم يبق إلا هذا الجزء الطويل الملفوف بعناية من الخارج، الناعم المدور، مملوء من الداخل بالتجاويف والتعاريج والانحناءات حتى تخرج الطلقة من الجزء المستقيم مستقيمة إلى هدفها.

– اسمه الماسورة.

فكر أن يقول أنه يشبه شيئاً آخر لكنه تراجع.

- من عيونهم الجائعة المنسكبة عرفت أنهم لم يهضموها لكنهم عشقوها.

- عشقتها، نعم عشقتها..

كهربتني.

سري التيار في جسدي فجأة دفعة واحدة حين رأيتها.

أرعدتني.

وكمن أصيب بالشلل رحت بالعافية أفرك عيني، لا أعرف بالضبط وحتى الآن ماذا حدث وقتها .

اندفع التيار داخلي، تأكدت ساعتها فقط أنه مازال في جوفي قلب، قلب يمكن أن يخفق في اتجاه آخر، الحب لفلسطين بقيت منه نبضة توقظها امرأة.

كانت تتمشى على الشاطئ بفستان فوق الركبة بقليل.

كل جزء منها يتكلم تحت الفستان وحده، يحكي حكايته وحده.. يتحدث أو يهمس مع جزء آخر.

الفستان فقط كان ينظم الحكايات، يخفي حديثا دافئاً أو يظهر حواراً خافتاً.. فستان بألوان.

كانت تتمشى على الشاطئ، أو لعل الشاطئ أحني خده وفرش جسده تحتها.

كنت أحتسي كأساً مع صديق على عتبة شاليه في مواجهتها، على حافة البحر تماماً.

انتفضت من مكاني، نفضت الشلل، لكن مازال فيَّ خدر كبير، كانت تقترب باتجاهنا والنبض يدق بعنف، ازدادت قرباً.. يا الله.

كمن جمع غزالتين في غزالة واحدة أخرج رأساً وأبقى رأساً و أدخل الساقين في الساقين.

وقفت بكلي، بكل ما بقي فيَّ، لا أطراف لي، أرتفع.. أكاد أطير، فقط أتشبث بالارتفاع الذي يجعل عيني في عينيها.

لا أتذكر حتى الآن إن كنت قد سلمت عليها أم لا، إن كنت قد مددت يدي، كلي ممدود منطلق في اتجاهها كموجة أطلقها البحر ولم يستردها.

- يا ربنا!

و هي كانت تنتظر وتبتسم بهدوء، كأنها شاهدتني في الحلم ليلة أمس.

من ثانيتها دخلت تحت لحمي، تسربت إلي بألوانها.

هل رأيت يوماً وجه رجل عاشق ؟ هل اكتشفت يوماً كيف تتبدل ملامحك فجأة في المرآة وفي أعين الآخرين ؟ كيف تشعر أنك أصبحت أكثر الرجال وسامة على وجه الأرض وأكثرهم امتلاءً وزهواً ؟

قلت :

- هل تؤلمك قدماك ؟

- لم أمش بعد كثيراً.

- لقد جريت أمامي طويلاً في الحلم ليلة أمس.

أخذتني، أخذتها وذبنا.

أصبحنا نفساً واحدة.

في العمر تحدث هذه الحكاية مرة واحدة، في القرن قد تحدث مرتين.

مسيحية لبنانية، يقول لك، يضيف : جمال العشق أنه يصبح هو الديانة، ينحي كل الديانات أو يجعلها تذوب فيه وتأخذ لونه وطقوسه وصلواته.

عيناه تلمعان، تكادان تضيئان:

– العشق هو الديانة الوحيدة التي تقام طقوسها وصلواتها بالبهجة، وتدق نواقيسه في غير ميعاد حتى وإن صدقت كلام الصوفيين عن الموضوع نفسه، صدق بقلبك أكثر كلامَ واحد عاشق.

يغمزك أبو شندي بإصبعه في كتفك حتى تعود :

– ألهتني عن الدنيا، سحبتني من دنيا البنادق لدنيا الحواس، من دنيا لدنيا، كل شيء متوتر في الأولى، مرتاح في الثانية، كل شيء يصرخ في الأولى ويتأنى ثم يشهق في الثانية.

انتقلت من نار لنار، من جنة لجنة وإن تشابهت الجبهات أو تماثلت.

بقلبٍ مغروز في الاثنتين، واحدة أعطيها قلبي وأفكر معها، وواحدة أعطيها قلبي وأفكر لها.

لم نترك فرصة لمطعم، لحانة، لبائع زهور ليعتب علينا، لم نترك لمسة لم نخترعها، زاوية لم نعطها ما يكفيها بقية العمر من رائحة القبلات، لعبة لم نلعبها لندخل في بعضنا بالتواطؤ، لنربح معاً، اخترعنا العشق عند كل محطة قطار وعند كل باب ليل.

نشم بعضنا من رائحة الهواء، أعرف أين هي دون بوصلة، أشم رائحتها في كل مكان، وتحضن رائحتي على جسدها ومخدتها وشرشفها وأنا غائب.

لا تغسل ثيابي بعد الاستحمام إلى أن أعود.

هل جربت أولئك النساء اللواتي يحشرن آخر قطعة ملابس ارتداها رجالهن بين ملابسهن، في الدولاب أو غير الدولاب إلى أن يعودوا، لا تغادر مقعدها في الشرفة، بانتظاري إلى أن تشعر بطيفي.

هل تعرف الحب الذي يسبب العدوى ؟

صرنا كالعدوى لكل مكان ندخل فيه، لكل الأصدقاء ولبعض الأعداء، يشار علينا بمجرد أن ندخل ردهة مطعم أو مقهى، عندما نتسكع في سوق أو حانة، كوباءٍ فاخر لا يحتاج مصلاً ضده، مصله من وبائه.

امرأتي كانت فلسطين، صرت عاشقاً بأربعة أجنحة، معلقاً بالهواء، عشت، لا أعرف كيف أوفق بينهما، لم أستطع بسهولة.

واحدة بين عينيَّ، وواحدة تحت عينيَّ. أخرت عملية في ألمانيا من أجل عيونها، خربتها، ضاعت بسبب فروق التوقيت في صلاة العشق.

لم أستطع أن أتركها وحدها.

كانت تلد.

لم أقدر على البعاد، لم أقدر أن أفارقها أو أتركها لحظة.

تحتاجاني الاثنتان، منذور لهما، والضعف الإنساني يربح في النهاية، يغلب الواجب.

يقول بصوت غير متأكد، به رنة اعتذار:

لا تصدق الكلام الكبير عن واحد ترك عزاء أمه وهرع ليلعب مباراة الكرة من أجل الواجب، أو ممثلة صعدت المسرح يوم وفاة أبيها.

ليس موقفاً، هو محاولة لدفن الحزن في تربة أخرى، أو لربح نقطة على حسابه، أو توزيعه بغير عدل على الآخرين.

عاقبوني.

ربوني أفضل تربية، ثلاث سنوات لم يقل لي أحد في المنظمة صباح الخير، تستطيع أن تقول إنهم رموني.. عندهم حق.

أكلتني يدي، أكلني دماغي، و دمي الحار ازداد فوراناً.

إلى أن جاء يوم واحتاجوني.

عدت لملعبي، للمباراة التي يجب أن تربحها، أو تربحها وتموت، ذهبت للعشق بقلبين.

كنت أصل الليل بالنهار، لا أعرف النوم.

تعرف:

أنا عاشق للمخدرات، نصف أوقية في الليل لا تكفيني، سكير من طراز خاص، لا أغيب إلا في ليلة واحدة بعد أن أنجح في عملية ضد أولاد الكلب.

يلعب بعينيه كما يليق بثعلب قديم، ثم يثبتهما ويرمي نظرته إلى بعيد، عينا صقر، لا لا، عينا لاعب قمار، لاعب بوكر من الطراز الرفيع.

– ألعب على الطاولة، أراقب كرة الروليت، وأنا أخطط كيف سنصل للهدف..

أنا عاشق حتى الثمالة، لا أعرف ما هي الثمالة التي يقولون عليها، لكنني أعرف كيف أحسها ولا أتوه.

قلت لك من البداية، لا تحاول أن تستنطقه أو تسأله، هو الذي يقرر متى يحكي وماذا يحكي.

يتذكر، يحكي كيف يشفط الكوكايين لليال حتى لا ينام، إلى أن تنتهي العملية.

– أشرب قدر عشرين شخصاً، عز العنفوان.

يمرر أصابعه نحيلة كأنها ستنعطف إلى جهة ما بعد قليل كما يليق بأصابع العازف، وأحياناً كما يليق بأصابع حاو، تراها و لا تراها، كضي حرير يظهر ويغيب، كصرخة حرير لها صوت وصدى.

– من المركز في لبنان خططنا، ومن الفرع في ألمانيا أعددنا ونفذنا.

حين تحضر سيرة العشق يتكلم أبو شندي كأنه لن يسكت، يغيب به عن نفسه، عنا كأننا لسنا هنا، وكأنه قبلنا ليس هنا.

- ربنا حطني في امتحان..

حصلت مشكلة بيننا وبين جماعة من إخواننا العرب، كانوا يقاتلوننا بدل أن يقاتلوا إسرائيل، يتدربون فينا ثم يقاتلونها بعد ذلك، يضحك بسخرية، كانوا يزاحموننا على الكعكة اليتيمة في أيدينا.

تركت سيارتي، بدلت أوراقي ووسيلة تحركي، رحت أغير كل شيء في إيقاعي.

في يوم تعطلت سيارة حبيبتي أم زينة، أخذتك في الكلام، ابنتي أسميتها زينة ، نادت الخادمة من أسفل أمام البناية، هبطت بمفتاح سيارتي ومعها ابنتي.

قالت أم زينة : خذي البنت واطلعي.

ظلت تراقبها حتى اطمأنت أنها صعدت، ودعت ابنتها التي راحت تشير لها من النافذة.

في البداية لم تستطع أن تفتح الباب، حين أدارت المفتاح انفجرت السيارة، وزوجتي طارت من مكانها صاعدة لما يحاذي شرفتنا في الدور الثالث.

طار معها كل شيء، فقط ابتسامتها ظلت على عجلة القيادة التي علت ووقعت في الشرفة، وربما دخلت من شيش الشباك لتودع ابنتها ثانية.

تصورت أنهم قد يلاحقونني، لكن ليس لدرجة أن يشطبوني من الكشوف..

- أخذت روحي و راحت..

في المسافة من قبرها إلى زينة يأكلني وجعها، عشقها، حبها، يتقافز أمامي على الطاولة، مثلما قفزت ابتسامتها عن وجهها في الهواء وهي تدير المفتاح..

تركت إسرائيل لوقتها، أدرت المفتاح في اتجاه آخر.

حين يحكي أبو شندي بمزاج رائق، لا ينسى أن يضع يده كثيراً على فمه، وحين يعصب ينسى فيختلط الكلام بالصفير.

كل سن من أسنانه جنبها واحدة غائبة، كأنها سلم موسيقي مكسور.

- إخواننا العرب إياهم وقت أن حبسوني زمان، كان يخلعون لي سناً ويتركون أخرى حتى أستطيع أن أشرب الماء، الله يكرمهم.

- تصور..

النار أكلتني، لا أكاد أرى شيئاً.

وضعوا لغماً في السيارة، ومائة لغم في خيوط حياتي.

أول ما انتقمت بردت.

ودعت الألم، من يومها لم أعرفه.

أم زينة، هي تجربتي الحلوة بالحياة، هي قسوتي بالدنيا.

عدت إلى عملي، أشتم رائحتها في رائحة زينة، أحممها وأبدل لها، فشلت في عمل الفيونكات، فشلت متعمداً كي أدوس غيابها، أحاول ان أسترجع أصابعها في أصابعي.

لكن الدنيا بعدها انطفأت، لم يعد فيها ألوان .

طعم الحياة راح.

ينظر في عينيك طويلاً :

– بعيد عنك، من يومها لم أضحك من قلبي أبداً.

يغيب، يغيب، وأنت صامت، ثم يعود :

– أحب الدنيا، أحترم الذي خلقها، أحترم من يزرع ومن يقلع، لكنني بيني وبين نفسي غير قادر على الكلام..

حزين. لكنني غير قادر على أن أقول : لماذا أنا هكذا، خائف أن أطلع من ديني .

لا تكذب، لا تسرق، لا تتعد على أعراض أحد، وهبتك للموت من أجل الأرض، فامنح الحياة لها ولك وللآخرين، لا تمت ميتة عرجاء، لا تكشف سر حبيب، أمه قالت له.

– لكنني أكشف سرها الآن، في كل وقت وأستمتع، هي أنا، هي كل ما تبقى لي لأحكي عنه..

من يومها لم أعرف بشراً لديهم من الجمال ما يساعدني على النسيان.

هل رأيت يوماً عيناً مخنوقة بالحسرة، وأخرى تتعلق بريح الأمل ؟

قف يا أبوشندي، لا مكان لك هنا، أنت فقط تتمنى لو تستطيع العودة إلى لبنان ساعة واحدة لتزورها. أنت تعرف أن لا قبر لها، هي بلا قبر، تسكن في قلبك و مثواها بين ضلوعك، والذي هناك ليس سوى عظام حبيب تنتظر، تشتاق حبيباً ينادي عليها لتجمع نفسها بسرعة وتضم نفسها بعجلة الملهوف.

العظام التي طارت في الهواء والتي جمعها في كيس كبير ضمه لصدره قبل أن يدفنه لا تحتاج سوى لسماع صوته لتتدفأ وتجمع ابتسامتها وربما تبتسم.

مجيد اللبناني الموعود بأن يكون سفيراً، وعده بحرارة أكثر من مرة، وبحرفنة اللبنانية وكلامهم المعسول يعرف كيف يعده ويعرف كيف يزوغ منه.

وهو لا مانع أمامه أن يصدق الشيطان.

لا يريد أن يمشي وحيداً في جنازة الأمل، يؤكد له بكل ثقة أنه سيصبح سفيراً في وقت قريب وسيحصل له على تأشيرة دخول مجانية واستضافة أيضاً.

يتخيل لو يستطيع أن يمد ذراعيه إلى مكانها حيث يسكن بعض منها هناك ويضمه لتهدأ، ليقول لها إنه انتقم لها علها ترضى، وأنه لن يحب أحداً سواها علها تغمض عينيها وتنام.

لذا ها هو مرابط في مقعده منذ الصباح الباكر – على غير عادته – في انتظار بريجنيف.

بريجنيف الذي هاتفه على غير العادة ورمى في حجره البشرى بأنه وجد طريقة يمكن أن تنقله هو وإخوانه إلى الأرض المحتلة بالاتفاق مع العدو الإسرائيلي، وأن المسألة على الطاولة أمام القيادة الآن.. مشكلتك ستحل قريباً، قل إنها حلت.

هل يفعلها بصحيح ؟ هل يفعلها بريجنيف ؟

يمر أمامه شريط حياته، تدور أشياء كثيرة، لكن الدنيا كلها تكاد تتوقف عند وعود مجيد ووعود بريجنيف،

يطوحه الحلم إلى أي وطن سيعود، يمد رجله فتصطدم برجل الطاولة.

حين يتعب من التخمين والتمني، يغمض عينيه ويتركهما تأخذانه إلى أي طريق.

وحين يفتحهما على الأمل في انتظار بريجنيف يتعلق جيداً بطرف الخيط الذي مده له في الهاتف.

فلسطيني مثله — لا ليس مثله– من الكوادر الكبيرة التي قضت عمرها تناضل بالكلام أمام الجماهير وأمام شاشات التلفزيون بقوة، مناضل بحق لو تكلمت معه في النسوان يقلب الكلام إلى النضال الوطني في النسوان.

تاجر بارع لا يتعب من المساومة، ولأنه مقرب من القيادة وصاحب لسانين عمل سفيراً سنوات طويلة في قيرغيزستان، لا يقول جملة إلا ويدخل فيها قيرغيزستان.

عاطل الآن، على المعاش لكنه ليس مثل أبو شندي، عاطل على الورق فقط، عنده بضاعته حاضرة غير مكدسة، وبياعو الكلام لا يتعبون، منافح ولا أشد عن المناضلين، يقول لك دائما لا تقلق، سنفعل وسنمضي، لكنك حين تعقد يديك لن تجد سوى رماد الريح، أو حروف كلامه مفككة متطايرة تتساقط بين أصابعك.

نموذج ممتاز لمناضلي المقاهي الكبار، إن لم يجد مناسبة يخترعها، يهبط على أي ندوة أو مناسبة، ينتهز الفرصة ويقبض كثعلب شبعان على الميكروفون ويشّبع النضال نضالاً.

وإن شحت المناسبات أو تعطلت لأسباب قاهرة، يبدو كيتيم تائه في المدينة لكنه لا يتعب ولا يمل، يمشي لأبعد نقطة من سكنه لساعة أو يزيد، إلى منطقة أريانة البعيدة، يتمشى في سوق الملابس المستعملة القادمة من فرنسا في الأغلب، يعرف كل بائعيها ويعرفونه، يلتقط طرف الخيط ويمده، يحييهم بقوة ويشكر الشعب التونسي الشقيق الذي احتضن الشعب الفلسطيني الباسل الشقيق ومازال.

يقضي نصف نهاره وسط بالات الملابس معهم، يشرب الشاي على نار الكفاح، ينتقي حوائجه إن احتاج، البنطال بدينار والجاكيت بخمسة، والأكل هنا رخيص.

يعود ماشياً لساعة أيضاً أو يزيد، يمسح الكوليستيرول الذي تسلل إلى جسده من الأكلات الرخيصة، نحيف، والعشق يليق بالنحافة، لكنه لا يعشق.

يدخل إلى المقهى في الوصلة الأولى للمساء بقميص مفتوح عند الصدر، بملفحة حمراء، بشعر مصبوغ كرئيس أمضى في السلطة مدتين ويطمح للثالثة، أو كأنه لم يستطع أن يصبغ سنوات النضال بطابعه فصبغ شعره على سبيل التعويض.

بحاجبين كثيفين يأكلان نصف ملامح وجهه يتحدث إليك، يتحسر على أيام قيرغيزستان ومناديل الصداقة، اسمه في بطاقة الهوية خميس، لكن الأوراق التي تثبت هويته ليست في يده ، سماه أبو شندي خميس بريجنيف أو الرفيق بريجنيف.

حين يقدم لك واحدة، أية واحدة يقول لك :الأخت المناضلة، وإن كانت قوية ذات هضاب ومنحنيات يقول : الرفيقة المناضلة.

لا يكف عن الحديث مع بنات المقهى لكنه في الحقيقة لا يشغل باله بما يحدث معهن أو لهن وربما لا يعرف، هن يناضلن في اتجاه وهو يناضل في اتجاه آخر، هن يناضلن جيداً بالجسد وهو يناضل جيداً بالكلام.

للأمانة لم يفتح جبهة للقتال مع أية واحدة منهن حتى الآن رغم أنه يعيش وحيداً.

وأبو شندي يقول له إن جيفارا حارب ضد الأعداء في بلاد كثيرة وكافح مع النساء في كل الجبهات، لكنه عشقهن وناضل بشرف في الفراش كما يليق بثائر حقيقي.. كذلك كاسترو زير نضال وزير نساء..

الجهاد في الفراش يحيي الروح، يمد حبال الثورة ويقوي عصارة المقاومة.. كذلك كان ماو في الصين، قاتل قتال الأبطال داخل الفراش وخارجه، صنع الثورة ثم تركها للناس وتفرغ لثورة العشق والمجون.

- عشق النساء شرارة الانتصار في ساحات المعارك.

يعرف أن أبو شندي يسخر منه، لكنه لا يكترث كأنه لا يسمعه، كأنه لم يتكلم، وأحياناً يرد بضحكات عالية متواصلة ويسرب الموضوع في داخلها.

يأتي أحياناً مع رفيقة له بملامح رجل، نحيلة كنخلة عجفاء، إلا من حاجبين كثيفين مثله أيضاً، تقول إنها كانت شيوعية وتترحم، وقد تسر لك بأنها كانت في الحزب الشيوعي التونسي الذي انحل، لكنها تخشى أن تقول ذلك حتى لا تغضب عليها الجماعة ويقلبوا عليها الطاولة أو تجد نفسها في الحمام.

وأبو شندي يقول إنها تكذب، ولو كانت كما تحكي لولى بريجنيف منها فراراً حتى لا تأخذه في رجليها.

تجلس مع بريجنيف يقلبان الأيام والثورات على مسمع من أبو شندي الصامت، يتحدثان بجسارة عن المقاومة ومعركة الكرامة، يسبان العملاء والخونة بكل القذائف اللغوية، ويصوبان بنادقهما، ولا تنجو أمريكا وإسرائيل من سهامهم الطائشة في فضاء المقهى.

يأخذان فترة استراحة، تخرج له دفترها الكبير يضم خواطرها عن فلسطين وعن الأحرار في كل مكان، وبين كل قصيدة وأخرى يعلو صوته:

- الله، أحيي نضالك.

أحياناً تخبره أن القصيدة لم تنته بعد.

تسمعهما نعيمة باهتمام بالغ، تكاد تضحك مما تراه، لكنها تروح معهما، تدفن حكايتها في حكاياتهما.

وعلى المنوال نفسه، حين ينضم واحد إلى الطاولة، يعلو صوتها وصوته، تطير القصائد ويطير النضال أعلى الطاولات، وحين يتعبان - نادرا ما يحدث — يودعها إلى الباب.

- تصبحين على خير أيتها الرفيقة...

و يلوح لها.

دائم التلويح بذراعيه حين يغشى المقهى وحين يقضي وطره منه، كرئيس حكومة في المنفى يستقبل أو يودع أتباعه.

يدخل ويخرج رافعاً ذراعيه كما يفعل في الندوات دون أن ينسى أن يضم قبضتيه عند الخروج.

أولاده في الدار البيضاء، أمهم مغربية، يرسل لهم ثلاثة أرباع الراتب ويعيش أو يموت بالربع الباقي.

لا تتعب نفسك معه، كان من الممكن بل من الأفضل له أن يعود إلى الدار البيضاء يقضي بقية عمره مرتاحاً وسط أولاده، يصرف عليهم الربع الباقي، يقول لك أبو

شندي.. لكنه هناك لن يجد أحداً يسمعه، الذين ناضلوا هناك تعبوا من القتال والكلام، غيروا نوع سهامهم أو غيروا الوجهة.

لن يجد أحداً هناك يخطب فيه أو يكذب عليه.. يضحك أبو شندي ويكمل : لم نعد في زمن المناضلين، نحن في زمن آيات الله، لذا أسميه آية الله مكذباني..

يتصور أنه يكذب على الآخرين، لكنه في الحقيقة يكذب على نفسه ويصدقها ليكذب عليك جيداً.

يمشي لينسى، قد تصادفه في أي شارع على قدميه، يمسح اللحظة الخانقة إلى جانب الكولستيرول، لا يعود إلى بيته إلا بعد أن يهدأ الصخب لينام.

يمشي حتى لا يجلس مع روحه ويكتشفها، يصعب عليه أن يرى نفسه على حقيقتها أو يعريها أمامه، لذا يعيش هائماً في الشوارع والمقاهي، ولولا أنه يريد أن يلوح بذراعيه لجماهيره لكان آخر واحد يخرج من المقهى.

يكاد يوزع عليهم فانلات مكتوباً عليها : إلى اللقاء.

لا لون له، مثل الماء تماماً، حتى الوطنية عنده ماء، أول واحد يتصدى لحل المشاكل ولا يفعل شيئاً، مناضل حنجرة من الطراز الرفيع.

لم يحمل بندقية في حياته، ولا يعرف صوت الطلقة، ولا وجع الخسارة، لم يسهر على أعصابه في انتظار عملية، يقبض النتائج على كرسيه في المقهى، وينطلق بالصوت العالي في كل مكان.

أبو شندي يصمت ثم يحرك يده بلا مبالاة : نحن فعلنا، وهو تاجر بنا جيداً..

لكن بما أنه قد يفوتك في الكذب نوبة صدق أحياناً، ربما، أقول ربما تكون له جملة واحدة صحيحة ينطق بها وينظف بها ماضيه..

جملة واحدة يا أبو شندي تعيد لك الحياة وتنقلك إلى شواطئها مرة أخرى، وأنت في عرض كلمة واحدة تدفع الدماء في شرايينك.

على الجمر ينتظر ليتاكد إن كان بالفعل يستطيع أن يعود إلى الأرض المحتلة، أو يسافر إلى أية بقعة أخرى على وجه الأرض بدلاً من قفاها، ليفك الحصار الذي فرضته عليه إسرائيل ووافقت عليه قيادته.

مخنوق يريد أن يحصل على تذكرة سفر لأي موطىء.

على القلق ينتظر، يكاد يبيض، يفكر أن يقوم من مقعده، ينتظره على باب المقهى حتى لا يستوقفه أحدهم ويأخذه من يده فينسى ويمضي.

وجورج وسوف يصيح في قلب المقهى..(اتأخرت كتير يا حبيبي اتأخرت كتير).

تخطفه الأغنية.

نعم، فلينتظره على باب المقهى.

قد تقطع طريقه نعيمة التي نافحها طويلاً عن النضال وقص عليها بعض قصصه، ستسأله بلهفة سؤالها الحارق المعتاد :

- هل عرفت أخباراً عن أخي يا أستاذ بريجنيف.

أخوها الذي أحبها وأحبته، حن عليها وحنت عليه، أخذ الطريق بالبحر إلى فرنسا ثم إلى ألمانيا، حرق كما يقولون إلى هناك وأبقى حرقته.

يقولون إنه في ألمانيا ولا تعرف إن كان حياً أم ميتاً.

سيقول لها كالمعتاد، كأنه يقول لأول مرة :

– اتصلت بالجماعة في ألمانيا، وهم يبحثون عنه، وسيبلغونني عندما يعثرون عليه، اطمئني.

– أنا قلقة عليه، ليس هناك خبر واحد عنه، خائفة، ربما أصابه مكروه.

يربت عليها :

– لا تقلقي، قلت لك، ولا تنسي أن ألمانيا أكبر من تونس بكثير . وجهها القلق سينبسط قليلاً لتسأله :

– ما هي أخبار فلسطين يا أستاذ بريجنيف؟

يضحك : لا تقلقي، الثورة لن تنام.

وأبوشندي يكاد يموت من القلق، ومن ألعاب بريجنيف التي لا تنتهي، لكنه يحب نعيمة ويربت دائماً على قلقها.

وبريجنيف سيكمل، من المؤكد أنه سوف يكمل ويقول باطمئنان زعيم في المنفى :

– لا نقلق على فلسطين وأمثالك معها يا أستاذة نعيمة.

يمسكها من كتفها، وبحرقة رجل قارب السبعين ولم يفقد شهوته بعد يهزها :

– أنت مناضلة يا نعيمة.

باب العسل

هل رأيت امرأة تسيل الرغبات على جدرانها مثل حبات صغيرة مكتنزة، تنفرط وتنعقد على انحناءة هنا، وبروز هنا أيضاً، وتتوقف، إن توقفت في المكان الذي شدّها أو استهواها، تسيل متباطئة على منحدر، تتريث عند زاوية، وقد ترتاح فوق قبة أو تغطس في سرّة أو مأوى؟

كمن ضرب فرشاة على حائط، أشعل غليونه، جلس يتفرج بمزاج رائق، وترك حمولتها تعرف وحدها طريقها إلى الأسفل.

انتظرها هنا في قلب المقهى، على أية طاولة، سوف تهل بعد قليل، في الموعد نفسه كل يوم تقريباً، كامرأة من لحم ودم، بوجه يشع ويشيع سعادة، منحوت ببهجة في لوحة من القرن السابع عشر.

انتظر قليلاً، الآن تظهر على الشاشة، تطل من الباب، تتمهل خلفه، تسأل كبير الجرسونات الواقف منذ الرابعة عصراً خلف ماكينة حصر الإيراد اليومي، تسأله عمن دخل ومن خرج، وبملامح جادة تشير له وتشير عليه كأنها تأمره ثم تهم بالدخول.

الآن تدخل بابتسامة طريّة ساحرة، كأنما أخرجتها للتو من جراب روحها ، بمشية كأنها قافلة بحاديها، بقوام يخطف العين، تؤازره قبيلة من الأرداف والأفخاذ، يتقدمها ثديان بخيرهما، مكتنزان، يترجرجان بجرأة فوق قاعدة طريّة متماسكة كأنها تطلقهما وتسحبهما، واحد يبتسم لك، وواحد يشهق في وجهك.

وأبو شندي بصوت خفيض، بهمس دافىء تلقطه وحدها يقول:

جيلي بالمكسرات.. ربنا يخليهم لك.

ثم بصوت عالٍ:

يا جبل ما يهزك ريح.

كأنها دعكتهما بالأزهار، بفتحة فستان مرتعشة تنخفض وتعلو من وقع الارتجاج، من حمأته، وربما من الخوف منهما ليظهر الربع الأعلى، أحياناً الثلث، يكشف عن ملتقى النهدين في ساحة الرمان، ببياض مشرب بحمرة فاتحة، يكاد جندي حليق يطل برأسه ويضرب لك تعظيم سلام، يمكن لك إن تمعنت قليلاً أن تتحقق منه بنفسك.

كأنها غمستهما بالندى، متأهبان للانقضاض، كأنها ستدخل المعركة بهما بعد قليل، معركة بالرماح أو بالآيس كريم.

بخال على خدّها، بأكتاف يلعب فيها العظم دور البطل في تجاويف اللحم، يمتد وينثني، يبرز ويختفي، لتعرف كيف يكون العظم جميلاً، بأسنان متعاركة تركب بعضها، خلقت بها هكذا – معوجة – حتى لا تكتمل، ولكي تخفف قليلاً من وقع هذا الجمال الكافر.

امرأة ذات ثديين سخيين يمكن لطائر صغير أن يحط عليهما، وذات وعود كما يقول شاعر مصري اسمه عبد المنعم رمضان.

دعك من كل ما سبق، أنا أكذب عليك – يكذب عليك من يكتفي بذلك، هذا الوصف ليس كافياً. إن كنت قد رأيت فيلم "وخلق الله المرأة" الذي أخرجه المخرج الفرنسي روجيه فاديم لقطّة السينما الفرنسية وقتها بريجيت باردو والذي قدّمها فيه للعالم لأول مرّة كقنبلة من لحم ودم، ثم تزوجها بعده، ستعرف قيمة حرف الواو في الجملة، وأنها بدونه لا تعني شيئاً، بل إن الكون كلّه دونه لا يعني شيئاً، كأنه كان ينتظرها وحدها ليبدأ مسيرته.

الإثارة تتقدم إلى الأمام بكامل زينتها وأناقتها كأنها مدعوة إلى حفل على شرفها يؤمه الوزير الأول، لا ذاهبة إلى مقهى، تدخل خلفها، أحياناً بجانبها

حلومة صديقتها أو عشيرتها كما يحلو لها أن تناديها، وقبل أن تصل إلى طاولتها في الممر المؤدي إليها توزع ابتسامة هنا وقبلة هناك، تلتفت لحلومة، تشير بطرف إصبع مدببة وغمزة عين عابثة لصدرها، وتقول بسعادة وافرة كأنها بلغت رعشة الجماع في تلك اللحظة:

-الناس كلها تموت في هذه البقعة.

صاحبة المقهى، مولاته، درّة، درّة الدرر.

الآن وصلت عند طاولتها القابعة في نهاية المقهى، في الزاوية الطولية منه بحيث تستطيع من مقعدها أمام الجدار أن ترى المقهى كاملاً بألعابه ومريديه.

على طاولتها ينتظرون، دائماً يزيدون عن أصابع اليد الواحدة، ذكور، يأتون قبلها، يتوزعون ويتركون مقعدها فارغاً، لا يتركون بالطبع مكاناً لحلومة لكنها تنتزع بدربة وأحياناً بحنق مقعداً في مواجهتها.

ذكور من أعمار مختلفة، جاءوا بين رجاء وأمنية، رجاؤهم في حضنها وأمانيهم بين ساقيها، كل واحد يريد أن يشتري بضاعتها، يستقبلونها بالغمر والقبل، من جاور السعيدة يسعد ومن جاور الفاتنة يغنم، وهي توزع بشائر الغنائم عليهم حسب مزاجها في اللحظة نفسها كضابط صارم تباسط فجأة مع عساكره، تهش لهذا، وتضرب آخر على كتفه، والمحظوظ من تضربه على فخذه، أحياناً تزيد واحداً لكنها لا تنقص أحداً غنيمته.

كل واحد منَّى نفسه أن تأتي باكراً قبل حضور الآخرين لينسج خيوط اللعبة على مهله أو ليعقد صفقتة منفرداً.

جاءوا متفرقين وإن تنوعت مشاربهم رغم أن المشرب واحد.

واحد يريدها صاحبته وحده، وواحد يريد أن يركبها ليتباهى أمام أقرانه، وآخر ليباهي نفسه، ليقول إنه اعتلى الملكة ويمضي ليكمل بقية صولاته راضياً، ولا بد أن واحداً فقط ربما جاء لينعم بدفء القعدة الطريّة ويشم البخور المتصاعد من نارها.

رغبة عارمة بالرسو فوق قاعدتها والبحث عن خاتم سليمان في قاع مدفأتها.

وأبو شندي يلتفت لشادي يقول:

- كلهم على نفس المنوال ، كل واحد يريد أن يتباهى علناً بأنه ختم الذبيحة الفاخرة. لكنها ليست ذبيحة، وليست دجاجة منتوفة كما يمكن لك أن تتوقع.

على رأس الطاولة تجلس كطاووس بأبهى الألوان، بضاعة فرز أول، تعرف تماماً لماذا جاءوا، تملك فراسة امرأة من نساء ألف ليلة وليلة، تعرف كيف تدير اللعبة، تبقيهم على نار كل يوم في انتظار منهك، تشعلهم بقربها ليطفئوها بمائهم، وإن ربطتهم جميعاً بخيط واحد من أحلامهم وشهواتهم الفاقعة.

الزعيم يحتاج جماهير تنادي به، تنتظر إطلالته حتى لو كان صاحب مقهى فقط.

تبدو كسيدة أولى لولا أن سيّدة أولى في المدينة قابعة في قصرها لن تسمح لها، والمدينة صغيرة، كل همس فيها تحمله ريح خفيّة إلى أذن أو سريرة، هي لا تريد أن

تصل لهذا الحد حتى لا يقام عليها الحدّ، لذا تضع صورة الرئيس في ثلاثة مواضع بارزة من المقهى، لا تكتفي بواحدة معتمدة كبقية المقاهي تشتري الرضا من بعيد وتوهم الآخرين بقربها وتتفوّق عليهم.

ما من أسبوع يمر حتى تحكي كيف انفتحت لها طاقة القدر واختار الرئيس أن يجلس إلى طاولتها لدقائق في سهرة ما :

– جلس بجانبي، سلّم على الجميع من بعيد، حادثني وحدي طويلاً، أكل شيئاً خفيفاً وقدم لي صحنه.. أكلت من صحن السيد الرئيس.

تتباهى دائماً بالحكاية وتلمع عيناها كأنها حدّثت بالأمس.

تبدو سعيدة كأنها بلا مشاكل، رائقة كأنها ملكت العالم وشيدت مملكة من الذكور.

يمكن لك أن تضبطها بشيء واحد، بهذا الشبق النافر من عينيها المتمكن منهما.

– عيونها عشّاقة.

مشكلتها البسيطة أن عجيزتها ليست كبيرة في رأيها بما يكفي ، مثل معظم البنات بالمقهى، ليست على المستوى المعتمد في المدينة لمقارعة الأخريات في معاقلهن، رغم أنها جميلة مستديرة متناسقة مع جسدها وأكثر حضوراً وإن كانت أقل حجماً من بضاعة الأخريات، لذا تسرف في أكل البطاطا المقلية والمكرونة والكسكس كي يتم تحسينها والوصول بها لمصاف العالمية.

مشكلتها الوحيدة إن كان لديها مشكلة، أن كل من دقّ بابها تصنع منه صاحباً، تتورط بدون عقل أو تفكير، والحلقة تتسع والمواعيد تتضارب.

وأبو شندي يقول ليس عندها أحد تفتخر به أو تحتمي فيه، زوجها فردة جورب قديم مثقوب، تبحث عن رجل تتباهى وتباهى به أو رجال، والحلقة تزدحم، تريد أن تصنع عالمها بسرعة، لكنها تحيكه بإيقاع مربك دون أدنى تدبير.

ليس عندها ميزان ليضبط الإيقاع، مع أنها تعرف الفرز الأول من الثاني، لكنها سعيدة، توهم الآخرين من خلف كل الآخرين أن المدينة كلها تحبها ومضروبة بها، واقعة في أسر سطوتها ودلالها.

تتملكها شهوة عارمة للجديد، كل واحد عندها جديد، من كل الأجناس والأعراق التي تطأ ساحتها، لا تترك أحداً يعجبها دون أن تمدّ له خيطاً، دون أن تقلب حياته على مهل ثم تقلبها على عجل، بقصد وبغير قصد، لكن هذا هو السبب الحقيقي لنشأة مملكة الذكور الخالدة.

امرأة بثلاث رئات، متطلعة، تحلم أن تكون سيّدة أعمال، سيّدة أعمال أولى، لذا تتسارع أقدامها وأفخاذها وذكاؤها في كل اتجاه، إيقاعها اللاهث يجعل قدمها تزلق سريعاً، لكنها – للأمانة – تُخلّف لهباً في كل موضع، وتترك أنفاساً دافئة أو هبة ريح حسب الحالة.

وهم حولها، كل واحد عنده بضاعة يريد أن يبيعها لها، كل واحد برمحه، يمسونها بعفوية محسوبة، بقصد، الذي يجلس بجانبها يمدّ ساقه ليلمس ساقها، والذي يقابلها

يحاول أن تحضن ساقاه ساقيها، قد يدخل رجليه بين رجليها، وابتسامة خفيفة تصعد إلى وجهها، ورغبة حامضة تعلو وجوههم فوق الطاولات.

شحن على الطاير كل يوم، وهكذا،

يلعبون الورق، كل واحد يريد أن يلعب معها، يكونان فريقاً ضد آخرين، يمضون الليل كلّه منذ وصولها المبين حتى بعد منتصف الليل بليل. للغناء ليلتان : السبت والأحد، وللعب الورق خمسة أيام، وللعب فقط كل الأيام.

الناس كلهم يلعبون الورق، كل الطاولات بوجوه متوترة، يخرجون من أعمالهم منهكين، اليوم طويل ينتهي في السابعة مساءً، هدّهم التعب، هدتهم مطالب البيوت والأولاد وأقساط القروض التي أكلت رواتبهم وكسرت ظهورهم، والتسجيل في ملاعب البيوت شحيح، لذا يهرعون للعب الورق يهربون فيه، يغوصون حتى ينسوا، ويسجلون أهدافاً على الطاولة.

والسهرة تشتعل وتحمى، والمناورات على أشدها، وهي ترد مناورة بأفضل منها، ملكة الغزل البريء فوق الطاولة، واللعب الخفي تحت الطاولة، تترك واحداً حتى تسخن شهوته وتشتعل رغبته وركبته ثم تتركها في اتجاه آخر كأن شيئاً لم يحدث، كأن شيئاً حدث في مكان آخر.

- ولعة يا بني.
- شاي أخضر بالله.

لعب الورق ممتع في الاشتباك الجسدي الخفيف وفي فضه أيضاً.

ترمي الأوراق ببراءة طفلة، تكاد توشوشها، ثم فجأة تنتفض، تقوم على ساقيها الخالدتين، تترك الطاولة لتستقبل معارف جداً من الكبار من الأمن والقضاء والجيش ، وعجيزتها الخالدة في مكانها الثابت من العيون.

تترك طاولتها دون وداع، تستقر على طاولة أخرى، واللعب أنواع.

فروتها كبيرة،عيون ملتهبة تلاحقها وعيون عطشى تراقبها، تتبادل الأماني والحسرات.

هم لا يعرفونها جيّداً، هي مثل نساء كثيرات، تجري وراء الذي يجري أمامها وراء الذي يهرب منها، دائماً خلف واحد عنده بدن دافئ، فتى بوسامة صاحية، أو لديه سيارة أفخر من سيارتها، ورصيده بالبنك أكبر منها، لا تجري وراء من يتحلقون حولها وإن علقتهم جميعاً من أطراف رغباتهم، وإن شملتهم بعطاياها الخفيفة، ووعودها المؤجلة، كل من يجري وراءها تسلقه في قدر المحبة بسفود غرامه ولا يملك منها فكاكاً ، العاشق يمكن أن يبتعد عنها صوناً لعشقه ، أما المغرم أوالراغب فيبقى لا يغادر موضع مراده.

لا عمق لها، بئرها غائرة، تبحث عمن تزين به حياتها وتقوي ساعدها في مدينة مكشوفة على بعضها لا تعترف بغير النقود ديناً،، تقدّس النقود والجسد الجميل فقط.

صياد وطريدة، صياد يصيد أية طريدة وإن لم يأكل منها، وربما رماها جميعاً ولم يتذوق واحدة، لعبة القنص في حدّ ذاتها ترضيها، قد تقبل بصيد هزيل، تقلبه

بسرعة في الصباح التالي، لكنها لا تخسر أحداً مهما حدث، وإن بدت كبنك يصرف لعملاء لا يعرفهم.

- قهوة تركي.
- نعم؟
- قهوة عربي.
- هات ولعة يا كسوف.

القصة أنها لا تشبع ولا يبدو أنها تخطط لشيء ما، تزلق مرة هنا، وتسقط مرة هناك، نهمة، تقتنص أعلى شيء كلمح البرق في اللحظة التي سقطت فيها بين رجليها، كأنها تعيش لتقتنص فقط.

تعوّدت على المسروق، ونسيت الخط الفاصل بين الأبيض والأسود، لكن الجزء الطيب فيها، الفص الأيمن من قلبها بالتحديد، حمى روحها من السواد الشديد، ووجهها من التيبس، يجعلها تنسى ما فعلته، بالأحرى تزيحه، تودع يومها بفتوحاته عندما تنام، وتستقبل نفسها كما تراها جديدة تماماً بحنان مكوم في عينيها في الصباح التالي.

الحياة حولها مزدحمة صاخبة، لكنها بمزاج رائق ترى كل ذلك كأنها لا تراه، حتى لا يشوش عليها شيء رونقها وروقانها، تستطيع أن تفض أية حكاية كبيرة بكلمة، مثل الماء، تطفئ الموضوع كأنه لم يحدث، كأنها لم تسمع وتخرج بحكاية أخرى.

أجمل شيء فيها أنها تعتقد أن الفرصة سوف تأتي لها دائماً، وأنها صغيرة ولا تكبر، ولا مشكلة عندها وجدت رجلاً على مقاسها أم لا، ستخلقه في أية لحظة، هي لا تبحث عنه من أصله وإن دارت في فلكه طوال الوقت - بحكم طينتها، لكنها تعرف كيف تلقف ما يحوم حول آنيتها بمهارة نساء المخابرات.

عمرها في نهاية الثلاثينيات، قبلها بعامين.

تقول فجأة:

- من لم ينم مع امرأة في الثلاثينيات، لم يذق طعم النسوان.

بنتاها صبيتان في الثامنة والسادسة عشرة، تبدوان كأختيها، وهي تشدد على ذلك كل حين.

تضحك بسعادة:

- القهوة قهوتي، والبنات لسن بناتي، وأبو شندي يشدد على كلامها:

- نعم، شاء من شاء وأبى من أبى.

يطوف بعينيه أرجاء المقهى وبصوت خفيض يكمل:

انظر للرجال: يحكون وعيونهم على النسوان، انظر للبنات القابعات، حاول أن تصغي للعيون كيف تحكي، للجسد كيف ينطق، العيون في مكان والجسد في مكان آخر، كل حاجة تحكي وحدها دون شقيقاتها ومشتقاتها، والجميع على استعداد للدفع والقبض مقابل الجنس، يدفعون للجنس ولا يدفعون للأكل، وكل ما يحدث يستعبد الجسد سواء أدركوا أم لم يدركوا.

هي أيضاً تعرف حقيقة نفسها لكنها لا تقربها، وإن قربتها لا تصدقها، تعي أن كل ما حولها أجساد لا يتحرك فيها شيء عدا المني والمعدة، وتعرف تماماً أنهم ما جاءوا لقهوتها سوى ليركبوا، لكنها للأمانة أفضل من يعشق الركوب على أرجوحة أو طائرة أو حتى على الأرض.

تعرف أن كل واحد يأوي لساحتها عنده بضاعة واحدة يريد أن يعرضها عليها – يقايضها بها، أويشتري منها بأغلى الأثمان.

تعرف ذلك وتستمتع به خلف حائط من ماء وتصنع وحدها حائطها من كريستال، كأنها لا ترى أحداً سواها، لا تريد.

العالم عندها أرقام، لا اسم واحد مكتوباً في هاتفها، كل واحد برقمه، تحفظ كل رقم وتعرفه بنظرة واحدة، حتى لا يلقط أي واحد من الجالسين حولها أي تفصيلة عنها، تتحدث بوجه محايد في الهاتف كأنها تكلم البابا، وحين يأتيها رقم ترومه تقوم من الطاولة تحكي بعيداً، وملامح وجهها السعيدة تسقط كغصة في حلوق الجالسين.

لا اسم مكتوباً في هاتفها سوى اسم حبيبها، مكتوب أمامه: حبي، وهو يناديها باسمها، ما من مرّة قال: ماما أو أمي.

والولد الذي قارب عامه الثالث عشر يقول ببراءة :

– هي التي أمرتني بذلك.

كل شيء يحدث قرب الحمام.

السهرة تستعر، الرغبات تصعد فوق الطاولة، والأحلام تطير فوقها حتى مجيء هادم اللذات ومفرق الجماعات، زوجها، يدخل إلى المقهى، يتطوح بربع وعي أو بدونه، كل يوم يذهب للحانة، يعب من البيرة أو الكونياك الرخيص، يرفع أصابع يديه يعدد العلب التي تجرعها، أو نسيها، وحيث يقترب يسلم على المعازيم بصوت عال متقطع، لا أحد يتوقع ماذا سيفعل، قد يجلس ليتفرج حتى يغلبه النوم، وقد ينقض مرة واحدة يبعثر الأوراق، يطوحها من على الطاولة بجرة واحدة، وقد يقلب الطاولة نفسها وهو يصيح:

—قعدة قحاب.

في الغالب لا تردّ، وقد تردّ ذات مرّة بصوت خفيض ورجاء غير واضح:

—عيب عليك.

—والله لنأكل قلبك.

منظر معتاد وحكاية قديمة، زوجها، تزوجته صغيرة، بعد الثامنة عشرة من عمرها، أشعلت الشمع مرتين متتاليتين في ليلتين متتالتين، أخذها على حين غرّة من بين أنياب وقلوب رجال آخرين، قل خطفها، اطمأن على الوديعة الفاتنة في دفاتره، ثم تركها في الدار لم تكمل تعليمها وخرج وراء عمله، شريك والدها، مقاول لبويات دهن المنازل في زمن طفرة البناء.

جرى خلف المال خياره الوحيد في الحياة في مدينة دينها المال، وهي أيضا تزوجته للسبب نفسه، لتؤمّن ظهرها حين وُضعت أمامها الخيارات لتلعب مرتاحة، وبعد أن امتدح والدها أخلاقه ونقوده.

بخيل، متعَب ومشغول، لم يشبع نهمها للفلوس ولا للسرير، وجمالها وشهوتها يكادان ينفجران في حيطان الغرف، يقفزان من نوافذ البيت، لكنها لم تشأ أن تتطلق منه بعد أن وضعت بنتها الأولى، لم تشأ أن تبدأ الرحلة بالخيبة وتنهيها بالخسارة.

هي تريد بنكاً وهو بنك بخيل.

هي تريد رجلاً، وهو رجل بالصدفة.

- الحساب يا بني.

بذكائها دفعته للعاصمة ليكبرا معاً بعد أن كبر اسمه، في ظرف سنوات قليلة انتفخ حسابه في البنك، لكن محفظته مازالت خاوية في البيت.

انتفخ حسابه أكثر فانتفخت خصيتاه، استدرجته فامتدت جثته على السرير، الملعب الذي يسجل فيه أهدافاً بالصدفة، هو يحبه لكنه ليس فاعلاً فيه وليس مشغولاً به، أخرجت دهاء المرأة من مخبئه بين نهديها، أشعرته أنه الفاتح الذي كانت تنتظره عكا، تعرفت على سقف الغرفة حتى حفظته وعدت قطع الفيسفساء، تعدها وتخطيء، تريد أهدافاً أو حتى تسديدات خاطئة قوية ولو لم تكن تحبه.

وما لم يستطع أن يفعله هو، فعلته نيابة عنه، وضعت النياشين على صدره، والأوسمة فوق عانته، حتى ضاقت.

تسرح أحياناً ثم تقول لحلومة بحزن خفيف وأسى :

–خلفت الأولاد وحدي.

علاقتها به هي التي علمتها الصبر والحذر والتكتيك، كيف تسحب النقود من جيب العالم. وكيف تطبخ من ذكائها ودهائها فطيرة من ورق البنكنوت، وكيف تقدم ثدييها أحياناً لواحد لا يستطيع أن يسدد أو يمرر تمريرة واحدة جيدة.

عيون الناس التي التهمتها أمامه أشعرته أنه زوج الملكة، عليه أن يتصدر المشهد ويقوم بما يمليه عليه البروتوكول ويترك آخرين يعملون.

استدرجته، بنى لها المقهى على أرض يملكها، حسبت له المكاسب ولوحت له بالعلاقات، المال يحتاج علاقات تسنده حتى يكبر، ينمو ويحافظ على نفسه، ويتحول لسطوة وسلطة في المربع رقم واحد، ويصير بعدها المقاول وجيهاً من وجهاء القوم.

ركلة البداية، ومن يومها تعوّدت على اللعب، على الأشياء المسروقة، كلما احتاجت منه شيئا تشده إلى الملعب، إلى السرير، تلعب كل الأدوار حارس المرمى والحكم والجمهور والصفير قبل تسجيل الأهداف وبعدها، تضع له نجمة هنا وسيفاً هناك.

– ينغز له نغزتين وينام.

بنى لها المقهى بفلوسه، بنياشينه التي أغرقته بها وأغرقته فيها، بمساعدة سفيان صبي والدها لسنوات وذراعه اليمنى في مجال الدهان.

سفيان معماري فتيّ، فنان بالفطرة، ابن سوق، كان يحلم بالذهاب لمعهد الفنون الجميلة، لكنه تعثر في الطريق لضيق اليد، عمل مع والدها كظله حتى وفاته، ابتعد شهوراً حين تزوجت، حين فتشت في دفاترها القديمة لم تجد يداً دافئة سواه، عاد مثقلاً بالحنين، ورثه زوجها، انزلق معه في علب الدهان، ثم غطس معها في علب الألوان.

ا

زوجها للمهمات الموسمية والاحتفالات الوطنية، جنس وسرير بالملابس الرسمية، وهو في الملاعب الخلفية.

الزوج في المقدّمة والعشيق في المؤخرة، أهدتها له وحده ليلة عام ممطرة، كي تؤكد على عمق العلاقة :

– كي تكون دخلت مكاناً لم يدخله أحد قبلك، المكان الذي كنت تحفر فيه من قبل.

تقول وتضحك بسعادة، شبقة وطيبة.

وفرشت المقهى للأحبة وانطلقت في كل الاتجاهات، كل واحد يعجبها تجذبه للمقهى، بجسد ممتلئ بالفضائل والزهور، فضيلتها الكبرى أنها تحب على نفسها بسرعة وتغادر بسرعة.

مندفعة في الصعود، جامحة في السأم، لكنها – أعزّك الله – لا تخسر أحداً إلا لضرورة قصوى، قد تنغز، لكنها تعود لتداوي وتمسح.

تخرج من أية علاقة فجأة دون مقدمات ودون بيان ختامي، لكنها تبقى الاحتمالات مفتوحة دائماً، علاقات كالوجبات السريعة، الاستثناء الوحيد كانت وجبة سفيان الحارة وعلاقات الأمن والسلطة الكتيمة بطبيعتها.

كبرت وكبرت قهوتها وسلطتها، أصبحت رمانة الميزان في ليل الآخرين، أخذت دور حارس المرمى والحكم في آن واحد، وراحت تتصرف كملكة نزقة تلعب مع روحها.

فلوس زوجها البخيل للأولاد، وفلوس المقهى لها وحدها.

شدت كل الخيوط في يدها، يعجبها واحد، ترمي الطعم وتتركه يصطادها، تسافر على حسابه إلى باريس والحجج بسيطة:

– أفكر في فتح فرع للمقهى في باريس.

المقهى يحتاج إذاً إلى دعم أجنبي، تلعب في المباريات الخارجية كفراشة ليل راقية، تفرغ كل ما في بطارياتها وماكينات الآخرين، شحن إيجابي وسلبي، تعود لقهوتها كملكة بوجه ناعس وقدّ مشدود على جمهور لا ينقص ولا تنخفض راياته.

تحكي عن البارات والمطاعم بتأثر واضح كأنها عضو في الوفد الفلسطيني للمفاوضات مع إسرائيل، وعن الأصدقاء والصديقات كأنها عضوة في الصليب الأحمر، لا أحد يعرف عنها حكاية واحدة متكاملة رغم معارفها العديدة، لا أحد يعرف من تواعد على وجه اليقين، وإن حامت تحتها وفوقها الشائعات.

هل تصاحب أم تصادق أم تبحث عن المصاري والنفوذ؟

ثم عرفت طريق دبي، جنة الأحلام والنقود معاً، راحت تلعب كل مبارياتها بعيداً عن ملعبها الوطني بدون جمهور أحياناً، أو بجمهور أجنبي لا يعنيه سوى متعة المباريات، وسفيان راح يبدو كظل باهت من بعيد في مباراة على شاشة تليفزيون بالأبيض والأسود، كحكاية معلقة على جدران مقهى، وأطنان الدخان المتصاعدة من الأراجيل تغطي وجهه.

تطلب من حبيبة مطربة المقهى أن تغني لها أغاني صباح، هي غير مشغولة بصباح لكنها تحب الفرح والدلع والشيطنة في صوتها، رأتها مرة في التليفزيون وهي تحكي كيف أمسكت بأزواجها في نزواتهم، عرفت كيف تضبطهم وتلتقطهم متلبسين، لكن ما استطاع أحد أن يضبطها هي مرة واحدة.

في إحدى رحلات العودة بالطائرة حيث تركها أحدهم تعود وحدها، فكرت أن سفيان هو الرجل الوحيد الذي أحبها، وهو الوحيد الذي رهن قلبه على طاولتها، لذا قررت أن تمتنع عن النوم معه وإن لم تحرمه من الأحضان والقبلات الإنسانية الدافئة وتمسد أحياناً شعر صدره كحصان وفيٍّ يكفيه ما قطعه في حلبة السباق، وعليه أن يستريح بقية حياته.

لا يمكن أن تكون قديسة، لا تريد، كأنها تعرف أن الرجال لا يحبون القديسات.

لا تفتش كثيراً في حقيبتها، لا تفتش في حياتها، تعيشها يوماً بيوم، فقط لا تنسى أن تؤدي عملها بأمانة، وأن تعد إيراد المقهى بنفسها، وأن تنتظر كل جديد أو تصنعه على يدها بعين مفتوحة وأخرى مغمضة كأنها تفاجئ نفسها.

في النهاية هي أجمل من حتشبسوت، وأكثر إنسانية وحناناً، حتشبسوت – حسب الرواية الأرجح – قتلت المعماري الفذ الذي شيّد لها معبدها، محته من كشوف الحياة وإن طاردتها أصابعه، أما هي فقد اكتفت فقط بأن تحرمه من سريرها بعد أن أرضعته طويلاً عسلها، بل هي أفضل منها، ملكة الفراعنة جلست على عرش شيده ذكور قبلها، وعلى شعب لا تعرفه، وملكة حي النصر شيّدت مملكة من الذكور صنعتها على يدها وأفخاذها وهي ملكة على شعب تعرفه بالواحد، بل تركت للمعماري أن يغرد التغريدة الأخيرة للبجعة، وأن يسجل حكايتهما معاً على حيطان المقهى، وأن يقول قولته الأخيرة.

لا بدّ من نهاية تليق بالحكاية، صعد فوق سطح المقهى، رشق أعمدة بيضاء برءوس مدوّرة ملساء من كل الاتجاهات، لم ينس أن يضع أسفل كل رأس شريطاً

أسود، أربعة أعمدة : في كل جهة واحد، كأنها فعلاً شيدت إمبراطورية من الذكور، وتركت لسفيان وحده أن يضع لها التيجان شاهدة عليهما وعلى سرهما.

مقهى سره داخله، يطوي غرامه في أعمدته أو أثدائه المزروعة في كل مكان، شواهد حيّة، أو في سقفه الذي يدفن الحكايات في ثنايا تموجاته، منطو على نفسه، يكاد لحظة ينطق بكل الأسرار.

وهي في زاويتها المسائية، جاءت باكراً على غير عادتها، كأنها جاءت لتطمئن عليه، على حبيبها المقهى، لتتأكد أن الفرقة الموسيقية أعدت مواقعها ونصبت آلاتها، وأن العازفين بكامل أناقتهم وعدتهم، تقوم تهش للأحباب القدامى والأحباب الجدد على وقع موسيقى خفيفة تلاحقها، تلمح بطرف عينها حسن الفقي أو الحاج حسن كما تحب أن تناديه وكما لا يحب- جالساً في ركنه المعتاد على الطرف البعيد لباب الحمام، ليبي كريم، لا تعرف إن كان عابراً أم مقيماً، يمرح هنا شهراً، ويعود لليبيا شهراً، رجل أعمال كما يقولون، ولحسن الطالع تتقدمه سيرته العطرة، أكل كل البنات في المقهى، لم يوفر واحدة، لم يترك عابرة ولا مقيمة، شحنهم جميعاً إلى داره بجسد عفي كأنه ملاكم قديم، حين يشير له كسوف على واحدة يقول بهدوء :

- شحنتها من قبل.

عصبه مازال مشدوداً، يعرف أن الملكة بعيدة المنال، لكن ما من باب أزرق إلا وله مفتاح، لذا اتخذ قراراً بأن يحاول ويستمر، وضع مفتاح الصبر في جيبه الشمال وأغلق عليه، ما من مرة يسافر إلا أغرقها بالهدايا، وهي تهش له وتفرح به.

حين تكون على طاولة بها بوليس ورجال أمن وأشباههم، تضمه إلى الطاولة، يدفع حسابها كاملاً وينصرف راضياً أنه اقترب قليلاً من العتبة، يجلس في كرسيه العريض، يلعب بمسبحة ذهبية، يعد في سرّه: نعيمة، ألفة، نوال، وحين تقترب تسمعه يقول بصوت أعلى: والباقيات الصالحات، سبحان الله والحمد لله، وحين تتوقف لتهش لأحد ينخفض الصوت، رملة منى، دلال..

تقترب أكثر، تهش وتقبله، تضع يدها على كتفه، جسده يشتعل، ورغم أنه شحن جميع البطاريات إلا أنه لا يهيج إلا في حضورها:

–ماذا تفعل؟

.. كنت أدعو لك أن تزوري النبيّ.

تضحك:

–النبيّ مرّة واحدة ؟

.. أنا بصراحة عملت عمرات كثيرة، ولم يبق لي إلا الحج.

غمازة عابثة تلعب في وجهها، ويكاد الخال ينتقل من خد إلى خد.

– ربنا يوعدك.

يتشجع أكثر، يرمي كرته :

.. ما رأيك أن نحج معاً.

تضحك بهستيريا ، تضربه مرات على كتفه.

عيونه حاضرة غائبة، ورعشة حلوة تعتري جسد الملاكم ، يتمنى أن تضع اليد الأخرى على الكتف الآخر.

تقول وهي تهم بالمغادرة عائدة إلى دنياها :

- اللي يستنى خير من اللي يتمنى.

ريقه يجري، وأصابعه تضغط بقوّة على الرأس الطويل للمسبحة.

باب الملكة

تأخرتِ يا ست الكلّ.

تتجه نحو مصدر الصوت، أبو شندي الفلسطيني، تبتسم له، تتمعّن فيه، كيف لم تنتبه طوال المدّة الماضية لتجلس مرّة وتحكي معه.

يمطرها من حين لآخر، عند عبورها المقدس بجمل حلوة، تبتسم لها وتحفظها، وأحياناً تردّدها مع غيرها، لكنها لا تردّ عليه بأكثر من إيماءة، أو حركة مشاغبة بالأصابع.

– يا أرض احفظي ما عليك،

القالب غالب.. تقبريني وتقبري أمي.

وأحياناً بصوت خفيض يضيع في الزحام لكنها تلتقطه : ربنا يحافظ لك عليهم.

ونعيمة تدخل على الخط :

–البنات ؟

–.. لا، القنابل.

جمل لا تسمعها من ذكورها، لها وقع مختلف، تسمعها أحياناً في المسلسلات السورية والمصريّة، وتداعب أنوثتها بلطف وشياكة.

لا تشعر بها من مجيد، تأتي مخنثة باردة ومدفوعة الثمن مسبقاً.

كيف لم تنتبه مع أنها لا تترك ذكراً يؤذن في المقهى دون أن تحكي معه، وتفليه حتى قاع سرواله.

هي في العادة لا تقترب من طاولة الفلسطينيين، تسمع كلاماً أقرب إلى التحذير من أصدقائها في البوليس إنهم مراقبون من السلطة، تليفوناتهم وسياراتهم إن كانت عندهم سيارات، لديهم من المشاكل ما يكفي قارّة بأكملها، كلام لا تفهمه كلّه، كما أن رأسها مشغول عنهم، ليست في حاجة لوجع الدماغ، وليس هناك ضرورة من أصله لأن تتصل بهم، ثم إنهم بربطة المعلم من متوسطي الحال في أفضل الأحوال، لا هدايا عندهم ولا مصالح يستطيعون قضاءها، هم بطبيعتهم منكمشون على بعضهم في حالهم كأنهم يتامى، لا تسمع لهم صوتاً إلا عندما يصيح أبو جعفر: الخونة، العملاء. وكلام غريب لا تفهم منه شيئاً، لكنها تشعر بشيء من الألفة والودّ تجاهه تحديداً.

تتذكر حين تقدّم منها ذات مرّة بأدب ورجاء وافر، طلب أن تأمر النادل أن يدير ريموت التلفزيون على قناة الجزيرة حال غيابها عن المقهى، هو يعرف أن القناة لا تظهر على أية شاشة في أية مقهى بالمدينة، ولا يجرؤ أحد أن يمسك الريموت ليأتي بها ويثبت الشاشة عليها، ليس السبب دائماً أنه ويتامى طاولته يريدون أن يعرفوا الأخبار، لكن أدمغتهم تكاد تنفجر من الأغنيات الرديئة التي تتكرر طوال اليوم على كل القنوات حتى حفظوها مرغمين وسئموها ثم كرهوها، ويعرف أنها الوحيدة التي تستطيع أن تأتي بالجزيرة بكل بساطة، خلفها وأمامها جماعتها،

أصدقاؤها الذكور من أعوان الأمن والمخابرات، وتستطيع أيضاً أن تأتي بقناة المنار التابعة لحزب الله في لبنان من أجل عيون مجيد اللبناني، إلا أنه بخبرة رجل المخابرات لا يفوته أن المقهى مفتوح للجماعة بكل سرور، وأنها الباب الذي يفوت لهم كل أسرار الجالسين هنا بيسر وسهولة.

- ولو أن جزيرتك أحلى من قناة الجزيرة.

تتذكر كيف استوقفها ذات مرة بملامح ثعلب وعيون تلعب قائلاً :

- الجماعة كانوا يبحثون عنك.

- جماعة من؟

- الأمم المتحدة ووكالة الطاقة الذريّة.

لا تفهم، لكنها بسن ضاحكة ووجه عابث مراوغ تعرف أنه يلاعبها، تحاول أن تستدرجه لينطق، وقبل أن تسأله لماذا، يقول :

- لكن أنا ضحكت عليهم وصرفتهم.

- بالحق! هل كانوا يريدون تأجير القهوة بمنافعها؟

- كانوا يبحثون عن القنابل النووية.

عيناه مثبتتان على صدرها :

- وجاءوا ليفتشوا عليها عندك.

- وشاية..

تفرقع بالضحك، وشامة تتأرجح على خدّها،

- وشاية صحيحة.

يضحكان معاً.

تنسحب بخفّة، وتسحب ضحكته في ذيلها. تتذكر أنّها لا تكاد تراه، إلا حين ترتخي ملامحه بالسرور، يحرك أصابعه ويفك وجهه عند سماع أغنية لبنانيّة، يدندن معها.

تراه على هيئة فارس قديم أو ممثل في الأفلام القديمة بجرمه المفرود، بملامح فائضة بالرجولة، ووسامة استوت على وجهه ولم تغادر بعد، ملابسه مرتبة بأناقة ملحوظة لولا أنها قديمة، فارس بملابس مستعملة، تشي بواحد لعب معه الزمن لعبته، يحتاج فقط إلى بانيو ممتلئ بالنقود ليستحم فيه.

- تأخرت يا ستّ الكل.

- أخذت حماماً وغسلت لحمي.

- لو كنت أعلم لأتيت بنفسي، أشعلت البخور ووضعت العطور، ودعكتُ...

لا يكمل لكن عينيه تقولان.

تضحك وهو يشعر أنه بجملة واحدة كسر المسافة التي كانت تفصل بينهما.

هي بعيدة غارقة في عالمها، لا تكاد تجد وقتاً لتهرش جلدها، وربما لأن هناك من يهرش ويحك لها، وهو أيضاً غارق في تدبير المصاريف اليومية، عازف عن الدنيا والنساء، شبه محطم، الأفق مسدود أمامه والسماء تكاد تنهار وتطبق عليه، لا يريد أن يعيش هنا ولا يريد أن يموت هنا، يريد أن يختار أيامه الباقية بنفسه، ولا يعنيه أن تكون له مقبرة ، بالعافية تخفق روحه بين جنبيه حتى لا يقع.

فليعصر على نفسه مركب ليمون، يحافظ على رئة واحدة صالحة يستطيع أن يلعب بها مع طفلتيه، ويواصل لأطول مدّة ممكنة، ريثما يدبّر باباً للخروج من حرير الشرنقة التي تحاصره، كي يقدر أن يواجه زوجته التي تهدّده كل يوم من طرف خفيّ وطرف ظاهر - أنها ستأخذ الطفلتين والمعاش وتعود لولاية أهلها في الشمال حتى تستطيع أن تعلمهم وتؤويهم براتبه القليل.

في المرة الأخيرة قالت له بوضوح:

- أنت لم تصنع لنا مستقبلاً، نعيش بالعافية والأولاد يكبرون.

- لن يموتوا من الجوع بعدي، الفلسطينيون لا يتركون بعضهم في الأزمات، وأولادك لا خوف عليهم، لا ينقصهم شيء.

كان يعرف أنه يكذب.

- إذاً، لماذا تركوك؟

لو أن واحداً آخر لجن أو انتحر، لكن المقاتل صاحب الأصابع الحرير التي تخطط وتلف القنابل وتفرز الكوكايين المضروب من الأصلي، وترص كراسي الحشيش، صاحب الثلاث رئات في النضال واللعب والغرام، صاحب الليالي والعاهرات التي صادفهن في كل بقاع الأرض، والذي نجا من انتقام إسرائيل حين فجرت له الكازينو الذي كان يديره لحساب الثورة الفلسطينية في لبنان، يعرف جيداً كيف يأخذ نفساً عميقاً، ليكسب أرضاً جديدة يلعب فيها.

يتركها ويترك خلفه نكدها، يتدلى إلى أية هاوية أو مقهى، ليس معه نقود ولا روح ليلعب مع أية عاهرة من المتوفرات أمامه في المقهى ولا يريد، وحتى لو كان معه نقود فهو لا يريد إلا الباترونة الكبيرة، المصنف رقم واحد.

إن كان ولا بدّ فهي وإلا فلا، قارة من التفاصيل كما يقول الكاتالوج.

يقترب منها، يشدّ لها بأناقة وخفة بلوزتها القصيرة التي انحسرت عن الجانب الأيسر لسوتها، يعيدها لهيئتها غير الطبيعية، لا تنزعج من جرأته.

- أقول؟
- قل ولا تخف.
- خفت على الناس يتجننوا، معذورين.

يخطف نظره إلى عجيزتها :

.. تستطيعين أن تحملي السيّد الرئيس بمنتهى السهولة.

ويكور يديه بقوة في الهواء.

لديها الكثير، ولديها في الصباح أسفل تنورتها ساقان تشرقان، وأحذية بخيوط، يود لو يمد أصابعه ليفك خيوطها، ويلفها بها ، ويذهب بعيداً حيث تتسع له الدنيا والآخرة وما بينهما !

لكنه حذر على غير عادته، يعرفها جيّداً، يتفرج عليها طويلاً من بعيد، وبعين المجرب المدعوك يعرف أن كل الذين اقتربوا منها احترقوا بنيران فخذها ولعاب شياطينها.

هو بروح محروقة تماماً، وهي تملك ما يشفي الجروح، فليلعب معها، واللعب مع الباترونة الكبيرة للكبار فقط.

يحاول أن يسحب خيطاً ناعماً، أن يشد فتلة لم يقربها أحد :

- كم قصة حب في حياتك؟
- هل ستصدقني ؟
- نعم.

عيناه تقولان : لا.

- صدّقني لم أحب رجلاً في حياتي.

لم يكن يتوقع إجابتها، لكنه كان يهجس أن المرأة التي تتنقل بين كل هؤلاء الرجال لا تعرف الحب، ولا حاجة بها سوى للجنس، حتى ولو لم تستمتع به دائماً، إنها تقدّمه أحياناً لمن يستطيع أن يأخذها للسرير، ولمن يقدّم لها خدمات كبيرة، ولمن يجعلها صاحبة سطوة وسلطة دائماً. إنها تبحث عن النقود وأحياناً عن النفوذ وفوق كل ذلك تستمتع بأنها نجمة، تزهو بأنها السيّدة الأولى على حفنة كبيرة من راغبي المتعة والقرب.

يمرّ أمامه شريط طويل لذكور مقيمين على طاولتها، وآخرين تدخل معهم وآخرين تخرج معهم، لو عرفتْ الحب يا أبوشندي لعرفت كيف تختار رجلاً، صاحباً حتى لو تنقلت بين أفخاذ مائة رجل.

أنت موعود للمغامرة من يومك يا أبو شندي، قدر ومكتوب عليك، صفحاتك جاهزة منذ ولدت، لكنها مغامرة رديئة يا رجل لك ولها، ماذا ستعطيها، ماذا ستمنحها، ستمنحها ما لم يخطر ببالها أنه موجود في

الحياة، لا تحسب شيئاً ولا يجب عليك أن تذهب لها بماضيك ولا بحاضرك، نحن في وقت المغامرات الرديئة من كل ناحية يا رجل،صحيح أنها متقلبة مثل طقس المدينة التي تعيش فيها، أربعة فصول في يوم واحد، لكن هنا حلاوة اللعبة، ستصطادها في الفصل الذي تكشف شهواتها فيه، ولو بين فصل وآخر.

هي عاهرة يا أبا شندي في ثوب ملكة، عاهرة ولو بالحبر السري، لا تظهر إلا عندما تمر عليها يد عازف متمكن، الجميل فيها أنها بدون وصيفات، بدون جنود، تشتغل وحدها، لنفسها، لا لأحد، لكنها لا تشتغل على جسدها ولا تلعب لصالحه، هو الذي يلعب لصالحها، لذا فهي لا تعرفه أبداً.

عرّفِها على جسدها يا أبو شندي، يكاد ينطق، على أنوثتها. بأصابع الخبير القديم اكشف لها عن مياهها الجوفية التي لا تعرفها أو التي لا تستعملها، وعن بوابات أخرى للدخول والخروج.

هي لا تعرف، أنت متأكد من ذلك، لأنها لم تعشق يوماً كما قالت.

العشق يوسع في الروح وفي البدن طريقاً آخر، مكاناً طرياً للآخرين، مقاعد وثيرة، ولا مقاعد عندها، عابرون في عابرين.

ولأنها تشعر أنها مركز المدينة، ومركز كون النساء، لا ترى غيرها وليست مستعدة، وعلى الأرجح لا تعرف.

- صدقني لم أحب أحداً من قبل.

- الجسد بدون عشق وغرام وهيام يتحول مع جسد آخر إلى شيك بدون رصيد ، إلى كومة من اللحم فقط، تفوح منه رائحة نتنة فور نضج الطبخة تنحدر إلى الروح فتدميها.

طريقك وطريقتك، حاول أن تعرَفها على روحها لتدخل إليها من بوابة لا تعرفها.

لكنها غير محتاجة لذلك، غير مهيأة،لا تتعب نفسك وابحث عن طريقة ثالثة لتريها حنانك ومجدافك.

لا أحد يحتاج بضاعتك هنا يا أبوشندي، الجسد هنا هو المجداف الآخر الذي يتكيء عليه الجميع، الكل يحلم باللحم الأبيض المتوسط، واللحم الخمري، وكله معروض في أجمل فاترينة تحت أشيك ملبس أو أجمل عري، لكنه بلا أدنى شاطئ من روح.

هي حائرة، في رأسها موال ناقص، يحتاج من يكمله لها ويغنيه معها، لا يا أبو شندي في رأسها مواويل أخرى من الشرق والغرب.

تشعر أنها ليست كبيرة، وأنها لن تكبر في يوم من الأيام، وأذناها لا تتسعان لحكايتك ولا لموالك.

لكنه طامع فيها، لا لكي يأخذ جسدها، بل ليركبها كلها، الملاعب كلها مغلقة أمامه وملعبها المفتوح يستحق المغامرة أو هي المغامرة الوحيدة التي تستحق مقامرة، لذا يقرر أن يقترب أكثر، أن يتبول في أذنيها، ويزيد الجرعة.

الجانب الحزين نصف الشفيف منها يظهر في الصباح، حين تأتي دون ماكياج كحورية خارجة من البحر، يمنحها بعض الصفاء والألق الحنون.

تقترب بكرسيها منه، تحفه بحوائجها، تريد أن يحدثها عن العشق، على الأقل هي مغرمة بالجديد ومشتاقة للكلام الحلو الغريب الذي يوقظ فيها أشياء لا تعرفها، حتى وإن لم تبد أي ردّ فعل.

وجهها يفيض بشجن خفيّ، تحتاج من يستطيع أن يعزف لها الناي بمهارة ويخرج ثعابينه، وهو يكاد يعوي، يريد أن.يريها نايه صاحب التقاسيم والأوجاع المتنوعة.

الناي الذي لا يعبّر عن شجن صاحبه وعن شوقه وصبابته ليس ناياً يا أبو شندي.

يقطع مسافة أخرى، يمدّ يداً متهوّرة، يمسك ذراعها من خلف الرسغ، يتسحب بدربة حتى يلفّ زندها، يزيد وبصوت نصف حنون، نصف مرتعش يباغتها :

– جسمك بارد.

– جسمي بارد من الخارج، لكنني ساخنة في مكان آخر.

– يا متولي...

يصرخ.

يجدف بسرعة ليسحبها إلى بحره.

في كل مليون امرأة واحدة مثلك جسمها بارد من الخارج، لكنها مشتعلة من مكان واحد، وتوقد الحريق في كل الأمكنة.

يحاول أن يوغل، لكنها بخفة لاعب سيرك تسحبه إلى طاولتها الصباحية.

ينتقل، يلعب الورق معها، لاعب بوكر قديم، وعليه أن يربحها على الطاولة أولاً، إن كان يريد أن يربحها على سجادة أو سرير، لكنها لا تحب الخسارة بطبيعتها، لذا يلعبان كفريق، هذه مشيئتها، ومشيئتها لا ترد، تربح معه الآخرين، وتقدّم له الشاي والعصير دون مقابل، تلقف كفيه تصفقهما بكفيها، الأصابع في الأصابع ليمتد الشحن بينهما ليهزما الجميع، تعانقه بحفاوة كلما تصادفا في الصباح ، تعلق ذراعها على كتفه كحبيب قديم.

- ما أجملك من رجل!

لكنه لم ينتقل بعد إلى طاولتها في المساء. في الصباح تحفّه أحياناً بعجيزتها وفي المساء تبتسم له وتحرّك أصابعها في وجهه من بعيد، ثم فجأة كأنها لا تعرفه، كأنها لا تعرف أحداً، تصاحب شاباً نيئاً بوسامة رديئة جلبته إلى المقهى بعد أن بدّل لها عجلة سيارتها التي انفجرت في الطريق.

سحبته إلى المقهى علناً وصهللت به كطفلة كسبت دمية في لعبة البخت، فتى شهم يلبس سلسلة بصدر مفتوح ويدخل إلى حمام النساء بدل حمام الرجال.

يتهامسون ، يقولون إنها تصرف عليه، الوحيد الذي ربما أنفقت عليه، تشتري له حوائجه واكترت له شقة صغيرة يتطارحان الغرام فيها.

وأبو شندي عاد إلى قواعده مذهولاً، في مقعده صباح مساء، تراه لا تقطع خيوط العشم، لكنه يعي رغم نزقه أن بحرها مزدحم بالسفن واليخوت،

وسفينته القديمة المثقوبة لن تجد موطئاً ولو على حرف شاطئها، وأن مغامرته الرديئة رديئة فعلاً.

فجأة تتعب من الفتى النيء، البارومتر ليس معطلاً عندها هذه الأيام، لا بدّ أنه تحطّم، تطرده بجفاوة كما اصطادته بجفاوة، وكمن بدلت جوربها بجورب آخر، ترافق واحداً جديداً من رجال الأمن.

أجمل شيء فيها أنها في الماضي كانت تصاحب بعيداً عن المقهى، لا يعرف أحد عنها شيئاً سوى نميمة خفيفة تنتقل بصوت خافت من فم لفم، وأسنان حادة، تريد أن تقضم قضمة من الغنيمة.

تليفونها كأنه سنترال عمومي، والمكالمات على أشدها من فرنسا ودبي حيث يعيش ذكورها الكثر، ترتب أمرها، تأخذ زوجها لملعبه دون إحماء، تنام معه، تتفرّج على السقف، تأخذ المال وتسافر.

- ينغز له نغزتين، ويرتاح حتى لا يسألني.

بضعة أيام، تعود محملة بالهدايا والملابس الفاخرة، سعيدة منهكة من أثر السفر والسهر.

زوجها تائه، وهي بذكاء تترك له القيادة في المنزل، صنديد يحدد نوع الطبيخ كل يوم ويرسل البواب لقضاء الحاجات ويسبها بالقحب وهو سكران.

وأبو شندي يقول:

- ذهبت لفرنسا لتلعب في كأس العالم، ضجرت من المباريات المحلية والنشيد الوطني واشتاقت إلى الملاعب الأجنبية.

أجمل شيء فيها أنها في الماضي كانت تفعل ما تحب تحت الطاولة، بعيداً عن الأعين والألسنة، لكنها عندما فتحت كل شيء لرجل الأمن لم يعد يعنيها الأمر.

انزلقت، يأتي إلى القهوة جهاراً، يجلس إلى طاولتها يلعب معها، ولا يجرؤ أحد أن يزاملها غيره.

– عيونه ساحرة يا أبو شندي، أليس كذلك ؟

ضربت عرض الحائط، تخرج معه عيني عينك أمام الجميع، أصابعهما في عناق، يركبان سيّارة واحدة، يغيبان ويعودان، سعيدة كطفلة بضفائر وجدت قطعة الحلوى التي تحبها.

وواحد يقول : إنه ضابط خرج على المعاش، أوجعته الملابس الرسميّة التي خلعها، ويبحث عن واحدة يركبها لينسى.

وآخر يقول : إنه قبض مكافأة تقاعده، ويبحث عن واحدة تستحق لينفق نصفها عليها، وهي بحاسة الخبيرة قرّرت أن تبددها له سريعاً بدل أن يحتار فيها أو يقع في حفرة غير مناسبة.

– عيونه جميلة يا أبوشندي، أليس كذلك ؟

وأبو شندي يضرب الطاولة :

– ربنا هو الفلوس ورجال الأمن.

القصة على أشدّها، معروضة على شاشة المقهى أمام الجميع، طاولتها فارغة منها حين تخرج لتسهر معه في مكان آخر، طاولتها والطاولات الأخري مشتعلة بهما حين يحطان معاً، وكل شيء على ما يرام حتى وصول هادم

اللذات ومفرّق الجماعات، سكران لا يقطع عادته، رمى أوراق اللعب في وجه الضابط وقلب الطاولة، استدعت الشرطة ووقفت جنب صاحبها تشكو زوجها.

فارت الحكاية وامتنع نصف الموجودين عن الحضور للمقهى لمدّة شهر تقريباً.

كأن عقلها ذهب في يوم وليلة، لا لا، هي تعرف الحق والصواب جيداً لكنها لا تقربه، تحب الطقس المتقلب الذي يشبهها، كأنها تخاف من الأمان الذي يشعرها بأنها تكبر.

حلومة حبيبتها وعشيرتها وغطاؤها قالت لأبي شندي دون أن يسألها:

- زوجها لم يكن غاضباً لأنها صاحبت واحداً كما يشيعون، كان في شدّة الغضب لأن ابنه الذي وصل الرابعة عشرة عاماً شرب زجاجة الفودكا من وراء ظهره.

يشطب على مغامرته بالحبر الأخضر قبل أن تبدأ، يبتعد عنها، يتحاشى أن تتقابل عيونهما، يفكر أن يصنع تمثالاً لزوجها يضعه أمام المقهى في منتصف الربوة تماماً، ويكتب عليه تمثال النذالة، وهي بنصيحة حلومة قررت أن تفض علاقتها مع رجل الأمن حتى لا تخسر الجميع.

تعود، تحاول الاقتراب منه كأن شيئاً لم يحدث، تشطب بممحاة ناعمة على الماضي، تبحث هذه الأيام عن أحد تدفئ به مشاعرها، إن كان عندها بقية من مشاعر، يُشعرها ببعض إنسانيّتها، وهو حنون وذكيّ ويده تهبط بحنان على ظهرها.

شيئاً فشيئاً تقترب، شيئاً فشيئاً يبتعد، يفكّر أن يذهب إلى مقهى آخر يأخذ معه اليتامى ويقفل الباب على الأيام الماضية ، يرقبها من بعيد ككابوس ضائع، يرقبها من قريب كحلم متعفن.

أولادها كبروا، ولا يجب مهما كانت طموحاتها أن يشاهدوا ما يحدث أمام عيونهم.

ينفخ كحكيم تعب من غباء المريض :

لقد أخطأت حين نزلت بقدمك إلى بركة من طين، لجة من طين...

لقد أخطأت أكثر حين اعتقدت أن أبو جعفر هو المثال الحي على ما آلت إليه الثورة الفلسطينيّة.

يلتفت ناحيتها :

- أنت أكبر مثال وأنجح مثال على ما حدث للثورة الفلسطينية.

تضحك كأنه أهداها جائزة:

- كيف ؟

- أنت أكثر واحدة تشبهينها، أنت تناضلين من زمان وهي أيضاً ، نحن كلنا قمنا بثورة في المنافي وأنت وحدك قمت بثورة في المقاهي.

الفارق الوحيد أنك تربحين، أما نحن فنخسر.

يقول لنفسه:

الثورة مثل امرأة وضعت إصبعها في شيئها في نهاية المطاف، مثلها تماماً وتنادي على المارة والمانحين بصوت عال ليسمعوا وصلة من وصلات شبقها أو يرموا النقود في حجرها.

تقول له:

– نفسي أذهب إلى بيروت لأكبِّر مؤخرتي قليلاً، تقول وهي تحتضنها بين يديها : عمليات التجميل هناك سهلة ونتائجها مدهشة.

هو آخر من يحتاج لمن يذكره ببيروت ونتائجها المدهشة.

– ما رأيك أن تأتي معي لبيروت؟

داست على الجرح دون أن تعرف الرتق.

تتركه يفكر، تقوم لتحضر مشروب الفانتا الذي تحبّه، يترك في الفم طعماً حلواً لزجاً يشبهها،سرعان ما يضيع، تعلق مؤخرتها في مكان ما من عينيه وتبتعد، يرقبها بروح باهتة، كان يتمنى أن يفضها من مكان لم يقربه أحد، لكنه بعين الخبير يعرف أنها مؤخرة مضيافة وتدرك أنه يتابعها.

طفلة تلعب بالرجال تلعب بروحها، لا تعرف لها شاطئاً، الشاطئ الذي يلمع ترسو عليه، والحائط الذي يمكنها أن تسند يدها عليه تعطيه ظهرها، وفي لحظة لا تخطر على بال عاقل أو مجنون تتخلى عنه لتدخل في لجة بحر لا تعرفه، ليست مغامرة وليست مقامرة، المغامرة تحتاج للشجاعة، والمقامرة تحتاج للحظ، وهي محظوظة إذ تراها تبرق كأنها ملكة بصحيح في أزمنة غابرة.

– مثلها كان يجب أن تصاحب أميراً، لكنها تريد كل شيء في وقت واحد.

تعود، تفتح العلبة أمامه، تصبّ نصفها في كأس تشربه دفعة واحدة وهي مازالت واقفة.

وعلى غير ما يتوقع تستدير، تضع ظهرها في مواجهته، تحشر العلبة بما تبقى فيها في الجيب الأيسر الخلفي لبنطالها المزدحم الذي يكاد ينط في وجهه.

فمه مفتوح على آخره، وهي تشير بأصابع راقصة وعين غامزة:

—هل تحب الفانتا؟

باب النحل

لا تحاولْ معها، وفِّر وقتك، ابحث لك عن واحدة أخرى، الواحدات كثيرات، والطريق كله إشارات حمراء، والخضراء — إن أضاءت – ليست لك.

وفِّر وقتك ونقودك، هي لا تأخذ نقوداً من أحد، ولا يمكن لها أن تبيع جسدها بنقود الدنيا، لا تستغرب إذا قلت لك إنها تدفع أحياناً، لا لأنها ليست جميلة أو جذابة، لكنها قد تفعلها حصراً وعلى الهواء مباشرة لواحد فقط، واحد بعينه يستطيع أن يخرج لها العفريت من قاعها أو يصيبه في مقتل، العفريت الذي يسكنها لا ينغص عليها حياتها، بل على العكس تماماً ، لكنها محتاجة لمن يستطيع أن يحك لها الفانوس بلطف ثم يدعكه بقوة، يعصره ويسحب لها المارد الذي تحلم برؤيته وتتخيله كل يوم، ثم يعيده بقوة مرة أخرى.

كل يوم تتدحرج إلى المقهى قبل العصر، تضع جهاز الكمبيوتر أمامها ، تكتب وهي تدخن سيجارتها بأناقة زائدة، بساق ربع عارية فوق ساق نصف عارية ، كممثلات أدوار الإغراء في أفلام زمان ، وببطء متعمد ترشف قهوتها.

يقولون إنها تعمل صحفية بالقطعة، بالموضوع، مزاجية لا تحب الأعمال المستقرة، تكتبه وترسله، وبين يوم وآخر تفرد الصحيفة، تفرد وجهها إذا وجدت اسمها،

مبتسمة تمد ذراعها البضة بدلال معقول، تشير بلباقة لواحد من الشباب تسأله أن يناولها نسخة أخرى من الصحيفة نفسها ملقاة على طاولة أو كرسي قريب، وبحركة محسوبة تبدو في غاية العفوية تريه اسمها وموضوعها، لا تختار أي شاب، تنتقي واحداً بعينه حسب حالة الطقس عندها اليوم أو في اللحظة ذاتها.

كل يوم تنادي واحداً غير الآخر.

قلت لك من البداية لا تشغل بالك بها خاصة إذا كنت قد تسلقت الثلاثين من سلم عمرك فما فوق.

تنتقي واحداً في منتصف العشرينيات، النصف الأول تقريباً، لا يزيد، واحد من الفروخ.. الشباب الصغار ، شباب الوجه والبدن، تحكي معه، تريه اسمها المنشور في الصحيفة، تمد ذراعاً للأمام خفيفاً، تكشف معه صدرها المكتنز الرابض تحت ديكوليته بفتحة واسعة منخفضة دائماً ، وإن اندست أجنابه تحت قميص شفاف، حوصر محاصرة عنيفة بمشد قاس ليهيىء للدوران المرتفع المحشور في بعضه أن يواجه وجهك بشجاعة، بتحد واضح وربع المفرق أو نصفه في مفرق عينيك.

واحد من هؤلاء الذين ينفقون وقتهم هرباً من جامعة أو انتظاراً لفرصة عمل لا تجيء، يتسكعون داخل المقهى بشعر مضروب بالجل كأسلاك لامعة مدببة، يتصفحون فقط أخبار الرياضة، بالتبادل، وحين ينتهون – أحياناً قبل ذلك – يتعاركون حول الهدف الملغي في مباراة الأمس، والحكم المزور المرتشي.

يتصايحون، لا تكاد تسمع جارك من اختلاط أصواتهم، من تلاحقها واندفاعها.

دوامة دائمة، كأنهم يصنعونها عمداً، ليهربوا، ليغيبوا فيها.

الصوت العالي، الفتوة وخشونة الصبا اللتان تصاعدان منه هما بالتحديد ما يجذبها، لا يعنيها الهدف الملغي، تبحث بشغف عن الهدف الصحيح، شرطها الوحيد أن تلعب دور حارس المرمى.

هدفها واضح، تتوفر كل يوم في أحد الموعدين السابقين حسب التوقيت المحلي لشهوتها حيث يتجمع الشباب الصغار فيهما.

هي عضوة مؤسِسة في المنتخب الوطني للحمام، لكنها كما أخبرتك سابقاً مختلفة، تدخل الحمام الآخر حمام الرجال، تندفع خلف شاب بعد أن ينتهي مباشرة، أحياناً تدخل مرتين أو ثلاثاً، تشم رائحة البصل المتصاعدة، تستنشقها بأنف مفتوح، تقول بثقة العارف وبنظرة مراوغة :

- هذه الرائحة دليل صحة وعافية.

تختار من أعجبها بصله، وإن تعذر عليها تختار أكثرهم فتوة وشباباً، من تتقد في عينيه نظرة معجونة بشبق طازج، لمحة إغواء.

للشباب رائحة، كما أن للعذراوات رائحة، له علامات في الوجوه ولمعة في العيون.

لا تختار أبداً واحداً بشفاه رفيعة، وحين يتعذر المخزون أو تشح البضاعة تنظر بتمعن بالغ لأصابعهم، تختار صاحب الأصابع الطويلة الممتلئة، الخشنة منها.

- الناعمة يذهب بها لأمه.

تضحك ويهتز جسدها في إثره.

على أعتاب الثلاثينيات، ربما في بداية النصف الأول، صارخة البياض، بعيون لا تعرف إن كانت زرقاء أم رمادية، وشعر بين الأصفر الداكن والبيج الشاحب، خيوطه خشنة كشعر مفرق الفرس في أوانها، يشبه شعر البنات في أستراليا أو كندا التي تراها في الأفلام والمسلسلات.

تقول له وهي تشد خصلة لأعلى بدلال :

- مثل شعر الممثلة نيكول كيدمان قبل أن تصبغه هي في آخر أفلامها.

باربي، عروسة من لحم ودم، بياض أليف رغم شهقته، فوق وجه رائق حين يضحك، باسم إذ يتكلم، يتكلم وحده، فلجاء باسمة تقول بنظرة المنتصر :

- رزقي واسع من يومي.

لكنها – للأمانة – لا تتنظر رزقاً يسقط بين رجليها، تطبخه وحدها وعلى طريقتها الفائرة، وسفافيد الشوي والفرن جاهزة عندها.

الشاهد– وحتى لا أطيل عليك أو عليها – تختار الشاب الذي رسا عليه المزاد أو وقعت عليه القرعة، تجره بشهوتها تسحبه بهدوء، تخطفه من كوابيسه، يخرجان معاً، والدعوات تلاحقهما.

في سيارتها، في منتصف الطريق إلى دارها، تشحذ كل أسلحتها، وبدلال وافر مغلف ببعض من حزم، تتسحب يدها على ساقه وتلقي عليه بيانها الافتتاحي :

فرصتك جاءتك لحد عندك، خذها كاملة، لا تتعجل، خذني براحتك، على مهلك، على أقل من مهلك، لا تترك قطعة في جسدي إلا بعد أن تلين وتشير لك أنها استوت، إلا بعد أن يخرج الجنود من المخفر المجاور ليلاحقوا تأوهاتي ويطاردوا العفاريت التي فرت من قاع البئر.

اجعل المقدمة الموسيقية طويلة قدر ما تستطع، كانوا يسهرون مع أم كلثوم للصباح، الأغاني القديمة وجبة معمرة تحقق لك الطرب والنشوة، الجديدة سريعة متشابهه تفر من المستمعين، خل زيارتك طويلة ما استطعت، أنا من سلالة قوم كرام، الضيف له ثلاثة أيام، والمعشوق له ما استطاع إلى جسدي سبيلاً.

افعل كل ما تحب قبل أن تدق باب المغارة، الذين يحومون جيداً حول الخيام ليسوا كلهم لصوصاً ، كن كلص يعرف أن غنيمته تناديه، للدخول آداب وللزيارة طقوس، اترك أمر البخور والموسيقى لي، حذار أن تترك قطعة فيَّ تعتب عليك، أو تغار من جيرانها، أيقظ الغيرة بينهن ، أوقدها، دعها تشعل قلب الذي ينتظر، وتولع قلب الذي انتهى دوره.

احلم بمكيدة بين الجميع، دبرها، دسها بعينين مغمضتين، المكائد للنساء، والمكائد في الفراش للرجال، أصابعك ليست للعب الورق ولا لوضع الشوكة في اللحم، شفاهك ليست بوابة للأكل والشرب والقبل السريعة الخاطفة والحديث عن الأهداف الملغاة.

غُص إلى الأعماق كبحار محترف يفتش بلوعة عن لؤلؤة نادرة، تمعن وبنفس طويل عميق شم روائحي، الرجال الذين لا يعرفون الروائح لا تسجل أسماءهم على لائحة

الخلود في معابد النساء، لا تترك منحدراً أو مرتفعاً دون أن تطبع عنوانك عليه، الكثبان المتموجة سوف تساعدك على التريض بسعادة وتدلك على طريق الغابة، اقض وقتاً جيداً بين أشجارها حتى يفتح لك حارس الغابة، اللعب في الغابات يطيل العمر، وحين تشعر أنك تقترب من الساحل هناك قبة عالية، مسها برهافة، مسها مس المخبولين حتى تنز مطراً خفيفاً أو عسلاً ثقيلاً، البوابات تدل على الديار، النواقيس تدل على الدواخل، أسفلها غيمة واطئة، هناك سوف تشم رائحة حمضية حلوة، استنشقها كتائه فوق جبل حتى تملأ خياشيمك، دعها تمر لعروقك، الذين لا يعرفون هذه الرائحة ضاع منهم نصف أعمارهم.

تطلق ضحكة عالية لتقطع المراسم، تضغط باليد على أعلى الفخذ، تغير اتجاهها نحو المزانق.

فرصتك وحدك، اختارتك هي، لا تجعلها تندم على فعلتها، الفرص الكبيرة تأتي مرة واحدة في العمر.

أنت الآن أمام باب القلعة، افتحه بالحيلة، الذين استخدموا القوة ناموا ليالىَ طويلة وخسروا قائدهم نتيجة اندفاعهم وارتدوا منهكين، لم ينفعهم البكاء ولا المنجنيق، دع سهامك تطيش هنا وهناك حتى يسترخي وحده، وتتأكد أنك تسمع بنفسك صوت مزلاجه، دع أخطاءك تدل على قوة إصاباتك، تقدم، الآن تقدم، دق عليه دقات متتالية متتابعة هادئة، وحين تسمع صوتاً قادماً من الداخل يناديك أو رأيت جندياً يلوح بالعلم، ادخل من الباب، ألق تحية السلام سريعاً، احفر اسمك بقوة على لائحة الفاتحين، واركض ثم خفف الوطء.

حاذر إن دسست وألقيت حمولتك ثم قفزت من السور سريعاً، حاذر أن تفعلها، النصيحة للأحبة، الزوار المتسرعون مكروهون، الزوار المتعجلون مطرودون، لن يسمح لك بالزيارة الملكية مرة أخرى.

زُر كل الغرف في الداخل، تجول على مهلك كسائح غني شغوف، تنقّل من بيت على اليمين إلى آخر على اليسار، دق الكهوف عنيفاً حتى يفتح لك النائمون منذ قرون، هنا يمكن أن تكون عنيفاً، كي يخرج السكان من مخابئهم، هشهم بعصاك.

زُر الأركان التي يخافها المرتعبون، لا تترك ركناً يلعنك، عد على مهلك،لا تدر ظهرك سريعاً، ودِّع من تشاء بحرارة، عد سعيداً إن نسيت أحداً، غنّ أغنيتك قبل الأخيرة، غنّ أغنية الجنود الفائزين، وادفع ماءك بقوة في قاع البئر، ودَعْه ضاحكاً يروي عطش الساكنين.

اسكب روحك هناك يا صغيري يا صغيري.

استرح الآن فقد تعبت، نم عميقاً بداخلي حتى ينام الفاتح وحده، ولا تستيقظ – أمَّنْتُك– قبل أن تتأكد أن النعاس قد غلب الجميع، والعطش قد أصبح في خبر كان..

استحم في الماءين المختلطين، في المزيج الذي لا يعرف سره أحد، الماء الذي لم يصنع من قبل، الماء الدافيء شعار المحبة والحياة.

لا تقفز فوق السور، لا تهرب كاللصوص، اهرب كصاحب مطرح.

قلت لك لا تتعجل، هي زيارة واحدة، هي الفرصة الأخيرة لمحكوم عليه بالإعدام، لا تنس إن نجوت أنك قد – أقول قد – تعود مرة أخرى لزيارة محكوم عليه آخر ذات يوم.

تضغط بأصابعها على ساقه :

– افعل كل ما حلمت به، كل ما حكى لك عنه أصحابك صدقاً وكذباً، بالذات كذباً، ما رأيته خلسة من أفلام، ما طاف بخيالك وما لم يطف.

تضحك كقطة مجنونة، يدها على ساقه على وجهه وتقود باليد الأخرى.

انتهى البيان.

ملكة النحل ليست في مملكة النحل فقط.

كل يوم تنتقي واحداً بالبصل، بالأصابع، بقوة البدن وجماله، تستهدف أجسادهم بمقدرة عالية على الإقناع، كلهم في عمر الشباب، شرطها الأصيل.

تغيرهم بسعادة كما تغير ملابسها الداخلية، عشرات الأطقم لعشرات الغزوات، ليس سأماً كما يمكن أن تظن، بل تنوعاً والتنوع ثقافة، غنى وغواية.

يقولون إنها أنهت مقهى كاملاً من قبل، وإنها الآن في مفتتح عصر النهضة في هذا المقهى..

اكتبوا ذلك على صدرها.

جسدها المكتنز قليلاً، برجرجة خفيفة دون أدنى ترهل يسبح بقوة تحت تنورة ناعمة حريرية، من الشيفون غالباً، حتى تتحرك المعدات الثقيلة بحرّية، وتتأرجح على راحتها بلمعة الحرير الدافئة وملمسه الناعم.

مس الحرير على الجسد، احتكاك الخفيف يولد أقوى شرارة.

الجينز سوف يقتل حرية أعضائها الوافرة أو يحدد لها أغانيها، وهي تحب الحرية ولديها ألف دليل، التنورة الحرير تشعرك أن الأعضاء تومىء ولا تصرخ.. السكان يهمسون ولا يصرخون.

مائة شاب تعدهم على أصابعها البضة، كأنها تحقن شبابهم في شبابها، تنظر إلى وجوههم فترى وجهها، يمنحونها الإحساس الطري بأنها طرية وصغيرة.

الكهل الذي تزوجته في لحظة حساب خاطىء في مقتبل العمر لم يسقها لبناً ولا عسلاً، سقط سهواً على أعتاب البوابة في عام الفتح.

لم يكن في نيتها الزواج، رأت أباها وأمها في عراك لا ينتهي كل يوم، حياة على أطراف الجحيم رغم الثراء وراحة العيش.

رأت كلاً منهما يزوغ من ملعبه ليسجل أهدافاً غزيرة في ملاعب أجنبية، ثم يضحكان على بعضهما بالعراك، عراك مفتعل والحرب في مكان آخر.

تبتسم بمكر حين تقرأ في إحدى الصحف أن فريقاً فاز على آخر بهدف نظيف.

تلتفت ناحية ألفه الجالسة على مقربة منها، تتناثر الألفاظ راقصة من بين فلجتها :

- الأسود عليك يجنن، رشاقة وأناقة.

وألفه ترد بحاجبيها :

- ولكن عليك بالأبيض، يزيد الجسد شباباً.

لا تحتاج وصية من أحد، ترد عليها بثقة :

- لا توصي حريصاً ولا عاشقة.

ألفه كانت في حكايتها، الفارق الوحيد أن باربي تستطيع بدقة أن تحسب عدد الغزوات وعدد الفاتحين، وتستطيع أن تؤرخ لهم في مملكة جسدها المترامية، ويمكن لها بصدق أن تشيد النصب التذكاري للجندي المعروف.

باربي الصغيرة المكتنزة قليلاً وجه ببراءة الكبار، وجسد شاب عامر بالخيرات لا يفوتها أن تلقي بيانها الختامي دون كلمات، تربت بيدها بضحكة طفولية وعشر دينارات للشاب المأسوف عليه ليعود وحده بالتاكسي، وعلبة سجائر وكارت شحن لهاتفه وقبلة طويلة على الخد، وتلويحة قوية سريعة بقبضة يدها كأنها ترمي منشفة لملاكم في أرض الحلبة إيذاناً بالانسحاب من المباراة قبل أن يقتله الملاكم الآخر.

- صفف شعرك جيداً جهة اليسار.. ناولني المفاتيح.. لا تنس هاتفك.

....

....

....

الدنيا التي خبرتها من قبل كانت زائفة، وهي تريد قلب الأشياء، كبدها، زبدتها، قررت أن تعيد صياغتها من جديد على طريقتها، طريق باتجاه واحد، هروب إلى الأمام، والهروب إلى الأمام أحياناً ضروري بسيارة لا يركبها شخص واحد مرتين.

كلعبة عاشت وغاصت سعيدة فيها، حاكتها على مقاسها المكتنز قليلاً لتصدقها، زمامها في يدها، زمام الحكم، وشعبها في مملكة المقاهي تختار منه وزيراً كل يوم، وزراء بألوان ملابسها الداخلية تماماً.

شهريار في إهاب أنثى، لكنها لا تقتل مثل سميها، تطلق سراح الجاني بعد أن نفذ جريمته على خير وجه، هي تحب وتحيي حتى لو قتلته داخلها.

هي أفضل من شهريار ولا تحتاج حيل شهر زاد البائسة.

الفارق بينهما كبير، هو ينتظر نافد الصبر نهاية الحكاية ليرتوي من الدم والشك، وهي تطبخ على نار هادئة لترتوي من العسل.

يريد أن يقتل وينام، وهي تريد أن تُقتل لتنام، هو ينام بائساً لم يركب ولم يأكل ولم يقتل، وهي تنام سعيدة رُكبت وأكِلت وقُتلت وقَتَلت الآخرين لتحييهم.

حتى هي أسعد من شهر زاد التي تفكر كيف تتحايل لتنجو من بين يدي القاتل، وهي تختار قاتلها بسيف يحييها.

ذلك ما يمتعها، يرضيها، لكنها تنهب الأرض تبحث عن المزيد، تروم واحداً يرمم شبقها، يسد كل شقوقها، ويفتحها على كل الجهات.

والمزيد دخل المقهى الآن، واحد طويل، لا يعرف له لقب، ظل اسمه لفترة طويلة مُحَمَّد الطويل ثم انقلب مرة واحدة بقدرة قادر وربما بفضل فتوحاته المتكررة إلى مُحَمَّد شهريار.

تتطلع إليه، تكاد تشفطه بعيونها رغم أنه في منتصف الثلاثينيات، تخطى الخط الأحمر الذي حددته لأعمار من تصاحبهم، لكنه حكاية لوحده، حكاية كبيرة، ويمكن أن يجمع كل فتياتها بين ساعديه وساقيه، في فتوته، فجأة تفكر– ولأول مرة – أن تخرج على نص المعاهدة التي وقعتها مع نفسها، تمزقها، أو تعتبره مذكرة تفسيرية لها، كان مختبئاً في الحواشي تأخذه وتضيفه، لكنه في واد آخر لا يكاد ينظر إليها أو يسلم عليها، يومىء برأسه ويمضى هارباً، ورغم طوله ووفرته وجاذبيته الآسرة إلا أنه يسلم على من يعرفهم لأول مرة برأس طويل منحن قليلاً ، خجل كجنتلمان من القرن الخامس عشر.

وسيم بوجه مشتعل وعيون خطرة، عضو غير دائم في فريق الحمام القومي، على دكة الاحتياطي بروح قناص وعيني صقر ، لا يتزحزح من مقعده إلا إذا دخل صاروخ بشري إلى الحمام، والصواريخ أشكال وأنواع، يتسحب برأسه المنخفض كأنه لبس طاقية الإخفاء، كأنه يداري نفسه عن العيون، يقترب بشبح ابتسامة ماكرة من فريسته ويلقي بيانه الافتتاحي مثلها، هو في الواقع لا يملك بياناً، هو لاعب صاحب قاموس، مبرمج بعبارات متنوعة يحفظها، لكنه يلقيها كأنها بنت اللحظة، كأنها فاجأته لتفاجىء فريسته.

حين يغسل الصاروخ يديه الناعمتين في الحوض، يمسح يديه في مناديل الورق، يقدمها لها ويقول : يدان يجب أن تلفا في حرير، يا خسارة، ليس عندهم حرير لتمسحي يديك فيه، لو أعرف أنك ستجيئين لأحضرته معي، يا خسارة لو كنت وسيماً لأخذت رقم هاتفك، في التو تضحك وتمنحه رقمها.

كثيراً ما تأتيه الأرقام تجري وحدها، تعبر واحدة أو اثنتان، تلطشهم وسامته وبدنه الفارع ومؤخرته العريضة المتماسكة التي تشي بمقاتل من الطراز الرفيع في الفراش، عنده سيارة وملابس آخر موديل ولديه ورشة لغسيل السيارات، يتوقفن عنده وهن ساعيات عائدات من الحمام، يسحب طرف الحديث معهن بطريقة طبيعية، كأنهم كانوا يسبحون معاً في البحر أمس ، ثم كأنه ينومهن مغناطيسياً يلقفن هاتفه ويكتبن أرقامهن.

للأمانة إستراتيجيته مختلفة وناجحة، انتظر قليلاً وسترى، لا ينام مع واحدة من أول مرة إلا نادراً، إلا إذا غلب ماؤها ماءه، يسحبها بخفة لملعبه، البساط الأحمر للفاتنات ولصاحبات القوام المثير، جنتلمان كريم، مسل ظريف إلى أبعد حد، يلاعبها كأنثى عنكبوت حتى تقع في شركه الذي نصبه بالغراء والعسل ثم يمص رحيقها على مهله، العسل أنواع وهو متحفز مدمن للقطفة الأولى.

صياد والصيد غواية، داء المبتلى، ومخالبه طويلة مثله.

ما من مرة دخل المقهى فارغاً، كل مرة تتأبط ذراعه واحدة أحلى من الأولى، إلا إذا كان يفتش عن مغامرة في الأفق ترضى غروره، عن عصفور

طائر في الأعالي ليصطاده، أو يمامة يفرد لها شبكته أو يبحث –وهذا أمر نادر– عن هدنة.

ومن آن لآخر يضرب فخذه براحة بيده، يقول بصوت عالٍ : "الدنيا ريشه في هوا".

في الغالب لا يصطاد من المقهى، لا ينسج شباكه إلا لواحدة لم يستطع أحد الوصول إليها، أعز معاركه تلك، أو يلقط وجهاً غائبا متوارياً بين الوجوه ، بعين الصياد الماهر ينتظر بمكر بارد وعلى نار لحظة قيامها من طاولتها، يترقب لحظة عبورها أو دخولها المبارك إلى الحمام المقدس ليتسلل، يغسل يديه ويعزف مقطوعة الحرير.

مشكلته البسيطة والوحيدة كيف يغسل يديه منهن بعد أن غرف ما طاب له، أو عندما يلوح في الأفق صاروخ من طراز جديد، هو طيب له قلب حنون لا يحب أن يكسر قلب واحدة، لكنه على أظافر قدمه الأخرى منتصب ينتظر أقل فرصة تلوح له ليغلق الموضوع، وينتقل بخفة وسعادة إلى جولة جديدة كأنها الجولة الأولى.

جيش البنات اللواتي وقعن في حبائله لا تجرؤ واحدة منهن أن تخرج من بيتها أو جامعتها لمشوار مع أحد دون أن تأخذ الإذن منه، زعيم كبير، القائد يجعلك تثق به وتسير معه، والزعيم يجعلك تثق بنفسك، تسبح بحمده وتمشي خلفه.

يضحك أحياناً بخفر مخلوط بغرور : الحكاية مش سايبة.

يحكم من بعيد كإمبراطور إفريقي، كطاغية وسيم، شعبه النسائي موقن أنه يرى كل حركاتهن ويسمع ما في صدورهن وهو نائم.

محمد كازانوفا في صورة زعيم، إن أعجبته واحدة رآها مع أهلها وصعبت عليه الحكاية يترك رقمه في ورقة معطرة تحت مسّاحة زجاج سيارتها، ما من مرة استعمل النادل ليرسل معه رقمه لفتاة ولا دفع الحساب مسبقاً ليعرف واحدة، لا يؤمن بالمشاركة في الصيد، لا يشعر معه بلذة القنص، وحين يرى ما يفعله مجيد اللبناني ليتعرف على الفتيات يقول بقرف :

- بهيم وساقط.

- هذا للساقطين وعديمي الحيلة وللذين تسبق شهواتهم ألسنتهم.

في الطريق إلى المقهى ينظر بعينيه الساحرتين الميتتين لمن تقود السيارة المجاورة، يطلب منها بأدب وإلحاح أن تُنّزل زجاج سيارتها، يقول بسرعة :

- السيارة جميلة، لكن صاحبتها أحلى..

هل تبيعينها ؟

يرمي رقمه من النافذة وينتظر المطر.

خططه البسيطة فتاكة لا تنضب، وشراكه لا تنتهي، للأمانة هو صاحب مبادىء في الغرام رغم كل ما سبق، إذا أعجبته واحدة يتقدم مباشرة إليها، وإذا فاجأته — نادراً ما يحدث- وقالت : عندي صاحب، لا يهتز ولا يتراجع ولو قالتها بحزم ، يسألها بحنان طري، بعيون نصف ضاحكة يلعب فيها ثعلب عتيق الشطرنج مع ابن صاحبه :

- هل تحبينه ، حلفتك بالله ؟

إن أجابت بلا أو سكتت يدخل في اللعبة فوراً، ينتزعها من صاحبها ومن دنياه إلى دنياه.

وإن قالت: نعم أحبه،لا يدع الأبواب تنغلق ، يترك المسألة للصدف، وقبل أن يمضي لا يترك أرضاً دون فخاخ أو خطاف، لكنه لا يقترب منها أبداً على أية مسافة بعد ذلك ولو صدفة، يقول بشجاعة:

- لا أنام معها طالما تحبه ولو أعطتني كل فلوس الدنيا ولو أتت بغواية زليخة.

مامن مرة باع مبادئه أو خرق قانونه ولا أدخل تعديلات دستورية على معاهدته، ما أفلتت من شبكته غزالة غير واحدة، لم يجد معها باباً ولا شباكاً ولا سبيلاً، حاول من بعيد ومن قريب، ضرب في كل الجهات وغنى في كل الفصول، رمى قاموسه بجلدته عند عتبتها، ورجع ذليلاً مكسوراً مثل جندي خسر المعركة وأسروا سلاحه، في النهاية اضطر أن يُخرج الاحتياطي المركزي والأمن المركزي، أن يدخل مغصوباً تعديلاً خفيفاً على قانونه، راح يطاردها بسيارته ، خلف سيارتها أينما سارت، وفي لحظة يأس لم يتعودها طيلة مشوار حكمه دخل فيها من الخلف.

بلطف شديد وانزعاج غير موجود اطمأن عليها، أحنى رأسه الطويل حتى منتصف صدره، عرض عليها أن يصلح العطب، يدفع لها قيمة الإصلاح فوراً، أو يشتري لها واحدة جديدة.

بلعت ريقها وبغمزة حراقة ابتسمت، بوضوح وحزم، وضعت سبابتها على أرنبة أنفه وقالت :

- وحدي.

- نعم !

- وحدي وحدي، ولا واحدة أخرى معي.

بمرارة ساخنة قرر أن يعتزل، يودع ملائكته، ويسلم أرقام هواتف الغزلان التي ترقد سعيدة في هاتفه لأصدقائه الذين ينتظرون مباراة اعتزاله أو حفل زفافه بفارغ الصبر والشوق ليخطفوها ليغنموها منه.

وبدأت الاستعدادات، أغلق هاتفه لأيام، أخذ رقماً جديداً وكتب فيه اسمها، أول اسم يكتبه في هاتف، قرر بأسى واضح أن يودع الجميع، لكن ذيل القط لا يستقيم بضربة واحدة ، في أول طلعة من المباراة مع واحدة أخرى، تعثر حظه لأول مرة ، شاهدته بالصدفة التي لا تأتي في الدوري الأسباني مرتين، كالقضاء المستعجل جعلته يراها، سلمت عليهما وقالت : مبروك، أعطته ظهرها وقطعت الطرق الرئيسية والفرعية.

كنس عليها الجوامع والبارات، أطال ذقنه وماتت ابتسامته، توسل لها برأس سيدي أبي الحسن الشاذلي وحلف برأس الزعيم بورقيبة.

ببرود قالت :

- المباراة ألغيت بفعل فاعل، ولا يمكن إعادتها بسبب فروق التوقيت.. الطلقة خرجت يا شهريار.

وأمه تنهره :

- تزوج ، تزوج يا كازانوفا، هل ستصنع منهن مسبحة يا ولدي !

يمسح الشوارع باحثاً عنها، لا يعثر إلا على طيفها يتراقص بين عينيه، يحج للمقهى كل يوم، يجلس في ركن بعيد، لا يقرب الحمام، يعد على مسبحته الموف أسماء اللواتي ضاجعهن، ينهي المسبحة عشر مرات ولا يصل للخاتمة ، لكنه لا ينسى التسبيحة الأخيرة ولا يصل للرأس الكبير.

كل يوم يتذكر أسماء أو وجوهاً جديدة نسيها في المرات الماضية يضيفها إلى حباتها، إلى ورْدِه، لكنه لا ينساها، لا يستطيع.

يسكر كثيراً ليطرد ملامحها، يرمي بالثلج النائم في قاع كوب الكوكا.

حين يفيق لا يتحدث إلا عنها، يقول :أخاف من الزواج، إن كانت المسألة في الشهوة فشهوتي لا تنتهي، أنا لا أستطيع السرقة، أفعل كل شيء سواها، لكنني سُرِقْت.

شاب وعازب، أفعل ما أحب قبل الزواج و لو نمت مع المدينة كلها أما بعد الزواج فلا.

صامتاً يرمي الكلام للداخل :

والتي كان يمكن أن أعتزل بها صدمتني بعدما صدمتها،

أنا أريد واحدة أنسى بها العالم، تأتي لي بالنوم، والتي كان يمكن أن تفعل أطارت النوم من حياتي.

يلتفت ناحية أبوشندي، يحملق فيه متعجباً من صبره على الجلوس صباح مساء صامتاً على مقعد واحد :

– المسألة ليست رياضة، تلعب وتعتزل، تتزوج وتعتزل، كل واحدة لها طعم مختلف، وأنا أموت في الحرية.

دون قصد ودون معرفة داس على جرح أبوشندي الذي أومأ له وبصوت خفيض :

- نعم إنها الحرية، الحرية، عندك ألف حق، حجر معسل يا بني..

طبعاً، حتى باربي حرة أكثر مني.

باربي تختار ما تشاء وقت تشاء، لها شاطىء وسفينة، لها عجيزة طرية، تدرك تماماً أن الملاح لن يهرب في عرض البحر، وهناك بدل القبطان مائة قبطان.

هي غارقة بلذة حمراء في حكايتها، تريد أن تغنم شهريار بنسائه حتى ترتاح من بياناتها الافتتاحية والختامية، شرط أن يسبيها بصبيانها، متعادلان، ثم يلعبان معاً ويربحان معاً.

تريد واحداً يجردها من ملابسها دون عجلة، واحداً يقطع أنفاسها دون أن تتقطع أنفاسه.

الرجل البارع يعرف من طريقته في فك الأزرار، من حيلته في دس أصابعه، ليعلم الجلد الدرس الأول في النطق بعد التأتأة، رائحة الأنفاس وسخونتها حين ترتطم بعتبة الجسد، المشدات، يعرف كيف يفك المشدات ببراعة زنديق، يعرف لماذا خلق الله السرة، ويعلم كيف يسفح النبيذ منها ليلة الأحد، ويوقن أن فعل الحب يستطيع وحده أن يسقط الإمبراطوريات حين تعجز الجيوش.

تعرف بحاستها السابعة، حاسة العاهرة العاشقة أنه الوحيد الذي يستطيع أن يجعد لها ملاءاتها، وسطها وأطرافها وأركانها في ليلة واحدة، ولن يستطيع

أمهر كواء في المغرب العربي أن يعيدها لحالتها الأولى قبل يوم بليلته من العناء والاستمتاع.

وأنه في النهاية الوحيد الذي سيجعلها تعلن اعتزالها وتترك الملعب دون دموع في قلبها أو حدقتي عينيها.

باربي، جميلة ساحرة وساقطة.

- متى سنلعب معاً يا شهريار ؟

يخفض رأسه :

- بخير يا أختي العزيزة، لا بأس.

ويفر سريعاً.

تعرف من "أخته العزيزة" أنه لا يود النزول إلى الملعب.

- لك وحدك.

تعاود الكرة مرات، لا تجد كلمة سواها، مازال متمنعاً لكنها لا تيأس ولن تيأس، مائة فتى ومقهيان في جعبتها وهدف نظيف دائماً ينتظرها.

تقرر أن تكمل اللعبة، تكتب حكايتها وحكايات الآخرين في المقهى على راحتها وعلى حريتها، تودع الفروخ الصغار وتنتظره كما يليق بحواء جديدة.

تخرج اليوم وحيدة، كانت تطمع في أن تخلع شهريار عن عرشه وتهديه عرشاً آخر، وشهيتها وشهوتها غائبتان دونه.

جهاز الكمبيوتر تحت إبطها، تلمح مهدي المسيحي الأوحد في المدينة والمقهى تقريباً متنمراً خلف الباب بعضلاته نصف المفتولة، هو الوحيد الذي حاولت معه من قبل ولم يسمع بيانها الافتتاحي، في الحقيقة لم يرفضها،

لكنه لا يقترب من البنات، مدووش، دماغة في دنيا ثانية، لعله الوحيد الذي اقتنعت ذات لحظة من قبل أنه بيأسه المرير من العالم قادر على أن يشطرها إلى نصفين سعيدين.

جائع لكل شيء وهي تريد جائعاً يأكل بنهم ولا يشبع ثم يأكلها على مهله.

تقترب منه، تبدأ عملية الإحماء، ذراعاها البضتان على حافة الطاولة تحاوطانه، ونهداها الشريفان على حافة الانفجار في وجهه.

- متى تطير معي يا مهدي ؟

- أريد أن أطير لأمريكا.

- أنا أمريكا، حبيبتك أمريكا.

- أنت صحفية وتعرفين كل شيء، أريد أن أذهب لأمريكا وأعمل في المارينز.

- أنا أمريكا، وأنت المارينز، خذني وكن بطلي كما أبطال أمريكا في التليفزيون.

ينفخ، يكاد صبره ينفد.

- لو جئت معي ستسلم يا مهدي.

- لن أفعل إلا إذا أتى المسيح وأخبرني.

- لو نمت معي ستسلم وتنسى المسيح.

- خائف أن أرتد.

- ليتك ترتد.

- ....

- عليك أن تختار بين المسيح وجسدي.

- المسيح.. المسيح.

- تعال معي، ربما تجده في حضني.

النار تصعد من جوفه، والقنابل تكاد تنفجر في وجهه، غارة كاملة منحنية فوق طاولة.

- بعدها لن تفرق معك الديانة، قد تفرق معك أشياء أخرى.

- المسيح هو الحب والحنان وسيأتي سيأتي.

- المسيح عندي.

- عندي أنا.

تمسح شفتها العليا بطرف لسانها، ثم تنفجر ضحكاً :

- أريد أن أرى مسيحك.

يدخل في بعضه، تكتب رقم هاتفها على ورقة تضعها أمامه، وقبل أن تمضي تمس وجنته بلطف، تمسحها :

- رقم حبيبتك أمريكا.

يتجه من فوره بالورقة ليضعها أمام شهريار.

شهريار جالس في مقعده يقلب أرقام هاتفه، ليس هناك اسم واحد مكتوب فيه، كلهن أرقام، يعرف كل واحدة - سبحان الله - من رقمها بمجرد النظر الى نصفه الخلفي ،لم يخطيء مرة.

أرقام المدينة كلها عنده، الرقم الوحيد غير المدون هو رقم الملكة كليوباترا.

مستغرقاً في تفاصيل رعيته، فوجىء بصديق قديم له يلعب معه الورق أحياناً حين لا يلعب ألعاباً أخرى، يدخل متأبطاً ذراع فتاة ، وبعد ترحيب ورأس منخفض، أخذ شهريار على انفراد بعيداً عنها :

- هل تعرفها ؟

وشهريار يرد قاطعاً :

- هذه ! لا.

- تمعن جيداً، أنت ماركة بنات ولا تفوتك واحدة في قارة إفريقيا.

- من أين هذه البضاعة الفاخرة ؟ وأين كانت غائبة عني ؟

يرد وهو يلتقط أنفاسه :

- واحدة وقعتُ في غرامها، وأريد أن أتزوجها.

بصوت عالٍ كأنه فوجىء أو أصيب بخيبة أمل :

- يا رجل !

- أحببت قبل أن أطلب يدها أن أدخل البيت من بابه، أن أمر عليك لأتأكد أنك لم تنم معها من قبل .

باب الوجع

مثل كائن فضائي يدخل إلى المقهى، لا أحد يعرف متى يأتي ولا متى ينسحب، كأنه يهبط بمظلة، بصحن طائر فوق سطح المقهى، ثم يتسلل كنقطة ضوء خاطفة من إحدى نوافذ القباب المعشقة بزجاج فائر الألوان، والتي تنتصب في سقف المقهى بأضلاعها الثلاثة المقوسة على هيئة شطرة بطيخ ناضجة، ينسرب عبرها نور النهار، يتشربها عاكساً ظلال ألوانها بكسل واضح على الجدران والطاولات.

في الليل يحدث العكس، تلطمها الأضواء، تختلط بها ثم تعود سريعة مرتعشة لتداهم المكان كله بحضورها.

المعماري الذي وضع بصمته فيه كان عاشقاً بالتأكيد، يقولون نحته على هذا النحو ليعيش شاهداً على أصابعه وعلى روحه التي خلط فيها الألوان والجدرن ثم سكبها، كان رجلاً غريباً صامتاً بذقن خشنة حمراء، و بعينين ناعستين.

ككائن فضائي يدخل، برأس قلق يعسّ في كل اتجاه، كأنه يفتش عن أمر ما ينتظره ، متأنق في غير إفراط، بدلة رمادية دائماً، رمادية ومنديل أبدي منغرس في جيب جاكتته، يهبط على المكان، يمر بمحاذاة إخوته الفلسطينيين، كائنات أرضية انكمشت على بعضها في طاولة واحدة جنب الطاولة المبجلة لنعيمة المقدسة، يحيي سريعاً ، وكطلقة حارة يتجه إلى طاولة تقع خلفهم بقليل ، لا يتوقف إلا إذا رأى أبوشندي، يخصه بنظرة إكبار وسلام حار، بأسنان منفرجة ثم يمضي.

فلسطينيون تماماً، أقحاح، بعيون ذابلة، ليس في وجوههم نقطة ماء، لا يعرفون على وجه الدقة، لماذا جاءوا إلى هنا لماذا هم هنا، وحتى إن عرفوا لا يجدون سبباً وجيهاً أو نصف وجيه، ربما لديهم سبب يتيم لبقائهم هنا، الجهات الأصلية مغلقة والجهات الاحتياطية موصدة، الشواطىء التي نزلوا عليها نبتت عليها أحجار كبيرة، يدورون داخل حلقة مفرغة، محبوسون، لا يعرفون ماذا يحدث في الخارج، وإن استطالت أذانهم، قد لا يعونه، وربما لأنهم يعونه جيداً أصابهم البكم والهم، يبدون كبلهاء مسحوقين مستسلمين لقدرهم، لديهم وقت فائض يكفي لأن تكتب رواية كل شهر، يبحثون عن حكايات يدفنون فيها حكاياتهم أويقتلونها.

وجوه ملطخة بالحيرة، بملابس قديمة اقتنصوها من سوق الملابس المستعملة، وأبوشندي يقول : ملابس تشبهنا، تشبه أحلامنا بالتمام والكمال، نعيش بها وقد نموت فيها.

طاولتهم دائماً ناقصة، واحد يخرج ليشتري الخضار، وواحد ليحضر ابنته من المدرسة، وآخر يحصي الوقت في ساعة ميتة، ولا ضوء إلا أضواء المقهى الخافتة التي تتحرك كعادتها القديمة على وجوههم العتيقة اليابسة، بطيئة مملة كحياتهم تماماً.

وحده يأتي، وحده يجلس، وحده يحكي وحده، كأنه شبح جديد .

بوجه قلق يفتح حقيبته، يقلب أوراقاً ويبدأ في الكتابة ، لا أحد يعرف بالضبط ماذا يكتب، يقولون إنه يدون مذكراته عن الثورة الفلسطينية، عن الفترة التي عاشها في العراق.

أبوجعفر، اسمه الحقيقي والحركي، ابنه اسمه جعفر، مناضل قديم في الثورة، من الفلسطينين الذين قضوا عمرهم في العراق وربطوا الخيوط – بين القيادتين – هنا وهناك.

ربطها بصعوبة في الفترات المتقلبة هنا وهناك وما أكثرها، لكنه أحكمها جيداً حين قبض صدام حسين على السلطة.

الرقص الناعم يحتاج إلى عاشقين، الرقص الحار يحتاج مجنونين، في السياسة لا بد له من داهيتين، أو داهية ومجنون على أقل تقدير.

مناضل، قل راقص، من الطراز الرفيع وبدون ميكروفونات ، دخل حزب البعث من الباب الكبير، المرحلة تاريخية، كلاهما يحتاج الآخر، كل واحد يريد أن يسيطر على الآخر، يأخذه في اتجاهه، يركبه فقط.

البعث يناسبه، على مقاس أحلامه تماماً، رسالة واحدة، أمة واحدة، تحرير الأرض من العدو والخونة، كلام كبير، فقط هناك تفصيلة يدركها لكنه لا يحكي عنها لأحد : إن العدو ليس واحداً دائماً.

دخل وزرع قدميه، رقص في كل الفصول، حافظ على الخيط الرفيع، شده إن أرخوه وأرخاه إن شدوه، وبين سنة وضحاها أصبح الرقم الصعب في العلاقة بين الاثنين .

مناضل بجناحين، كان على موعد مع المرحلة الذهبية، يقولون إن علاقته بصدام أكسبته القوة وأعطته البوصلة، وصار ذا باع طويل في بلاد الرافدين.

تحت الجناحين برم الدنيا من بوخارست إلى بون إلى براغ، أماكن النضال ومسرح العمليات، واستطاع التوفيق بين جميع الحبال، طموحات الثورة وأهداف الآخرين.

لم يكن عميلاً مزدوجاً، كان عميلاً– إن شئت الدقة – لحلمه بوطن واحد كبير.

رجل مخابرات من طراز رفيع – يقول أبو شندي – حصل على الدعم من كل الدول التي حط فيها، ملأ جيوب الثورة وأوجد لها في كل مكان – دخل إليه – من يقف معها، نسق العمليات القذرة والنظيفة معاً، حارب العملاء وأشار عليهم بالواحد.

لكن التاريخ قلّاب وبدّال كقلب ساقية البار، له سبعة أوجه ومائة قناع،.. أُحتل العراق وسقط قائد النشامى صدام.. يقول ويضرب الطاولة بقبضة يده تكاد تطير.

حذار أن يحدثك وتلهو عنه، أو تبتعد عن مرمى حكايته، في النصف الثاني للخمسينيات بعينين غريبتين، كل واحدة تنظر في اتجاه ، واحدة لأقصى اليمين والأخرى لأقصى اليسار، لا تنظران للأمام معاً، كأنه كان ضرورياً أن يخلق هكذا ليعرف أين يضع قدمه ولينظر بسبع عيون.

عيون وملامح وجسد أقرب إلى جان بول سارتر إن كنت قد رأيت الأخير في الصور، يمكن لك أن تبحث عنها لتتأكد بنفسك.

يلتفت ناحية أبو شندي وبوجه متغضن بالحسرة يقول : الأمة العربية كلها – ما عدا الرفيق صدام– اشتغلت على الثورة الفلسطينية، ورقة التوت التي غطوا بها عوراتهم، ناضلوا بها كذباً ونافحوا عنها بهتاناً .

يصمت كدهر ثم ينطق كلحظة :

– كسبوا بها وخسرنا نحن.

وأبوشندي آخر واحد في الكون يحتاج هذ الكلام، وأبو جعفر متأكد من أنه يبشِّر مؤمناً، لكنه يحتاج لواحد حقيقي يبثه بياناته وحكاياته.

اللحظة الفاصلة في حياته كانت لحظة سقوط العراق في يد الاحتلال، سقط معه، محا الغزاة تاريخه في أيام، قتلوا كل أحلامه وتركوها دون قبر، كل ما عاش من أجله رآه يتبخر أمام ناظريه.

كان عليه أن يخرج سريعاً حتى لا يقتل كدابة حقيرة، كانوا يقتلون الفلسطينيين أولاً ثم يفكرون بالباقي ، لم يعرف أين ولده ولا زوجته ولا استطاع البحث عنهما، على ظهره حمل جثه ماضيه، وكصاروخ طائش بحث عن أقرب سهم صدىء على لافتة متآكلة يشير إليه ببوابة الخروج.

حزم حقائبه ونفد بجلده، للأمانة كان بلا حقائب، واحدة فقط كانت تحمل ذهوله وبعض فتات تاريخه، أدويته وأوراق الثورات والانقلابات التي عايشها وشارك فيها.

لم يأت إلى هنا على مراكب المطرودين من بيروت، ولا حط كطيور النورس باحثاً عن دفء أو مأوى ، كان مطروداً وحده.

حط هارباً في لحظة لم تخطر على بال رسام أو مؤرخ، يقولون إنه مشى أياماً حتى وصل الأردن، لا يعي ماذا حدث بالضبط، الذين رأوه في اليوم الأول قالوا إنهم شاهدوا رجلاً يمشي بدون رأس، بحقيبة واحدة على ظهره، الذين رأوه في اليوم الثاني قالوا إنهم شاهدوا رأساً على الارض يتدحرج بسرعة وحده باحثاً عن جسده، بشارة موت معلقة في أذنه اليسرى.

آخرون قالوا إنه كان يطير في الهواء وينبح.. ينبح بلا توقف ككلاب الجحيم.

- أمريكا احتلتني وحدي، حبستني وحدي.

عندما جاء إلى هنا، لم يجد أحداً في استقباله ، كان يعتقد أنه سوف يعامل معاملة الفاتحين، وسيجد جماهير الثورة في انتظاره ليعاود مسيرة النضال من جديد، وأن السجاد الأحمر سيترنح تحت قدميه، لم يجد أحمر ولا أسود، وجد بقايا بشر بدون

أظافر، يلهثون وراء لقمة يومهم، يحلمون- بيأس وافر- بأي بلد يقبل أن يرحلوا إليه ولو في جزر الكاريبي، أو عن جواز سفر بأي اسم كان.

فلسطينيون كأوتاد مخلوعة من أرض حرقت ونفق أصحابها، يعيشون تحت رحمة تجديد الاقامة السنوية لهم ولعائلاتهم، لا يضمنون سنة جديدة، يحصلون عليها بعد أن تطلع أرواحهم، بعد أن تكون السنة قد قاربت على الانتهاء، قبل نهايتها بشهرين أو ثلاثة، ليحملوا الصخرة من جديد، يصعدون الأيام بها والجبل ، ولا يعرفون حتى حدوداً يلجئون اليها، يحتمون ليلاً بأسلاكها الشائكة.

الذين رحلوا رحلوا، تبخروا كالأقراص الفوارة، والبقايا أطلال ثوار يناضلون باليأس، يفتشون بالكاد عن موضوع باهت يقتلون به نهارهم.

أبو جعفر المنصور، كما كانوا يسمونه، حامي حمى الثورة في العراق- وجد نفسه في لحظة واحدة أبو جعفر المهزوم، ضاع العراق الذي كان يلعب فيه دور البطل الثاني، البطولة الأولى محجوزة، ضاع الكفاح الذي كان يقوم فيه بدور الحارس الأول، والأرض التي وطئها آخر ما تحتاجه مناضلون ولو بالحناجر.

.. الناس هنا تناضل في كرة القدم وفي عجيزات النساء، في لقمة العيش وتفكر بشره شديد في النقود يا أبا جعفر.

ولا أحد يملك أذناً ثالثة ليسمعك.

أوراقه أمامه، عمره على الطاولة، بالكاد طاولة واحدة، لكنه يحاول أن يقاوم، مازال فيه نفس، ويعتقد أنه يستطيع أن يشد التاريخ من ذيله.

يبحث عن وجه آخر للحكاية، يسترجع عمره هناك، عزه وعز العراق، بوجه مضيء بعينين طبيعيتين هذه المرة، يلوح بقوة كأنه يخطب في هذه اللحظة ويحتاج فقط ميكروفوناً .

- العراقيون تقدموا بجسارة في المعركة التي دارت رحاها في مطار بغداد، والأمريكان شعروا ببداية الهزيمة التي كانت ستمرغ شرفهم في الوحل، وستشعل نار المقاومة حتى تحرقهم، أولاد الكلب الأمريكان رموا بقنابل أذابت البشر والحجر معاً.

ينادي بصوت عال على أبوشندي المسافر في دنيا بعيدة :

- الأمة انتهت بموت صدام، مات بطلها وصرنا من غير قلب، يحكمها الآن الجواسيس والخونة، وكل شيء ينخر فيها، لا ثورة ولا تنظيمات ولا غيره.

كأنه صاحب القضية وحده، ولا جماهير خلفه، يمسك برأسه ليمنعه من السقوط.

يصرخ :

- لم يعد هناك سوى تنظيم (حبف).

وأبو شندي الماكر ينتبه، يبتسم بسخرية :

- حبف !!!

نعم حبف، الخونة يأخذون الواحد، يضعونه في برميل اسمه حبف، أي حركة بيع فلسطين بالأحرف الأولى، فيخرج منها خائناً وعميلاً كما ولدته أمه، مغسولاً من ذنوب النضال.

أوراقه مفرودة أمامه يعيش داخلها، في اللحظة ذاتها التي خط كل حرف فيها، العراق في دمه، يسكنه حتى النخاع، مازال حتى الآن يحكي باللهجة العراقية وسط الفلسطينيين والتوانسة، لا ينسى ولا يخطيء، مفرداته عتيقة ربما نسيها أهل العراق أنفسهم أو غيَّروها.

أدويته أيضاً من العراق، أحضر منها ما استطاع ، انتهت مدة صلاحيتها، لكنه مازال مصراً عليها ، لا ينظر إلى تاريخ انتهائها مهما نبهه أحدهم، لا يطالعها، مستمرة المفعول ولن تنتهي.. يقول بصدق واضح إنه لا يبرأ إلا بها.

يلتفت ناحية نعيمة :

- أريد أن أحشي معك.

رنة ضحكتها تفيض على المقهى والمقاهي المجاورة، تفاجئه :

- وهل تستطيع أن تحشو يا أبا جعفر!!

- أقصد أنني أريد أن أحكي معك.

- لا لا، أنا أريد فعلاً أن أحشي معك.

وتكمل ضحكتها.

تقترب منه، وبصوت بين السؤال واليقين : لم يمت صدام يا أباجعفر، أليس كذلك ؟

ينتفض من مقعده، يكاد يصل للسقف :

- صدام لن يموت، إنه قلب الأمة.

ثم يعود.

مازال يعيش في اللحظة نفسها، مدفوناً فيها، تشرنق بها، انحبس فيها وأقفل على نفسه، أو أقفلت عليه بخيوطها المتينة.

والخيوط تقطعت، لا أحد يمد له خبراً، ولا رسالة تبل الريق، فقط صحيفة الشروق تمد له خيط أمل كل صباح، عنوانها الرئيسي كل يوم : المقاومة تدك الغزاة في العراق. بالبنط العريض واللون الأحمرالقاني، يفردها أمامه في منتصف الطاولة تماماً، كي يستطيع أن يراها من أية زاوية بإحدى عينيه.

المقاتل لا ييأس، حتى ولو حضر أمامه عزرائيل بكامل عدته، يضعها أمامه ويكتب، ترفع له معنوياته وتضعه وجهاً لوجه أمام الأخبار التي يصدقها أو يحلم بها.

يكتب، يغرق تماماً في الحبر حتى يكمل نصف نهاره أو يزيد، يضع خططاً للتحرير والمقاومة، يفكر في الطرق التي سيوصلها عبرها للمقاتلين ، يكتب عليها بخط رفيع : سري للغاية، لا يطلع عليها أحداً سوى أبوشندي في أوقات نادرة.

وأبوشندي يوافقه في العناوين، وحين يدخل في التفاصيل يقاطعه ويغمز له أو يهرب به إلى مواضيع أخرى، دماغه في دنيا ثانية :

- الجماعة مرشوقون في كل زاوية ولهم مائة أذن في المقهى، كن حريصاً.

يحلم، يصدق أنه سيعود للعراق مرة أخرى، ليقود المقاومة على طريقته، يعبىء الدنيا كما فعل من قبل، ويحطم المشروع الأمريكي في المنطقة.

لا أحد يستمع له سوى نعيمة، كل واحد بالكاد يملك أذناً واحدة يسمع بها حكايات للتسلية.

علامات القنوط تحاول أن تتسرب إلى روحه يوماً بعد يوم، لكنه يواجهها، يخاف أن يضبط نفسه مسكوناً بهذا الإحساس، يحاول أن يقتله.

لكن الرياح هذه الأيام ساخنة مغبرة، الأنباء الواردة من الخارج شحيحة لكنها مفزعة، في اليوم الأول قال : نصف عائلتي ماتوا، العراقيون الجدد قتلوهم لأن الفلسطينيين كانوا من حزب صدام، نحن الذين نمنا معهم في الخنادق ودافعنا نيابة عنهم عن آخر حبة رمل.

في اليوم الثاني مات معظمهم، وفي الثالث الأخبار مشوشة، البعض دخل إلى المكسيك، وأنا أرسلت لهم أن يتوجهوا إلى فنزويلا حيث الرفيق شافيز هناك على أقل تقدير.

فورة دم تصعد إلى وجهه تغير لونه المخطوف، لم تدم سوى يوم واحد، في الأيام التالية لا يعرف أين جعفر.

بوجه ممصوص مائل إلى الصفرة وساقين مرتبكتين يأتي، لم يعد يهبط من نوافذ القباب، كأنه اكتشف في آخر الليل أن الأحلام سراب، وأن النضال تسرب بين يوم وليلة وذاب عسله في ملوحة حزنه.

فجاة غاب، لم يعد يراه أحد، ونعيمة تسأل عنه بشغف وإلحاح، عندما عاد قال إنه دخل المستشفى، وجدوا عنده المرارة وضغط الدم والبروستاتا وحصوات كثيرة.

هدأت نبرة النضال عنده، تكاد تختفي إلا من لمعة في عينيه حين يرى عناوين الصحيفة : المقاومة تلقن العدو درساً. وعلت نبرة الشكوى والمرض.

عندما تراه قادماً من بعيد وحيداً كالعادة، يبدو كشخص عادي منتصب في كآبة وجدية مفضوحة، زعيم يتلفت باحثاً عن شعبه، يرمي السلام عندما يقترب من طاولة الفلسطينيين على غير العادة..... المصران، القولون..

تبدلت الحالة، كل شهر يدخل المستشفى أسبوعاً، تنتقل الطاولة بكاملها الى هناك، وعندما يعود يجلس ويحكي، تهرشه دودة المقاومة في الأسابيع التالية ، يقول : قلب الامة توقف، الأمة راحت بموت الشهيد .

أعجبته حكاية المرض وجد فيها من يهتم به ويسأل عنه، تليفونه يظل صامتاً بالأيام دون رنين، اكتشف أن المرض يستعطف الآخرين، جاء له على مراده، وهو انحرف بسرعة يريد أن يستعطف طوب الأرض.

فجأة يقول لأحدهم : خذني الى المستشفى حالاً، سأموت بعد نصف ساعة.. خليك جنبي واسأل عليَّ دائماً، ممكن أموت في أية لحظة.

وأبوشندي بنظرة يكاد يلومه.

– لا أحد يسأل عني يا أبوشندي، أكلم الحيطان والأشباح طول الليل، أشباح من العراق وفنزويلا والمكسيك.

وأبوشندي يتجاوز بقناعة عن ألعابه :

– في الأخير هو مناضل كبير أعطى الثورة كل عمره، أدى دوره بامتياز لكنه غير مقتنع أن اللحظة تغيرت، معذور، أنا أكثر واحد يعذره .

يلتفت إليه باسماً :

– لا بد أن توضع في متحف يا أبا جعفر، أنت الشاهد الحي على ما جرى لنا.

ثم يصمت ويكمل الجملة داخله :

أنت أكبر دليل على الهزيمة.

يرد عليه بصوت هامس متردد، كأنه يخشى شيئاً :

– لقد أجريت أربع عمليات جراحية في ظرف سنتين، وفي النهاية اكتشفوا أنني لم أكن مريضاً بأي شيء.

يهز رأسه، هو الوحيد الواثق أنه غير مريض، لكنه مضروب بأوهام وكوابيس يحلمها بعينين متباعدتين، والكآبة بدأت تزحف لتغطي وجهه وملابسه.

رويداً يبدأ في التخلي عن وحدته ، يحاول أن يخلع قميصها ويختلط بالآخرين، يندس فيهم، لم يترك نضاله لم يسلم أوراق كفاحه الطويل بعد، لكنه يحاول أن يدخل في الجو دون أن يذوب فيه تماماً.

عندما حضر في البداية لم يكن مشغولاً ببائعات الهوى، لم يكن يحادثهن ولو عابراً، كان يعتبرهن غير موجودات كأنه لا يراهن، شيئاً فشيئاً تبدل الطقس، وراح يلتقط خيطاً من هنا وينسج خيطاً هناك، يدفع لهن أحياناً ثمن القهوة، وبأريحية واضحة يعطي هذه خمسة دينارات، وتلك عشرة، ويقدم بطاقة شحن هاتف هدية لثالثة.

الرجل الذي شارف الستين والذي قصمت الهزيمة ظهره وجد من تذهب معه لبيته لتعطية حقنة أويجرب هو أن يعطيها لها، ظهره يؤلمه ويحتاج لمن يدلكه، أو يدلك له المرض والهزيمة معاً.

والبروستاتا تؤلمه.

التف حولهن، التففن حوله، وحلت البركة، يوماً بعد يوم صار عنده جيش صغير منهن، قافلة مسلحة، وهو كأنه سعيد، كأنه يعوض جيشه الذي كان معه.

مرة استغرب أن التي ذهبت معه كانت جميلة جداً وعندها سيارة، بعد أن قضى ربع وطره عرف أنها مدرسة وتحصل على ألف دينار شهرياً :

– لماذا ؟

- صاحبتي اشترت سيارة أكبر من سيارتي، وأنا أريد أن أشتري واحدة مثلها أو أكبر.

- وأنت ماذا تعمل !!

لم يعد يسأل.

فقط يبحث عن خياط يضيق له بذلاته الرمادية تقريباً.

.. واحد آخر لا تعرفه دخل معك في جسدك يا أبا جعفر، واحد كل ما تعرفه عنه أنه نحيل، والذي تعرفه لا يعرف أين موضع روحه، ربما تبخرت أو رحلت تبحث عن أرواح تشبهها.

المناضل الصلد صاحب العينين الغريبتين المتباعدتين أصبح بكاءً لكن نبتت له فضيلة جديدة، يحب بائعات الهوى :

- عائلتي تشتت، إخوتي قُتلوا، أولاد أختي، لا أعرف أين جعفر، هل هو حي أم ميت،.. آه يا معدتي.

الشهور تمر، لا شيء يلوح في الأفق، لا خبر يروي عطش الروح ويطفىء دوامة القلق القاتل، يكاد يجن، لا شيء سوى العناوين المتكررة الحمراء :

المقاومة تدك، والمقاومة راحت تدك بعضها بعضاً في كل مكان.

كل شيء باطل يا أبا جعفر، الخيوط انحلت، وبريجينيف لا يلوح في الأفق، انقطعت رائحته كأنه فص ملح وذاب.

آخر واحد في الكون تنتظره هو بريجينيف يا أبا جعفر، أنت على عكس أبوشندي تعرف أنه لن يأتي.

بصوت خشن مبحوح من شتم الخونة، متعب من محاولات فاشلة لمضاجعة العاهرات يكلم نفسه وحده.

ينتبه لجملة عراقية قادمة ، لوهلة يكاد يطير من على الأرض غير مصدق، يراها قادمة من طاولة قريبة، يتسمع، يقترب ليكون على مقربة أكثر، الأول يحكي بسعادة وحرارة للثاني المترقب بفم مفتوح :

- صدام هو الذي قاد معركة المطار بنفسه.

يقترب بأذنه أكثر فأكثر.

- السيد الرئيس اكتشف أن الصاروخ الذي يتم إطلاقه ينحرف فجأة بعد أن كاد يقترب من جسم الدبابة ليفجرها، فجأة يتغير اتجاهه وينفجر في مكان آخر.

- السيد القائد فهم اللعبة وحده من دون القادة، عرف أن هناك جهازاً في الدبابة يحول اتجاه الصاروخ عندما يقترب من الهدف، بسرعة أمر بشريط لاصق.

- شريط لحام ؟

- آي نعم، لفه على رأس الصاروخ المدبب حتى غطاه تماماً، ثم أطلق الصاروخ بنفسه فأصاب الدبابة التي انفجرت في الحال.

وجهه يتسع من الدهشة :

- صاروخ وراء صاروخ.

وأبوجعفر يمسك نفسه عن أن يطبق في زمارتي رقبتيهما، يقول في نفسه : يا أولاد البهائم.

– الضباط والجنود هتفوا بحياته، ثم غطوا كل الصواريخ بشرائط لاصقة أطلقها وحده، وبهذا انتصرنا بفضل حنكته وحكمته في معركة المطار.

وأبوجعفر بوجه يكاد الأسى يقصمه نصفين، وابتسامة بائسة : يا أولاد الكلب.

كل ما فعله في حياته يراه يتجمع في حكاية هزيلة، يتبخر أمامه في شريط لاصق يغطي أيامه وحياته كاملة، شريط يمنعه أن يصيب هدفه.

يحول وجهته مكفهراً، تفاجئه مؤخرة نعيمة التي تقطع الحكاية بمشيتها اللعوب في طريقها إلى الحمام، لا يكف عن متابعتها وهو يتجه نحوهما، يقول بصوت غير مبحوح هذه المرة :

– لو سمحتم لي، هو الصاروخ دخل في أي مكان بالضبط ؟

باب الجسد

- أنا لا أريد غير الجسد.

يقول لك بصوت حازم، بنبرة قاطعة وضحكة هازئة.

- لا أطمع في غيره من هذه البلاد الجميلة ، والحمد لله، أريد من الجميع أن يتركوني في حالي، أعب من الدنيا ما فاتني وما تبقى لي، وهو كثير بإذن الله.

صوت ضحكته يعلو، وملامحه ترتاح على وجهه.

لا أحتاج نضالاً ولا مقاومة، شبعتُ، حتى هي شبعت مني وضجرت، أريد فقط القنابل والمخابىء والمرتفعات، وأنا عندي الصواريخ والمدافع.

- قنابل حديد لا، قنابل من لحم ودم، رمان.. رمان.

بالطبع لن يكمل جملته، صوته غاب وسط غابة من القهقهات، ووجهه يحمر .

إن كنت من رواد المقهى فستتأكد بنفسك أن الابتسامة لا تحط على الوجوه الرابضة على طاولة الفلسطينيين إلا عند حضوره، وأن الضحكات المنفلتة ودق الطاولة بقبضات الأيدي كأنك في غرزة للمبتدئين في شرب الحشيش - لا تصعد إلا في وجوده .

يعبر أمامك بوجه يضج بالحياة، كأنها في يده الآن، بين قبضتيه، كأنه عاشها بالطول والعرض، وجاء فقط إلى المقهى ليوزعها على الموجودين، بعد أن قبض الثمن الذي كان يحلم به سعيداً راضياً.

- شبع مني النضال وارتوى، مع أني لم أشبع منه.

وبملامح قاطعة:

- في أي شيء يمكن أن تناضل الآن ؟ في الوطن ؟ أي وطن !!

لقد تغير طعمه بعد مائة اتفاق رديء، بين أرجل جماعتنا وتحت أقدامهم، نظرهم قصير جداً، لكن لا تلُمهم، الأيدي قصيرة أيضاً، والأيدي الطويلة التي تعبث في

مؤخراتهم لا حصر لها، وكفى الوطن أن يبقى في توهة الحلم إلى أن يستيقظ الأخير من سباته.

يصمت وبملامح كالحجر :

– دعنا من هذا الحديث الرديء.

يبلع ملامحه، يبتسم بزاوية من وجهه، وبعينين عابثتين كأنه يلقي البيان الختامي لعصابة مافيا متعبة : اسمع، ليس هناك غير الجسد لنناضل فيه، لم يعد لدينا غيره، هو الذي يستحق.

تعلو كركرته ويطرق كفك بكفه، يمد سبابة حازمة متراقصة :

– ولا أريد لأحد، أي أحد أن ينغص عليَّ كفاحي فيه.

شادي. بالطبع لن تعرف إن كان اسمه الحقيقي أو واحداً من أسمائة العديدة التي التصقت به، وتبدلت أسرع من تبديل ملابسه، طوال مدة نضاله في الثورة الفلسطينية متنقلاً بين المنافي بعشرات جوازات السفر.

يميل عليك بمسحة ساخرة تطوف وجهه :

– أجمل شيء في الأسماء والباسبورات المتغيرة، أن الملائكة سوف تحتار في رصد كشوف ذنوبي ، ستتوزع على الأسماء ويخف الحمْل.

شادي إذاً، اسم قد لا يليق بالثورة مثل جهاد ونضال وجيفارا وأبوجهاد، وأبو نضال – أعوذ بالله – اسم يليق بالحب، اسم عاشق، ربما يليق بالضياع كما غنته

المطربة فيروز، بشعر رمادي وافر يطلع من مفرق جبهته، لامع كثيف كشعر الباكستانيين والهنود مع تبدل اللون، ينهمر بالحيوية رغم سنواته التي دخلت منتصف الخمسينيات، بوجه أقرب للمطربين اللبنانيين في وسامته.

– البعض يعتقد أنني المطرب اللبناني وائل كفوري، ساعات أفكر أن أنتحل شخصيته لولا أن اسم وائل لا يعجبني لا يناسبني، أحياناً كنت أجاري الموضوع لأحصل على البنات، لكن العملية مكلفة مادياً.

سوري شاب، يكتب الشعر ويحلم بالصحافة، مثله مئات، سوريا أرض خصبة للأول ولبنان للاثنين، والحدود مفتوحة مهترئة.

حلم بأن ينهي دراسته ويعبر، لكن هزيمة 67 المنكرة –على حد تعبيره –داست على الحلم، فرمته، نامت على البنايات والشوارع، على أعمدة الكهرباء الخافتة، باللون الأزرق الكالح الكابي الذي غطى الزجاج، على وجوه العابرين والمقيمين، ودخلت الحرية السجن لحين تحرير الأرض.

قرر أن يعبر إلى لبنان خلف حريته، يقاتل مع الثورة الفلسطينية التي تمترست هناك إلى أن أصبحت جمهورية الفكهاني، حيث شارع الفكهاني الذي استقرت به القيادة.

– الجماعة عندنا يناضلون بالكلام، وأنا أريد أن أقاتل بحرية.

هرشته دودة النضال، طلعت في رأسه، هرشها وعبر.

لم أترك شيئاً خلفي سوى دموع أمي الغاضبة الفرحانة المالحة المسكرة العذبة، تركت خلفي بنت الجيران التي كانت تضفر شعرها بقصائدي، تزرعها بين طياتها تحية من معشوقة لعاشق، لذا كنت أبدل لها لون الورق، كل الألوان، أحياناً أكتب على الورد، فيما بعد تبدلت أسمائي بعدد قصائدي.

كبرت في المنظمة تحت القذائف والأغاني، الشعارات والأشعار، والمؤامرات، عملت صحفياً مقاتلاً تحت رايتها، في قلبها، وكل مقال ومقال، وكل طلقة وطلقة.

نمت في حضن المقاتلين وهم أحياء، رأيت أرواحهم تطير أمامي، حملتهم ودفنتهم وأبقيت عيونهم مفتوحة جهة الوطن، وأغمضت عينيَّ ودفنت دمعتي في ثيابهم.

بوجه رائق متصالح تماماً مع تجاعيده :

– عبوري من سوريا إلى المقاومة لبنان لم يكن منفى لشبابي أو شهواتي، كان عبوراً حقيقياً إلى الجنة قفزاً، إلى جنة الأحلام الخفيفة، إلى أن طُردنا إلى تونس في الخروج الكبير، مع دخول إسرائيل إلى بيروت، ودخول كل شيء في كل شيء.

عاد مع العائدين، واللعبة تغيرت فجأة، وبدا أن الحلم يبتعد وألوانه تتبدل.

شاعر، مناضل ووسيم، وصفة سحرية للعشق والصيد، صيد من أول يوم، انخفض سقف الروح قليلاً وارتفع مؤشر الجسد.

ارتطم بشاعرة من أول ندوة، اصطادته ونام على وعد بالاستقرار، لم يتذكر ما قاله شاعر حين سئل عن زواج شاعر بشاعرة،أجاب بسرعة : انتحار. مع أنه يعب من كؤوس الشعر والثورة ليل نهار.

- كنت طريدة، جاهزة تماماً لمن يصطادها، متعبة حائرة، لا تعرف إلى أين.

للجسد نداؤه، رحت أتحسسه كأنني أكتشف للمرة الأولى أنه موجود، كأنه كان لواحد غيري، كان يرتخي والأيام ترتخي بمحاذاته، والعمر يهرب منه.

ثلاثة أولاد وثلاثة دواوين، تجربة طويلة امتدت أكثر مما يجب، الخيوط تقطعت، وانخفض سقف التواصل.

سقف النضال انخفض أيضاً، ارتخى كثيراً وسطعت بشائر المفاوضات والمؤامرات.

واعترضتُ.

فجأة تناوشوني ونبشوا أيامي وقلبي، كأنني لست فلسطينياً بما يكفي، أو لم أعد فلسطينياً، شعرت بذلك وبدأت المصادمات والمؤامرات الرخيصة.

نفيت نفسي إلى قبرص، قلت ذلك، لكنهم نفوني بثلاثة أطفال ونقود بالكاد، وامرأة راحت تتململ سريعاً، لم تكن مستعدة لأكثر من شِعر رديء وثورة بنقودها.

تبدلت أسمائي وهوياتي وأسماء أولادي، فقط اسم زوجتي بقي على حاله.

ذهبت وعدت بثلاثة أولاد أمهم طامحة طامعة تريد أن ترى الثورة بالدولارات.

رفضت أن تتحرك من تونس ثانية، وامتدت فروعها وسيقانها في اتجاهات أخرى.

الجميل في الأمر أنها بعد أول خيانة طلبت الطلاق، كانت شجاعة بما يكفي للخروج بأقل الخسائر.

يقطع الدراما بصوت ساخر وضحكة عابثة مرة :

- المشكلة أنني احتجت لجواز سفر باسمي القديم الذي تزوجتها به حتى أطلقها بعد أن تبدلت أسمائي.

بدل جلده، احتفظ بروحه و ملامحه الخام، ومضى، لم يترك لبعد الأولاد عنه أن ينغص عليه حياته، اختار أن يفرحهم ويفرح بهم مهما حدث، وبدلاً من اعتياد المنافي قرر أن يعصر على نفسه سلة ليمون ويبقى هنا ما استطاع، لئلا يضيع الطريق بينه وبينهم.

فكر أن يهرب بهم لسوريا، لكنها مغلقة للتحسينات وعلاقته بها مرتبطة بترمومترعلاقتها بالمنظمة وحرارتها، وهي والحمد لله تعدت الأربعين ، مشتعلة بالمؤمرات والتخوينات الفاخرة.

وتبدلت الحكايات.

ولأن المعتاد أن يفعلها الصغار ويقع فيها الكبار، كاد يقع فيها.

سألت المدرسة التونسية الأطفال في الفصل عما يتمناه كل واحد منهم لنفسه في المستقبل، وما هي الوظيفة التي يفضلها، ابنه الأصغر انسحب من لسانه بجواب حاضر :

- نفسي أطلع رئيس.

- ماذا؟ رئيس !!!

وانقلبت الدنيا.

المدرسة أصابها الخرس ثم قلبت معها بالرعشة والحمى، وأخيراً والحمد لله صرخت، واستدعى الأمر المدير، واستدعى أمن الدولة التي لم تكن في حاجة لمن يستدعيها.

- كيف يتجرأ ابنك ويقول إنه يفكر – مجرد تفكير- أن يصبح رئيساً في المستقبل.

- يا سيدتي..

- من الذي أوحى له بهذه الفكرة ! لا لا، من الذي وضعها في رأسه ؟ من أعطى الإشارة ومنحه الضوء الأخضر وزين له أنها يمكن أن تتحقق ؟

- يا سيدي..

- أنت تعيش بعيداً عنهم، نعرف، لكنك أنت الأب والكبير، لماذا لم تئد الفكرة في مهدها، لقد تعدى الأمر مجرد فكرة إلى الحلم بها، وتصور أنها يمكن أن تتحقق.

ثم كله كوم وأن يكسر الرهبة، أن يصفع الاحترام حتى بكى، ثم يصرح بذلك علناً.

- يا سيدتي.. يا سيدي..

- الخطوط الحمرا، لقد دستم الخطوط الحمرا.

- إنه طفل صغير، يرى في الرئيس الأمل وهو الكبير القادر على فعل كل شيء، إنه يحب الرئيس ويراه الأعلى ، ويريد أن يكون مثله، يقتدي به.

- مثله ! أنت مخطيء مثله، أنت المخطيء الأكبر.

- إنها أحلام طفل، إنها كوابيسه يا سادتي.

لم تنفعه إجاباته، كادت تغرقه.

كاد يقول إن الجميع يعرف أن مكان الرئيس ومقعده محجوزان عندنا للقرن الحادي والعشرين على أقل تقدير، وأننا مسلّمون بذلك وفرحون به، وليس هنالك باعث للخوف من حلم طفل أو كابوسه، وأن ابنه الصغير التافه - سيشدد على لفظ التافه – لم يدرك ذلك بعد، وسيدركه سريعاً قبل انتهاء هذا الشهر وربما هذا الأسبوع، لا لا بل الآن، لكنه تراجع خشية أن يشحنوه من المدرسة إلى أقرب طائرة.

وأنه ربما قصد أن يكون رئيس تحرير أو رئيس وردية في مصنع، وربما رئيس الطباخين في مطعم، أو حتى رئيس عمال، لكنه استدرك أن لفظ رئيس – وبدون ال التعريف – لا تضاف إلى أية وظيفة هنا على الإطلاق، أبداً، مستحيل حتى ولو كان رئيس الخدم.

مطلقته السائحة في دنياها أنقذت الموقف :

- أبوه سوري، ولا يسمح له حسب القانون أن يكون رئيساً من أصله وحتى لو حمل الجنسية التونسية، وحصوله على وظيفه محترمة أصلاً مسألة غير مؤكدة.

- لكنه حلم وفكر، لقد قالها علانية.

- أنا عضوة في الحزب الحاكم، وأدين وأسرتي للسيد الرئيس وعائلته ثم للدولة العظيمه في شخصه العظيم، أحلف بشرفي.

انتهى الموضوع.

كأن طائرة طاحت به، والأقدار ساعدته فنجا وعثر على الصندوق الأسود.

لكن بقي له ذيل صغير.

عندما عادوا سالمين إلى دارهم، كانت خالة الطفل تسب وتصرخ بسبب تأخرها عن العمل في الصباح، وتلعن المدير الحمار الذي خصم لها ربع راتبها.

- كل ذلك بسبب موكب... الرئيس.

والطفل بادرها سباباً بسباب :

- أنت الزفت.

وغضباً بغضب.

- لا تسبيه من بعد، ألا تعرفين أنني سأكون رئيساً في المستقبل ؟

همٌّ يبكي وهم يشرق بالضحك، لولا أنه راح يتحسس جواز سفره ويتفحص إقامته السنوية التي يحصل عليها بطلوع الروح، خشية أن يطرق - قل يكسر - أحدهم بابه في أية لحظة ويرمونه على أول طائرة لنقل الخضار أو البهائم ثم إلى أقرب سوق إفريقي.. إلى المجهول.

السلطة عاقلة أحياناً، لها عيون حمراء وواحدة خضراء، رآهم بأم عينه، رأى والي المنطقة التي يعيش فيها وهو يمر على المحلات، خلفه رجاله يأخذون من كل محل المعلوم مشاركة في حملة ترشيح السيد الرئيس لولاية جديدة، كي يشعر كل مواطن

وكل صاحب محل أنه شارك بالفعل مشاركة شعبية واضحة للعيان، لا بالنية فقط والتصفيق واللافتات.

فكر أن يشارك لكنه تراجع.

نعم عاقلة وحصيفة، حتى مطلقته مثلها تماماً، من الطينة نفسها ، الآن يتنفس الصعداء، لأنها حين خانته لم تفعلها سوى مرة واحدة قبل طلب الطلاق، لأنها نامت معه طيلة هذه المدة دون أن يعرف أنه نام مع مخبر في سرير واحد.

- النوم في حضن الحكومة عشر سنوات مدة كافية والحمد لله لدخول الجنة قذفاً.

لا يعرف هل يضحك بصوت عال حتى يقع، أم يحشر صوته داخله حتى يقع أيضاً، لكنه خائف، ملهاته مأساة ومأساته ملهاة.

تسحبه قدماه كل صباح تقريباً إلى سوق الملابس المستعملة، يقطع كل شوارعها أحياناً دون توقف، تلطشه قصيدة، تلطشه امرأة، محروم من الحريم ، يوماً بعد يوم صادق أحد أصحاب ملابس النساء، يشرب عنده قهوته، يحرص على أن يكون موجوداً في اليوم بل في اللحظة ذاتها التي تفتح فيها بالة جديدة لملابس نصف قديمة أو جديدة بها خطأ بسيط لا تدركه عين، يغيب صاحب المحل لغرض ويتركه يصرف الأمور، البيع مسألة بسيطة.. القطع الجديدة سعرها بين حد أعلى وأدنى والقديمة تسمح بأي ثمن حسب الشطارة شرط ألا تقل عن سعر محدد، وهو يبيع دائماً بالسعر المحدد الأدنى، وبدل أن تفاصل النساء راح هو يفاصلهن ليصنع خيطاً أو حكاية لمسائه.

وامتدت يده، امتدت على القطع، تعجبه واحدة ينتقي لها قطعة يعرضها عليها بضياع شاعر، بضياع رجل صفعته امرأته على مؤخرته : هذا البنطلون يناسبك، هذه البلوزة ستنطق عليك لو أخذْتها، الحزام سيأكل من الوسط قطعة، وحين يمد سوتياناً تنطق عيونه وحدها وتبتسم.

فيما بعد راح يكور يديه في الهواء حين يعرض، ويتأكد من سلامة المقاس.

يقرأ ويكتب، أحياناً يعود مكاتب المنظمة في الصباح يسلم على الكراسي وعلى الحيطان والبائسين، ويأتي للمقهى في المساء بشعره الكثيف اللامع ووسامته وأناقتة البسيطة اللافتة مبتسماً، يغازل البنات من بعيد وساقه تؤلمه :

- لن أدفع لأي امرأة لتنام معي، أدفع لها لأي سبب آخر.

أو سأدفع لها لأنها لا تكذب عليَّ. يصمت قليلاً - أو لأنها تكذب وأنا أعرف.

يربت على كتف أبوشندي، ينظر عميقاً في عينيه، يدير رأسه ناحية أبوجعفر المتخندق خلفه :

- خُدعنا في الثورة، لا يجب أن نُخدع في النساء.

يضحك من قلبه ليمسح كآبة قديمة نائمة على طاولة أبوشندي، ويدفع عنه الكآبة الطازجة القادمة من طاولة أبوجعفر.

غير أنه للحق ليس وحده الذي يحتكر الابتسامة والتفاؤل، هنالك واحد آخر مبتسم جداً، على الآخر، حكايته تماثل حكاية شادي تقريباً، غير أنه نزح للمقاومة

من اتجاه آخر، من مصر، حط مع الحاطين في بيروت ليناصر الثورة الفلسطينية، مثله لم يكمل تعليمه وإن أكمل حلمه بالمقاومة.

اسمه فاروق جعفر، على اسم لاعب الكرة المصري الشهير في السبعينيات، استقر عنده هذا الاسم بعد أسماء كثيرة، ربما ليشير من طرف علني أنه مصري أو للتمويه، رويداً رويداً تبدل اسمه إلى فاروق انجرام لأن اللاعب قام بإعلان شهير عن معجون حلاقة اسمه انجرام، مع الوقت اختفى فاروق أيضاً وبقي انجرام مسبوقاً بتبجيل واضح بلقب السيد.

قاوم في بيروت وأصيب بشظية إسرائيلية في عينه اليمنى في إحدى ليالي الاجتياح، وطرد أيضاً مع المطرودين من بيروت على أيدي ودبابات شارون.

زامله لكنه لم يتململ عند قدوم اتفاقية أوسلو ولا مع اتفاقية أخرى، حيث تكون القيادة يكون هناك قبلها، وحين تذهب ريحها يعبيء ملابسه ويطير معها، وإن لم تسعفه خطته يسعى دائماً ليكون وسيطاً بين الفرقاء، ينقل الكلام هنا وهناك ويقبض من الناحيتين.

أولاده في أمريكا يتعلمون على حساب المنظمة، زوجته فلسطينية ربما أكثر فلسطينية من شادي، حسابه في البنك منتفخ ، وهو المنقذ وسط أوقات الفاقة والعوز يعطي بالدينار ويأخذ بالدولار، أو يأخذ الدولارات بسعر البنك ليبيعها في السوق السوداء والحمد لله.

شادي لا يلومه، أبوشندي كذلك لا يفعل، يقول :

– مهما كانت أخطاؤه أو اتجاه ريحه فهو قاتل معنا ذات يوم، وضع روحه على كفه، ورهن عمره دون كفن رهن خياراتنا، وحتى إن سمن وزاد وزنه من فلوسنا وفلوس المنظمة فهو في الأخير مناضل ويستحق عيشة كريمة.

– لا يجب أن نكون إسرائيل أخرى فيما بيننا، إسرائيل تكرم عملاءها، ونحن يجب أن نكرم بقوة الذين وضعوا أجسادهم في مواجهة قنابل العدو ولو لم يستطيعوا القبض على الجمر حتى النهاية، وقبضوا على النقود.

يضحكان عالياً، شادي وأبوشندي، يعاجلهما السيد الجرام :

– بريجنيف اختفى، يقولون إنه على قدم وساق يدير اتصالاته ليلحق بالقيادة في رام الله.

أبوشندي يخرس، يبلع الأمل الأخير بألم، وشادي بصوت عالٍ :

– في ستين داهية.

ليس هنالك وقت لأمثاله، الآحاد هنا بعضهم يبحث بالدم، بجفون مرتخية عن لقمة يومه وأولاده، والبعض الآخر يفكر في بئر تحتضنه، قبر يشبه سيرته على مقاس رحلته بالضبط، وحيداً في الدنيا، وحيداً في الآخرة.

وهو في دنياه وحده، ناس تبحث عن وطن أو قطعة منه، وهو يبحث عن جسد، لا يعنيه بريجنيف ولا حتى كاسترو، يمشط شعره بعناية، يعيش في استديو صغير، يقول الشعر في الندوات.

في ندوة قبل شهر تقريباً، أحاطته معجبة ولهانة، لم تتركه حتى دخلا الاستوديو معاً بساقين مشتبكتين.

يعقد يديه كمن حصد ما رام، ويلقي بيانه :

– الآن، الآن لا أريد شيئاً آخر، الأولاد في حضن الحزب الحاكم، في حضن أمهم، معهم جوازات سفر تونسية ولو بأية أسماء، ونقودي تكفيني من هنا وهناك حتى آخر الشهر، وبنت جميلة دافئة عمرها ثلاثة وعشرون عاماً تعشقني، تشم رائحة الثورة في جسدي، وتحبِ شعري وشَعري على جسدها وأنا في منتصف الخمسينيات.

وأبوشندي يخرج من بئره :

– هل تعتقد فعلاً أن بريجينيف قد يذهب إلى....

لم يدعه يكمل :

فليذهب إلى نار جهنم إن شاء ، أنا لا أريد أن أتحرك من هنا، خضرة وراحة بال والقضية في الوقت الضائع.

يسدد عينيه نحو أبوشندي، يمسكه برفق من كتفيه :

– حاول أن تعيش اللحظة كما هي.

يدغدغه ويضحك :

- أين يمكن أن أجد بنتاً في عمر الزهور تمنحني الحب والجنس دون مقابل، إنها مثل عاهرتك الثانية عشرة، أنا لا أريد..

- ماذا تريد ؟

- لا أريد غير الجسد.

- جواب نهائي ؟

- جواب نهائي.

باب الريح

لعبة البازل لم تكتمل بعد، قطعة تدخل في مكانها الصحيح كي تخرج قطعة أخرى، أو تبدل مكانها، تنتقل من طاولة لأخرى كما يفعل أبو جعفر المهزوم، حين يمرض أو يدعي المرض ينتقل إلى طاولة الفلسطينيين، أو تنتقل الطاولة بكاملها إلى المستشفي، وحين يبرأ يحوم حول طاولة نعيمة أو ألفة أو أي واحدة أخرى أو يجمعهم معاً على طاولته.

درة سيدة اللاعبات تتعامل مع الحكاية كلها كأنها لعبة فعلاً، لعبة حقيقية لا زيف فيها، هي مبتكرة اللعبة، ويمكن لها أن تنتقل بين كل الطاولات لتغير قواعدها بين دقيقة وأخرى.

نصنع أحياناً اللعبة ثم نصدقها ونذوب فيها .

أبوشندي حاول أن ينتقل ثم عاد أدراجه سريعاً بشيء أكبر من خيبة وأعرض من كابوس.

وشادي مدفون بسعادة في قطعة بازل شابة تعشق الشعراء والشعر الرمادي والرجل الأكبر في العمر، لا يبدلها ولا يتمنى.

اللعبة لم تنته بعد، حلومة ورحمة وحبيبة مازلن على الخط، قطع جديدة تبدأ عملية الإحماء لتدخل إلى الرقعة بعد قليل.

حلومة حكايتها حكاية بحر لا ساحل له، تصلح وحدها كمسلسل تليفزيوني لا تنقصه الميلودراما منذ هبطت برأسها إلى شوارع الحياة.

أطلت على بوابة الدنيا كبنت ثالثة لأب يمقت البنات، يغادر المستشفى دائماً ووجهه محل قفاه، يكفيه من الطنجرة مغرفتان، رفض أن يكتبها باسمه، ولم تفتح أمها فمها ولا سحّت عيونها باكية، وافقته كأنهما شريكان في لعبة بوكر، يرميان البنات وينتظران الجوكر، بل رفض أن يربيها عند أحد و ينفق عليها :

- بنات.. بنات، هو أنا مش راجل؟

قلوب خالاتها الرحيمة كانت أوسع بكثير من أبوة معدومة، تلقفنها بأسى واضح وحنان أبيض، ربينها وسط دموع مكتومة وضحك خفيف، لم تعرف أن خالها الذي تحمل اسمه ليس والدها إلا حين وصلت الرابعة عشرة.

حنان خالة لا يعوض حنان أم رغم دفئه وانسكابه.

حنان ثلاث خالات كان كافياً لئلا تشعر لحظة باليتم.

وخال ربان طائرة، كانت جيوبه ورحمته واسمه كافية لأن ترسم طريقاً ناعماً تمشي عليه، لأن تصنع طائرة ورقية تطير فوق طائرته.

حين كبرت وعرفت، كانت قد أحبت فرنسياً، أستاذاً زائراً في الجامعة نفسها ، يكبرها بقليل، اشتبكا سريعاً، أعجبه الطموح الممزوج بالفقد في عينيها، لم تحك له الحكاية في البداية حتى لا تشعر بالشفقة ولكي تتأكد من نزاهة العلاقة، وحتى لا تقر لنفسها بأنها يتيمة، الغد أفضل من الأمس، وخيط من البارحة لا يجب أن ينتقل بقسوته المبرحة إلى عنق المستقبل، لا يجب أن نجذبه ونضعه أمامنا لتضيع البارحة واليوم معاً.

لن تحمل أوزار الآخرين ولن تعلقها على جبينها وتمضي بها أيامها القادمة مهما حدث.

لم تسمح لنفسها أن تحلم بفستان عرس تحمل ذيله أم ولا أب يسلمها لعريس، سلمت نفسها وحدها، هنالك شيء يجب أن تفعله وحدها بقرارها هي قبل أن تنتهي الحياة، العذراوات في المدينة لا يظهرن إلا في حكايات الجدات والأمهات.

– أحببته.

قررت أن تشطب ماضيها وتسافر معه.

لكن لأن الذي ربَّى خير من الذي اشترى، رفضت الخالات والأخوال، لم تكمل تعليمها بعد، سلاحها الوحيد الباقي لها لتشرب كأس ماء رائق، أو كأس نبيذ تستطيع أن تدفع ثمنه وحدها، لن يعشن لها كثيراً، ولا أحد يستطيع أن يتخذ قرار المغادرة أو يسنده، ليس تملصاً ولا هرباً.

لم يتملصوا منها ولا أعطوها ظهورهم، لكنهم وضعوا أعمارهم التي تكبر وخوفهم عليها في كفة وسفرها في كفة، ونجحت الأولى رغم أن قلبها عبر المتوسط مع صاحبها، قل صاحبه.

قالت خالة بصوت خفيف : دعوها، لن تخطف الحدأة منها أكثر مما خطفته.

تتنهد بصوت بعيد حين تحكي.

– لم أستطع ساعتها.. المكسور يخشى المغامرة البعيدة.

لو استطاعت لربما تغيرت حياتها المقلوبة أصلاً رأساً على عقب.

نفسها المكسورة لم تساعدها لتطيب جروحها، هي أيضاً لم تساعدها.

والليل طويل دون حبيب، مديد بخالات أحلامهن قصار، واحدة مات عنها زوجها وتركها بحنين يقطع القلب، وأخرى عانس نضبت أعشاشها ونفقت طيورها، تصفف لها شعرها كأنها تصففه لنفسها، وثالثة عجوز فرحة تطبخ وتغني وتنام كالسلاحف باكراً.

كان لا بد لها من النسيان، صعدت لليل، موال العشاق والحيارى، للسهر مع صديقاتها، تريد أن تصنع أية مغامرة تافهة تدفن فيها أيامها وآلامها القديمة أو تعيش فيها يومها، كان عليها أن تلعب أدواراً جانبية مساعدة، سنيدة لبطلة في مسرحية لم تقرأ فيها حرفاً، أو حكاية تخبئ فيها حكاياتها، تلعب أي دورإلى أن تجد مكان البطلة شاغراً يوماً ما.

صديقتها التي غافلت زوجها تسهر مع ليبي عابر في ملهى بعيد على أطراف المدينة، وحلومة معهما على الطاولة تشرب وتسهر كسنيدة حقيقية على حساب الرجل العاشق، ولا بأس أن تبارك المغامرة.

ولأن قليل البخت يجد العظم في بطن البقرة، حضر الزوج المغدور المستغفل الذي دار نصف الملاهي الليلية ليتأكد من ظنونه ووشايات الآخرين، وجد فرصته جاهزة ومهيأة لأن يحصل على الطلاق دون خسائر، ولتخرج من حياته مطرودة دون أن يدفع نصف ما يملك حسب القانون، ونفقة شهرية لها لو رمى اليمين وحده.

زوجة لعوب تسهر مع أجنبي عابر من وراء ذقن زوجها، والشهود سكارى سيعترفون بأكثر من الحقيقة، وصور القبلات والأحضان على شاشات التليفونات المحمولة.

- يكرهون الليبيين ويحبون نقودهم.

وجاءت الفرصة لحلومة لتنتقل من مقعد المساعدة إلى مقعد البطلة، كان لا بد لها أن تتبع خيط القدر الذي اختارته بنفسها هذه المرة، ادَّعت أنها خطيبة الليبي، تزوجته على الورق في المحكمة كي لا تؤكل صديقتها مرتين، وسهرت معه في الليلة الثانية في المكان نفسه كبطلة مع إيقاف التنفيذ.

نامت في حضنه على الورق، لكنه نام في حضن صديقتها على الفراش، لا تعرف إن كانت شهامة منها أم اندفاعاً، لكنها كما أخبرتك سابقاً تحتاج لدور تلعبه

تخرج به من الهامش الضيق الذي وجدت نفسها فيه، لشيء واحد تشعر أنها فعلته بإرادتها.

- صاحبة صاحبتها.

يقولون.

بالطبع لم تكمل تعليمها، تعثرت بعد حكاية الفرنسي، احتياجاتها تكبر والخال الوالد أصبح مثقلاً بعياله وبزوجة مشحاحة، والخالات يغمضن أحلامهن باكراً.

صديقتها لا تنساها، ترد لها الدين سريعاً، لهفت فلوس الليبي وودعته، وقعت هذه المرة على واحد من بني جلدتها، صاحبته وأنشأ معاً شركة تولت فيها حلومة كرسي الإدارة وحق التوقيع على الشيكات، في تلك الليلة سهرت وشربت وحدها كما يليق بمدير شركة و بدور حقيقي.

سافر الاثنان لقضاء شهر العسل ولم يعودا حتى الساعة، تركا لحلومة شيكات بدون رصيد، وعشر سنوات داخل السجن.

في السجن تعلمت الصمت، أقسى أنواع العذاب أن تصمت طويلاً، حين لا تجد ما تقوله، أوتجد ما لا تستطيع قوله، لم يعد عندها وقت لتأسى على شيء، وحتى لو أنفقت بقية الوقت في الكلام فلن تجد لساناً ولا روحاً، ستنام في المنتصف، ربما تنام في ربع الحكاية، لكنها تنام، لم يعد لديها هواية إجبارية غيره، جعلته غوايتها.

حلمت مرة واحدة أن تتزوج وأن تخلِّف بنتا تسرح لها شعرها، تغني لها حتى تنام ثم تفتح قلبها، تشقه نصفين، تدخلها فيه وينامان معاً..

وأن تختار لها أباً يفخر أنه كتبها باسمه، لم تسمح لنفسها أن تحلم بالولد حتى لا يزداد جرحها.

كأنها تحلم لنفسها.

في السجن تعلمت الصمت والأدب.

كان لا بد من بديل، من قطعة بازل أخرى، وإن اختلف الشكل والمضمون.

سرَّحت لزميلاتها في السجن شعورهن، نهشت أجسادهن الجائعة بأصابع عطشى، وهي التي كانت تحلم بمن يمسد بيد طرية جسدها.

واختلطت الخطوط في بعضها، وتسللت الأصابع، واشتعل عنبر السجن بآهات مكبوتة تحت وطأة الليل والظلام والحاجة، تمدد سقفه، وما لم تفعله الأصابع فعله اللسان، تكلمت بلسانها كثيراً.

قطعت الصمت بصمت آخر.

رماها أبوها بنتاً فذهبت للبنات.

ورسالة من الفرنسي تزيد الوجع فداناً، والمغنية التونسية عليا تشدو بصوتها نيابة عنها في أوقات الراحة خارج عنبر السجن.

(علَّي اللي جرى من مراسيلك علَّي اللي جرى،

بس أمَّا تيجي وأنا أحكيلك علي اللي جرى).

السجن إصلاح وتعذيب وسحاق أيضاً.

تعلمت فيه حرفة تنفعها في المستقبل.

عندما خرجت لحسن السير والسحاق صادفت درة، سلبت الباقي من عقلها، شمتها بحاستها الجديدة التي نبتت لها في مربع الصمت، حدقت فيها وتخيلتها خليلتها، لم تتحمل الملكة نظراتها، تعاركتا ثم صحبتها إلى المقهى.

هم يبكي وآخر يضحك.

آخر ما تحتاجه مولاتنا درة في الكون، صديقة سحاقية أو صديق شاذ.

تموت في جلدها لو مسها أحد منهم حتى وإن أخفت، إن كان ولا بد فلا بأس من قطعة بازل ذكر.

مع الوقت نبت للحكاية وجه إيجابي، درة تحتاج لسنيدة، لواحدة تحفظ سرها وتغطي عليها، ولو فتشت العالم فلن تجد أفضل من حلومة، سقطت بين يديها من كوابيس السجن.

اسمها أحلام، صنعت منها درة حلومة بسرعة فائقة، صديقة وعشيرة، حاملة لمفاتيح خزائن حكاياتها والخزائن نفسها.

وكملكة وحيدة في منطقة النصر، كان لا بد لها من وصيفة دائمة وخازنة أسرار، كانت عندها عفاف يخرجان معاً وأحياناً يصطادان معاً، تنام عندها في شقتها مع صيد عابر، في لفتة خارجة عن دستور درة في الحكم، لكنها في لحظة إفاقة ارتابت من عفاف، قد تشهد بالحقيقة يوماً وهي تحتاج شاهد زور أو شاهداً لم ير شيئاً، وعفاف تستطيع أن تغرقها وتدعي العفاف، تبوح بما حدث من وراء ظهرها.

كما أنها منافسة ، تشعر أنها حلوة وهي حلوة، حتى ولو كانت ليست في جمال الملكة درة أو مالها، لكنهما عندما نامتا في سريرين في غرفتين متجاورتين وسمعتا تأوهات بعضهما تساوتا، خاصة بعد اختلاط التأوهات السابحة بين الغرفتين في فضاء الصالة.

كان لا بد أن تزيحها من المشهد حتى لا تربكه.

عرفتها على الحاج حسن الفقي الليبي صاحب المسبحة الذهبية، بطل المائة مترعدو في شحن البنات، مازال في المسبحة حبة ناقصة ، شحنها، ثم شحنتهما معاً خارج المقهى بعيداً.

- حتى لا ينتبه أحد أنك تصاحبين ليبياً داخل المقهى.

الحكم يحتاج أحياناً لقلب قاس، لفعل قاس، حتى لو كان الملك طيب القلب يحب الرعية.

واحتلت حلومة موقعها دون منافسة، احتلت المقهى في كل الأوقات التي تغيب فيها الملكة عن رعيتها، تراقب الخارج والداخل، وجدت دوراً تلعبه يليق بها، أصبحت الأمينة على مصاري المقهى وعماله، وأصبح سفيان الأمين على الأولاد ومدارسهم وعلى الزوج نصف السكير.. نصف المستيقظ.

تنصحها ألا تقترب من واحد بعينه، ألا تسمح له بمسافة أبعد، وتغمز بعينها في اتجاه ما، تقول رأيها ولا تخشاه، لكنها — للأمانة - حين تعرف أنها سقطت بين

ساقي واحد لا بأس به، تهش له كأنه حبيبها هي، تعمِّده على طاولة الذكور وتنصِّبه أميراً.

في مملكة درة، ليس هناك بالطبع ملوك سواها، والسعيد من يحصل على لقب الأمير ومن تسانده حلومة.

لا تدبر لها أحداً من خارج المقهى ، لكنها حين ترى عيناً تلاحق ما يرتج في سروالها وتجيء على مرادها، تزين لها النهاية وتدفعها في الطريق المستقيم.

تخطر إلى المقهى في أوقات مختلفة بشعر قصير، مقصوص تماماً كالأولاد، بملابس تشبه ملابسهم تماماً، تشتريها من المحلات المخصصة لهم.

والسؤال الحارق على لسان الرواد الجدد ونصف القدامى : هل هي رجل أم امراة ؟

لا تُحضر نساءها معها للمقهى في الغالب، وإن وقعت في غرام عنيف مع واحدة لا تستدعيها في وجود الملكة وإن تصادف الأمر تجلس معها في طاولة بعيدة ولا تسمح لها بالاقتراب من طاولة درة أو حتى ملاطفتها من قريب.

تعرف لو أن واحدة مدت يدها على درة أو تحسستها من بعيد لقطعتها، ودرة تضحك :

- لا أحب أن تكون نهايتي على يدي واحدة من هذه الماركة.

لا تحكي لدرة عن أية واحدة ولا درة تسألها، والمسافة بينهما تسمح بكل شيء إلا هذا الموضوع، لا تريد أن تخدش العلاقة بينها حتى لا تنفجر وتنتهي.

لكنها تعرفها حين تقع في غرام عنيف.

- شكلها عاشقة.

تعرفها من غيابها المتقطع عن المقهى، تقول ذلك لسفيان أو لذكر من أصفيائها:

- أنفها استطال هذا الأسبوع، شعرها مدبب مضروب بالجل ولسانها صامت.

تعرف أنها إيجابية، تعرف ذلك من انتفاخ أصابعها.

تتركها لحالها، لا تسألها عن أي شيء في المقهى حتى تقضي وطرها وتعود، تتواطآن بالضحك بصوت عال في وجه بعضيهما.

تأكل دوماً ساندويتشاً من المقهى وإن طال بها المقام تأخذ اثنين، كريمة، يمكن أن تمنحك نصفه عن طيب خاطر، حنون، تحب الهدايا القادمة مع الوافدين للمقهى من خارج البلاد، قد تستلطف أحدهم، تسأله أن يحضر لها غرضاً ما، ولو كان بسيطاً، في الغالب بسيط، كي تشعر أن أحداً يهتم بها.

لا دخل لها، عرضت عليها درة أن تعطيها أجراً عن وقتها في المقهى، لكنها رفضت بإباء، الصداقة بحر يسمح بكل شيء لكن درة تقوم على معظم طلباتها اليومية، مسموح لها أن تأكل وتشرب هي وأصدقاؤها ما تشاء دون حساب، وأحياناً تنفحها كارت شحن لهاتفها.

بشوشة دائماً، لا أحد يعرف شيئاً عن حكايتها، فقط ليس سوى سؤالهم عن نوعها، تغيب أسئلتهم خلف ابتسامة ودود لمن تستلطفه، ونظرة حاسمة تجاه من لا تعرفهم أو لا تحبهم.

لكنها رغم كل ذلك قلقة، تغير هاتفها النقال كل شهر تقريباً، تعرف كل الماركات، وإن أعجبها هاتفك قد تطلب منك بأدب شديد ورقة فائقة أن تبادلها بهاتفها، وتعرض بجرأة ضعيفة أن تدفع الفرق.

تجلس أمام الكومبيوتر هدية خالاتها، مكافأة يوم خروجها من السجن، هكذا تقول، في زاوية بعيدة عن الحمام، تتبادل أحاديث مع غرباء صادقتهم على الإنترنت، تصاحبهم وتعود لهم في أوقات متتابعة، ترسل لهم الأغاني التي يحبونها، وقد تطلب منك أن تجلس بجانبها لتحادث صديقتها، كأنها تقول للعالم أو لنفسها إنها ليست وحيدة.

تجلس بالساعات تحادث النساء وأحياناً الرجال في كل أصقاع العالم، تدعوهم لزيارتها للتعرف عليها، وتحكي لك عنهم كأنك تعرفهم.

أحلام، في منتصف الثلاثينيات تقريباً، تمارس أحلاماً متقطعة تشبهها، تنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تنتهي فيه من توابع حكاية الشيكات التي شبكتها، لتنهي الباقي من توابع الحكم عليها، قضت ثلاثة أرباع المدة وخرجت لحسن السير والسحاق، وعلى نار تنتظر أن ينتهي الربع الباقي لتحصل على بطاقة شخصية ومن ثم على جواز سفر وتطير لتقابل أصدقاءها الكثر المتناثرين في أرجاء الإنترنت، على الأقل تخرج من هذه المدينة التي أدمت روحها وبدنها.

- كنت في سجن صغير، وخرجت لسجن كبير.

تضحك، والله تضحك.

ناعمة بوجه صبي وشعر مدبب مخفوق بالجل كجيرانها من الفروخ الصغار، تساعدك في أية مشكلة تواجهك حتى وإن لم تسألها– بالرأي، بالتربيت على كتفك، تبحث لك عن بيت تؤجره وعن سيارة تركبها وعن طبيب ليخلصك من أوجاع حصوة الكلى، ويمكن إن أحبتك من قلبها أن تعرفك على صديقات بلمحة ذكية كأنها ليست في الموضوع، تخرج معكم لقضاء سهرة أو جلسة في المساء ثم تترك لك الخيوط تنسجها وحدك، وإن وضعت – للأمانة – بعض الفحم ونفخت ناراً خفيفة في الموقد، وإذا كنت جنتلماناً، ذكياً وسخياً تنسى المقهى بمن فيه، تربط لك الخيوط وتسدد لك ضربة البداية وتدفعك إلى قلب المباراة ودفوفها تصل إلى مسامعك في فراشك.

لن تجد فرصة عمل إلى أن تنتهي من ذيول قضاياها، ولن يعطيها أحد ما يكفي طموحاتها، لكنها قانعة سعيدة بما في يدها، لا تنظربحسد لما في يدي الناس، حالمة ببعض البهجة التي تقف خلف الباب، والسفر والنساء فقط، لكنها لا تحلم بالعمل في المارينز مثل مهدي المسيحي، كما أنها لا تملك عضلاته ولا إمكانياته ولا هوسه.

لا تفارق الابتسامة محياها، ولا تثور أبداً إلا عندما تلعب الورق، تدخل على اللعب كأنها معركتها الباقية في الحياة، لا تفوت خطأ عابراً أو هفوة غير مقصودة، لا تقبل الهزيمة على الإطلاق، وإن حدثت تنسحب من المقهى كأنها خسرت معركة مع إسرائيل .

في اليوم التالي تقبل على اللعب بلهفة كأنها معركتها التي ستعبر بها إلى الضفة الأخرى

وأبو شندي يقول :

– لعب الورق هو الميدان الوحيد الذي تنتصر فيه، هو اللعبة اليتيمة التي تصارع بها الحياة، كأنها تريد أن تهزم الحظ السيئ الذي لازمها كظلها، لتكسره.

تنتصر في اللعب لتقاوم الهزائم المتكررة.

لو انهزمت يحمر وجهها كرغيف ساخن، تأكل أكثرمن ساندويتش ولو كانت غير جائعة في مقعد بعيد، بملامح مزمومة، تجلس تائهة أمام الكومبيوتر، أو تنسحب خفية، تتسلل دون أن يشعر بها أحد، تذهب باكراً قبل انقضاء السهرة إلى دار خالاتها، تذهب للحنان المركز، تتعصب ثم تروق في اليوم التالي.

وأبو شندي ينفخ :

– هي أشرف من جماعتنا، هي سحاقية مغلوبة على أمرها، تمارسه خفية وبحشمة معقولة وفي وجهها الكثير من الحياء ولولا أنك عرفت ذلك عرضاً لما شككت فيها، أما الجماعة عندنا فهم يمارسونه علناً ولا تحمر وجوههم.

أصابعها تأكلها، تدخلها في بعضها بالتوتر مرة وبهدوء مرات.

عندما تتعب من توطيد علاقاتها على الكومبيوتر ترفع رأسها ناحية الباب، ربما تهبط رحمة، اسم على مسمى بالنسبة لحلومة، ضحكتها تدخل قبلها بدقائق، حين

تتسكع على باب المقهى تلاطف أحداً أو تلقي نكتة أو كلمة نصف قبيحة تضحك عليها أولاً دون أن تنتظر رد فعل من الطرف الآخر.

تقوم من مقعدها إن تأخرت لتجذبها، وتهبط الساندويتشات والمشروبات ويبدأ السمر، الهمس من جانب حلومة، والضحك والضحك عالياً من طرف رحمة.

– ما هي أخبار الصبايا والمغامرات؟ يداك تكورتا من كثرة الرمان.

– احشم على دمك، نحن في المقهى.

لا أحد يعرف ما الذي لمَّ الشامي على المغربي.

حلومة حكت حكايتها مرة واحدة وإن ظلت الأزمة بثقلها تسرح على وجهها، ورحمة أيضاً حكت حكايتها مرة واحدة ورمتها خلف ظهرها.

تزوجت من رجل بصحته، يخرج في الصباح ويعود ظهراً، يتناولان طعام الغداء، يأكل على مهله.. يملأ كرشه، وبصوت متعجل يناديها للسرير، ينتهي بسرعة كأن أحداً من أمن الدولة يجري خلفه، ينام عميقاً ثم يخرج لعمل المساء، يعود في الميعاد نفسه كل يوم في العاشرة مساءً بتوقيت مكة المكرمة، يتناولان طعام العشاء، يشرب علبتين من البيرة ثم يدخلان السرير معاً، ينتهي بإيقاع أسرع كأنه يريد أن يكسب الجائزة الأولى في الماراثون، يعطيها ظهره وينام جثة هامدة.

وهكذا، سنوات لا يبدل إيقاعه، لا ينهي مسابقات العدو في المركز الآخير، لا يحكي إلا لهاثاً من فوقها، ويخرج وحده في يوم العطلة الأسبوعية.

لا كلمة سوى عن الأكل والمصروف وتدبير المعيشة وطاعة الزوجة من طاعة الله ، ولو أن الله اختار أحداً ليسجد له بعده لاختار الزوج.. لا فستان في مناسبة ولا احتفال بعيد الزواج ولا بالجمعة اليتيمة، لا قبلة لوحدها، لا مداعبة ولا مضاجعة ولوعلى سبيل الخطأ فوق كرسي في مطبخ أو في حجرة الضيوف ولا حضن في غرفة الأولاد.

كرهته رغم أن قلبها لا يتسع للكره، رغم أنها أنجبت طفلين، راحت تعطيه بطنها وتعد من واحد لعشرين، ثم تدير ظهرها سريعاً قبله.. أحياناً تعد لخمسة عشر.

- ساعات أغلط في العد، وأعد بسرعة، وساعات أنام.

حين كبر الولدان، كان الوالد في حضن امرأة أخرى، يشارك في بقية مسابقات العدو الدولية على ملاعب صناعية.

- أحسست في الفترة الأخيرة، في أحد الأشواط لا أتذكر جيداً إن كان الشوط الأول أم الثاني، أن هناك واحدة أخرى تنام بيننا، تعطيه ظهرها وتعطيني وجهها وتخرج لسانها.

تقول لحلومة حين تسألها في مرة عابرة إنه لم يكن يعنيها كرجل، ورغم أنها رتبت حياتها على أن تعيش فقط لتربي ولديها، إلا أن الحكاية لا تمر مرور الكرام على امراة يعاشر رجلها امرأة ثانية من خلفها، حتى ولو كانت تكرهه كراهة التحريم.

- وجعتني، وجعني عمري كله وعيشتي معه.

طلبت الطلاق، وقبل أن يحكم لها القاضي رمته صاحبته، وجد حقيبة ملابسه مفتوحة في انتظاره على الباب في أسفل السلم.

ضربه الشلل.

- كأن هناك دماء كانت تجري في عروقه ولا يعرف.

بنت الأصول تعرف الأصول، حملته لسريره دون مسابقات لأول مرة، طببته كما يليق بممرضة في زمن المسيح، وحاصرت الشلل بأناملها، لم تسمح لروحها أن تتشفى فيه أو تفكر، ولا لعينيها أن تنظر مرة بالعتب، وعزرائيل ساعدها بإنهاء المهمة سريعاً.

ربت ولديها بفرح تمنته، خبأته في صدرها، بمعاش بالكاد، وإيجار شقة في مدينة بعيدة، تركها لها أبوها الذي تمنت رجلاً مثله.

راحت تغني وهي تطبخ.

ولأن كل واحد في هذه الدنيا معلق من عرقوبه، ساح الولدان حين كبرا بحثاً عن مستقبل، كانا أسعد منها، واحد راح لفرنسا والثاني لمصر.

أوصتهما أن يعشقا، علمتهما الآدمية والإنسانية، ألا يشاركا في مسابقات العدو وألا يديرا ظهريهما مهما كان، وبقيت وحيدة بروح فرحة وملامح لم تلعب فيها التجاعيد لعبتها، التجعيدتان الوحيدتان كانتا تدوران حول الشفاه، تحضران من كثرة الابتسام.

ندمت كثيراً لأنها تزوجته، لكنها رمته من داخلها بعد أن دفنته، خطأ وحيد لكنه كبير.

كأنها ولدت من جديد في منتصف الأربعين، تشعر أن الصخرة سقطت أخيراً من فوق قلبها، وأن وجعها الآن لبُعد ولديها عنها فقط، لا تعرف ماذا تفعل، خطت إلى المقهى لأول مرة وحدها لا تعرف لماذا، راحت تبحث عن نفسها، تلعب معها، تدللها، تبحث عن أنس ورفقة، وإن تمنت بشغف قصة حب كبيرة مع رجل حنون وبطيء، مع رجل يعرف كيف يقبل امرأة، يعرف أولاً معنى القبلة، وأنها مفتاح البوابات المغلقة، وأنها النقطة التي توضع فوق حرف الباء في كلمة الغرام.

تنتظر الغرام وتحتاجه، تهفو إليه كمراهقة في سنة أولى حب لكنها لا تبوح، كأنها أرض بيضاء لم يخط فيها فلاح خطاً ولا ضرب فأساً.

لم يعد يعنيها ما فاتها، رمته وراءها وتقدمت للمقهى كأنها في السنة الأولى من شباب قلبها، تحضر في النهار لترى حلومة، بملابس رياضية كانت تمارس بها رياضة المشي في الشوارع قبل أن تأتي، وتحضر في ليلتي الفن بكامل أناقتها البسيطة كأنها ذاهبة لعرض أزياء، تجلس على طاولة مجاورة لطاولة الفلسطينيين القصية، تدندن وتغني مع المغنية الجديدة حبيبة التي أحضرتها درة والتي تشعل المقهى بالأغاني التونسية والليبية والمصرية، يعلو صوتها رغماً عنها فتلقي إليها حبيبة فجأة بالميكروفون، غنت خجلة من مقعدها أول مرة، وغنت خجلة واقفة عند مقعدها في المرة الثانية، في الثالثة دخلت وحدها إلى قلب الصالة أمام الفرقة الموسيقية وغنت كأنها أسمهان في فيلم انتصار الشباب.

صوتها عادي لكنها تملك إحساس امرأة ضاع ربع عمرها في عمل الغداء والعشاء، والربع الثاني في النوم تحت رجل كريه، وربع يعدو فيه قلبها خلف الولدين، والربع الخالي ممتلئ بأمانٍ واسعة وأحلام بيضاء.

تغني أغاني مفعمة بالفرح لصباح، وأغنية رومانسية بحس عال لعبد الحليم حافظ في فترة راحة حبيبة، والتي يعود فيها المعازيم لمقاعدهم أو يذهبون للحمام بعدما أُنهكوا رقصاً واحتكاكاً.

درة تطلب أغنية جبَّار.

يقول واحد : تحلم بواحد جبار، يقول الآخر هي تختار أغنية تحكي عنها.

يألفها الجميع، خفة دم تمشي على قدمين، وجه باسم وضحكة عالية تفرقع في سقف المقهى، وحنجرة تفيض بحس عال وفرح وافر ودخل قليل بالكاد يكفي حياة قليلة.

لكنها سعيدة.

حين لا تجد مقعداً أو حين تغيب حلومة في إحدى طلعاتها تجلس مع بورقيبة، أسد في أول النصف الثاني من الخمسينيات، أصلع برأس كبير وأطلال شعر موغل في القصر يكاد يذوب في فروة رأسه، يرتدي بذلة مثل بذلات المطرب فريد الأطرش في أفلام زمان بصفين من الأزرار دائماً، كأنه محافظ أو والٍ في مدينة بعيدة.

بنطاله يعلو سرته بمسافة محترمة، بحزام عريض يكاد يقترب من صدره، كريم يحضر معه الفستق واللوز، وحين يقهقه يهتز كله كطفل صغير، دعاها بلطف حين لم تجد

مقعداً ذات مرة، بعد ذلك تزاملا طيلة السهرات، عليها المعشر اللطيف وعليه دفع الحساب كجنتلمان كبير، لا أحد يعرف عنه الكثير سوى أنه يصلي العشاء في الجامع يقضي فرض ربنا أولاً، ثم يهبط للمقهى ليلتي الغناء، سوى أن رقبته العريضة المدكوكة توحي بأنه رئيس مجلس إدارة أو عضو في المجلس على الأقل، وهي تمازحه :

- أخبارك يا سيادة العضو؟

وتضحك.

- ماذا أفعل؟ لساني فالت.

- لسانك فقط.

تجلس معه فقط في ليالي الغناء، لكنها لم تذهب لأبعد من ذلك رغم أنه رمى حبال الوصال، عرفت من عينيه أنه باحث عن رمية عابرة لا عن مباراة كاملة.

.. نظرته تلسع ولا تربت، عينا ثعلب لا عينا حصان، تقول لحلومة.

لم تترك مقعدها بجانبه، لكنها راحت تدفع حسابها بعد ذلك.

حلومة لا تستطيع أن تنقلها لطاولة درة المحجوزة، قل المحتلة سلفاً من طائفة الذكور، ولا تجلس عليها امرأة أخرى غير حلومة، حتى حلومة نفسها محسوبة على الذكور في الغالب.

وهو ذكر وحيد يجلس على طاولة منتحية كأنه يراقب العالم، كأنه يريد أن يحركه أو يديره من مقعده، له سمت مهيب لولا ضحكته التي تنفلت منه، يحاول دائماً أن يصدِّر لك هذا الشعور بصمت طاغ، ووجه جامد في كل الاتجاهات، سرعان ما يقع منه حين تطارد عيناه عجيزة مارقة، حين يمد يد الأبوة على كتف هنا وظهر هناك، خصوصاً حين يلاطف حبيبته المغنية :

- إنشاء الله سأجعلك تغنين أجمل غناء، ستغنين معي أحلى الأغاني.

أطلقت عليه درة اسم بورقيبة من قبيل التندر، غازلت به الضباط المنتشرين في المقهى، تزلفاً لسلطة تعسكر في مقهاها وتحمل دبيب النملة إلى أماكن مظلمة، وتحية واضحة واجبة للعهد الجديد.

- يشوف له جامع يصلي فيه، أو يبحث له عن قبر.

وهو في دنياه، لا يكف عن دق الأبواب، يهمس في أذن رحمة:

- أنا نفسي أطلع القمر.

- القمر معمول من جبنة بيضاء، لبن أبيض، وأنت لا تحب غير اللحمة.

وهو كأنه ليس هنا، بورقيبة راح، بورقيبة جاء، بورقيبة سقط من العيون، من عيني رحمة تحديداً، سقط حين اقتحمت زوجته المقهى بغتة، جذبته من ربطة عنقه:

- تصرف على النسوان، ولا تصرف على دارك !

خرج خلفها كفأر.

هي لا تكره الرجال، بالعكس كانت تكره رجلاً واحداً مات وبموته أخذ الكره معه، لكنها راحت تشمئز من هذا البورقيبة فقط.

راحت تسلم من بعيد وتبحث عن مقعد آخر، عن رزق آخر، فكرت كثيراً في رزقها القليل، تذكرت أنها ماهرة في صنع الحلوى، صنعتها في دارها، أتت بصينية منها إلى المقهى، وزعت على الجميع محبة باليد اليمنى على أمل أن يشتري أحد منها باليد اليسرى في المرة القادمة.

اعتذر أبو جعفر بأنه مريض بالسكر، وإلا لاشترى منها كل أسبوع، لكنه اشترى ووزع على الفلسطينيين وعلى البنات اللواتي يدلكن له ظهره.

- سأشتري منك أكثر حين تتحرر الأرض من الخونة والغزاة.

لا أحد يشتري، كل الموجودين يشترون بضاعة أخرى لها علاقة بالحلوى لكنها من نوع آخر، في الغالب يبيعون.

وضعت همها وبعض حلمها في حبيبة المطربة الحلوة التي تحلم بأن تساعدها درة عن طريق معارفها وأن تسافر لمصر لتغني هناك مثل أخريات تغين وأصبحن مشهورات.

أحبتها رحمة، كبنتها التي كانت تتمنى أن تنجبها وتربيها وأن تظل قريبة منها بدل الصبيان الذين يبتعدون دائماً، تحب حلومة أيضاً وترعاها لكنها لا تستطيع أن تخلصها من السحاق:

- يا بنتي أنت عندك صدر يجنن، ومؤخره من الممكن أن يقف عليها وزير الدفاع، حرام عليك ترمي هذه البضاعة للنساء.

حتى حلومة راحت ترعى حبيبة كأنها ذاتها التي تريد أن تنقذها مما وقعت فيه سابقاً وما آلت إليه، وإن راقبتها رحمة من بعيد حتى لا تسرح يداها.

لعل هذا ما لمَّ الشامي على المغربي، كأنهما تعوضان بعض خيباتهما في رعاية حبيبة، ولعل كل واحدة منهما تعوض في الباقيات ما ينقصها وما تحلم به.

كان على درة أن تظهر كرامتها أيضاً، رعت حلومة ووعدت حبيبة، لم يتبق سوى رحمة، سرعان ما دبرت لها وظيفة ظريفة في التليفزيون كأنها خلقت لها : مساعدة في برنامج تليفزيوني اسمه :المسامح كريم، برنامج يسامح فيه واحد أو واحدة واحداً أو واحدة أخرى اقترف تجاهه إثماً كبيراً أو فعل به فعلة شنيعة : أم تركت أولادها وجرت وراء رجل، أو ابن عاق ترك والديه، يعرض المذيع المشكلة ثم يدعو الطرف المعتدي عليه ليسامح الطرف الآخر.

حين رآها المخرج في المقهى قال: وجهها ضاحك باسم، هذه آخر واحدة يمكن أن تبكي، عرض على حلومة أن تقوم بالدور لكن حلومة لا تبكي على أحد وإلا لبكت على نفسها أولاً، رفضت وأيدت رحمة التي أثبتت مهارة كبيرة في البكاء، بكاء معددة بأجر.

تتذكر ما فعله زوجها بها.. تتذكر فراق ابنيها، تتذكر الحظ التعس الذي لازمها طويلاً، تبكي الرجال الذين لا يشترون الحلوى، أحيانا تتذكر البكاء الذي لم تبكه سابقاً، تسحب من المخزون، تسحب من الدموع التي حبستها في الماضي.

تقبض خمسة عشر ديناراً عن كل بكائية ثلاث مرات في الأسبوع، تحضر للمقهى تسبقها ضحكاتها، تصرفهم على حلومة وعلى حبيبة، تحضر لهم ما استطاعت وما يشتهون.

في المرة الأخيرة وجدت حبيبة منهارة تبكي بحرقة لأن أحد رجال الأمن الذي يرابط في المقهى أصر على اصطحابها لداره بالعافية وهددها وإلا لن تستطيع أن تستخرج جواز سفر تعبر به إلى مصر، وجدت حلومة تبكي مرتين، واحدة من أجل حبيبة والأخرى لأن جواز سفرها سوف يتأخر عاماً آخر لأن إجراءات التقاضي بطيئة، وقضاياها تم ترحيلها للعام القادم.

احتضنتهما في قلبها الذي ينتظر ابنيها و حبيباً حنوناً يهبط في أية لحظة.

هذه المرة كانت تبكي بحق.

باب النار

قل عنها ما تشاء، املأ عينيك بها، افتحمها على اتساعهما كي تستطيع أن تستحضرها بكل تفاصيلها إن غابت، العنها في سرك إن شئت، لأنك لا تستطيع الوصول إليها، أو أن تتجاهلها، يمكن لك أن تغالب ضعفك وترغبها علناً، في الغالب سترغبها، فحكايتها حكاية وجسدها رواية.

لا تحاول أن تخمن معها، كل ما عليك أن تنظر طويلاً في عينيها حتى تستقر رسالتك في مكان ما من بئر رغباتها، وعليك أن تنتظر النتيجة، فمفاتيحها في جيبها وحدها.

هي ولا فخر لا تعبأ بالإشارات العابرة، وليست عضواً في المنتخب القومي للحمَّام، لا تذهب إليه إلا لماماً للزينة أو لتفك زنقتها إن ضاقت، من النادر أن يحدث هذا، الحمام للهاويات العابرات، للمقيمات نصف الجميلات، للجميلات المرتبكات،

وحتى إن أكلتك ساقك وشممت رائحة شواء جسدك وذهبت خلفها، مهما حاولت أن تفتح باباً للحوار لتقدم رقم هاتفك لن ترد، وإن ردت تلطفاً او إنهاءً للموضوع، ترد بكلمة واحدة:

- يعيشك.

تغسل يديها وتمضي.

يمكن لك إن كنت من أصحاب الحظ أو دعت لك زوجتك في ليلة القدر، أن تظفر بها، لكن حذار أن تقع في عشقها.

كل الذين ذاقوا نارها وأحرقوا حطبهم في جسدها ، ودوا لو يرجعون لجهنم مرة أخرى.

حذار أن تعشق واحدة بكل هذه الفتنة، اربط مشاعرك بإحكام قبل أن تغطس في بئرها، وتحسس رأسك جيداً قبل أن تدخل غابتها.

ستتلوى بين أحضانك مثل أفعى طيبة لدغتك لدغة الحياة ثم تنسل بعد أن قرصتك قرصة بالدم في قلبك، ثم في شفتيك حتى لا تجد ما تحكيه.

إن كنت من رواد المقهى فستسمع عنها من مصمصة الشفاه، قد لا تصادفك كثيراً، لكنك ستعرفها على الفور حتى لو لم ترها من قبل.

ستسمع ضحكتها، جاحدة داكنة، تسبقها قبل أن تضع ساقيها الكريمتين داخل المقهى.

موجة حارة تضرب المكان، غصن البان يخجل من قوامها، متاهة من التفاصيل، كراسة الشروط تنطبق عليها بحذافيرها، متوافرة بالنسخة الأصلية.

وأصوات تنبعث فجأة لا تعرف مصدرها بالضبط :

- اللي أعطاك يعطينا.

بجسد أميل إلى الطول تدخل، بعيون شرهة، مسحوبة بزاوية، أقرب إلى الضيق كانتا واسعتين ثم ضغطتهما لتجمع شياطينها معاً فضاقتا ، تدرك أنت أن الشر عنده نظر، لا يمكن أن يكون أجمل من ذلك، وأنه في غاية الذكاء، عرف كيف يختار روحاً يسكن فيها ويمرح براحته.

- شياطين الإنس هلت.

ببشره مدهونة بالزبدة، بأفعى تتلوى في ظهرها تدخل، كلها تتلوى، بجوانب زائدة نافرة غير منفرة، تحرس الخصر من الناحيتين، مرتاحة تماماً مع الردفين، وبنطال من الجينز له جيبان من الخلف، كل واحد محلى بسوستة، تكاد تنفتق، دفعتهما العجيزة بمقدار حتى فتحا أسنانهما، وإن ظلتا متشابكتين على وعد، تكاد تسمع صوت عراكهما.

- الملبن يروح فين جنبك.

بلوزة حريرية دائماً، وحدها أو تحت جاكيت قصير جداً، مسحوبة عند طرفها الأسفل على شكل هلال مقلوب، أو قبة مفرغة عارية من جانبيها بحذر، كأنها جرت خائفة من حزام البنطال، وفي الخلف، في منتصف الخلف من أسفل يتدلى زر

طويل كأنه زر طربوش يتأرجح فوق شق عجيزتها تماماً، تكاد توقن أنها عجنتها بالبهارات الهندية، صبتها بمزاج ومزيج حار في قالبها قبل أن تضعها في مكانها من جسدها، أو قل إنها رسمتها بعناية مدبرة قبل أن تضعها في مكانها من البنطال.

وأبوشندي من مخبئه البعيد في الزاوية بصوت يملأ المقهى:

- إرحم.. إرحم يا ظالم.

وسودانيان عابران يجيئان مرتين في نهاية الأسبوع، يمصمصان شفاههما الغليظة، أحدهما بعد أن تخرج عيناه يلتفت متقداً بلوعة واضحة لصاحبه السارح في دنيا أخرى ويقول بحسرة طويلة:

- عندها حاجات، عندها حاجات... حاجات.

تختال داخل المقهى على إيقاع منغم لكعبيها حتى تصل الى مقعدها في زاوية نعيمة.

متيمة بروحها، عندها حق، وحطبها ونارها تكاد تسمع أصوات طرقعتها، حضور ليس أشبه بموسيقى ناعمة ، أقرب الى إيقاع طبلة صاخب.

بحزام لامع له غرة عريضة غير محكمة، تترجرج وتصنع صوتاً خفيفاً لكنه مسموع بانتظام، كأن ابن أحد الشياطين مازال في المهد يلعب بكرة صغيرة من نار أو يتهجى تعويذته الأولى تحته.

وأبوشندي يخرج عن وقاره، يعاود الكرّة بصوت مسموع :

- أموت في الوسط.

تغيّر اتجاهها، تقترب منه بخصر تكاد انحناءاته تضغط من الناحيتين على بعضها لتتلامس، وضحكتها الداكنة العالية تسبقها:

- تحت الوسط بشويه، وأنت الصادق.

تصدمه، يحاول أن يستعيد وقاره لكنه يخاف إن تراجع أن تشعر بهزيمته أمامها :

- .ستدخلين الى الجنة بملابسك

.- ومن غير ملابس وحياتك

. - الملائكة ذكور وأنت تعرفينهم أكثر مني

نصف ابتسامة وتغادر.

- ربنا يكون في عون الملائكة.

ينسحب بضحكة خفيفة، ولسعة عابرة دون خسائر كبيرة.

ونعيمة ترقبها حتى تهييء عجيزتها الخالدة داخل المقعد، تهيئها على مهلها، ساق فوق الأخرى بزاوية مائلة قليلاً حتى يزيد عرضها في العيون.

فردت النوتة واستعدت للعزف، وشياطين الرغبة تتقافز في العيون.

اسمها ألفة، اسم في غير اتجاه، لا تألف أحداً إلا بصعوبة، حتى لو مازحتك مرة، أو مدت طرف حديث معك، تبدو كأنها لم ترك على الإطلاق من قبل، تتجاهلك ببرود كأنك لست هنا من أصله، حتى إن حاول مجيد اللبناني بوجهه المكشوف أن

يعابثها وأن يخرق الستائر التي صنعتها لنفسها، تسدد له الضربة القاضية من أول جولة وهي تلعب بحاجبيها وتطرقع أصابعها:

- الليلة ليلة وارقص يا قنديل..

العروسة طويلة، وباب الدار قصير.

نمرة غامضة تحت بلوزة حريرية، وصلت الى البكالوريا بصدرها، وخرجت منها بعجيزتها، حاولت أمها أن تزوجها لكهل تونس ثري ، ينفض عنهما أيام الفقر الذي عاشتا فيه.

رفضت.

تمنت أن تكون عارضة أزياء، لكن من صادفتهم كانوا يريدون منها أن تخلع الأزياء.

تأهبت لفرصتها التي جاءتها تجري، عريس يعيش في أوروبا، وآخر في الخليج، لم تكن تعرف أن النقود أصبحت تزرع في الأخير، اختارت الأول، قالت إنها وقعت في غرامه وعرضت بضاعتها سريعاً، تعاشقا وأصبحت حكايتهما مضرب الأمثال، وضع ختمه على علبة الجواهر، لكنه في اللحظة الأخيرة قطع تذكرة واحدة ومضى.

وجعها، نظرت لنفسها في المرآة وأطالت، أقسمت لتأخذن كل شيء مهما كان.

طار وخلّف جملة غريبة، ظلت تحفر في قاع دماغها طويلاً:

- لا أتحمل أن أعيش مع كتلة اللهب والجمال هذه، لا أستطيع.

سرقها وطار.

قررت أن تتقدم ببضاعتها، تلعب بالعقول وتحصد الجيوب، ترد القلم الذي أخذته على حسنها.

تريد كل شيء وبكل الطرق وبسرعة.

هبطت الى سوق العمل بوجعها، تسبقها جغرافيتها، أطلقت شياطينها أمامها وتبعتهم من قريب.

رمت شباكها سريعاً على صاحب مطعم كبير في منطقة المنار، عندما غطاه صهدها عرض عليها أن تعمل عنده أميرة في البيت بدل نادلة المطعم، أن تكون صاحبته ، أقسم أنه جاهز بإشارة من إصبعها أن يؤجر لها مساحة في القمر إن رغبت، لكنها أصرت على العمل، هي التي يجب أن تحدد ماذا تريد ومتى تريد ولو كان خطأً.

- معك في البيت والغيط.

أوكل لها جهاز صرف البونات وتحصيل النقود، في لمح البرق نهبته قبل أن ينهب جسدها، تعرف كيف تسرق النقود وتضعها تحت عجيزتها المكتملة، وتعدها ساخنة بعد أن تنتهي ورديتها.

قررت أن تصنع مستقبلها بنفسها، بيدها، لا تسلمه لأحد بسهولة ولا بصعوبة، أظهرت شراهة لا بأس بها تجاه النقود، وشراسة متناهية في الفراش.

قررت أن تغرق وتغرف حتى ولو رقصت في قاع كأس.

اكترى لها شقة ، في النهار معاً داخل المطعم، تراقبه وترقب نقوده، وفي الليل معاً داخل الفراش أو علب الليل.

كل ليلة أحد تشتري ملابس جديدة بضعف أجر كل العاملات معها شهرياً.

ناحت وساحت والبنات يحسدنها لكنهن لا يجرؤن أن ينطقن.. خطفت المطعم بصاحبه، جعل منها أميرة علينا في النهار، أميرة عليه في الليل.

مصته ورقاً أخضر وعوداً أخضر، الحياة قصيرة والبحر يحب الزيادة.

ولأن عِرق الشر في عين وعرق الغدر في أخرى شبعت منه سريعاً، وضعت عيونها على مورّدِ الخضار واللحم للمطعم، شاب وسيم أشقر مثل الأجانب، فاجأه ذات يوم :

– ألفة تعجبني، نار وشهد.

– ألفة صاحبتي، عيب عليك.

كاد يلكمه.

يصمت لحظات ثم يقول :

– صاحبتك! قل كلاماً غير هذا، لقد نمت معها عدة مرات آخرها بالأمس.

ونعيمة تجز أسنانها بحزم وحسد:

– عين فارغة دائماً، لا يملؤها حتى التراب، ساقطة من يومها، خطفت الرجل من زوجته وصاحبت عليه، كانت نائمة في العز ورفسته بقدمها.

.تنقح عليها حكاية الخطف، تتذكر ما فعلته أختها

كثرت السكاكين والأقاويل.

اكتشف في لحظة أنه كان الوحيد الفاضل الغافل، وأن كل رجل أعجبها داخل المطعم أخذ ساندويتشاً وأخذت رقم هاتفه.

البصقة الكبيرة التي تلقتها في وجهها على رءوس الأشهاد لم تغير شيئاً فيها، لكن مرارتها دفعتها إلى المقهى ودرة صاحبة المقهى تلقفتها بريبة، فكرت أن تصدها لكنها قررت أن تكسبها بعد أن رأت إمكانياتها الهائلة.

تعرف أن إيراد المقهى يتضاعف عشر مرات بسبب هؤلاء البنات ولولاهن لهرب الرجال إلى مقاه أخرى ولما أتى معظمهم من أصله.

ولأن الحكمة تقول : إذا سألتم الله فاسألوه البخت، جاءها بختها يجري عند ساقيها الفاتنتين، صادفت ألمانياً عابراً يعمل هنا لشهور، خطفته من أول بصة، سرقت عقله، سرقته كله.. السمار مكلف في العالم أجمع، وهنا بين كل سمراء وسمراء واحدة تدفعك إلى حافة الجنون، وسمرتها قاتلة بلون القرفة الشاحبة ورائحتها فوق قارة ملتهبة من التفاصيل.

الشقق تجري في إثرها، تلاحقها، خلف عجيزتها، اكترى لها واحدة، وبعد ليلة واحدة أيضاً عرض عليها الزواج.

خمسيني تقريباً، ناعم ولطيف والخمسينيون هم أفضل طريدة، سن المراهقة الثانية، أرض واسعة لأية واحدة ساخنة تريد أن تؤمن مستقبلها أولاً، ثم تعيش حياتها كما

تحب فيما بعد، لم تجب بنعم بسرعة لكنها لم تقل لا، وألماني في الجيب خير من تونسي على الشجرة أو في أوروبا، بعد أن صار متيماً بها من أول رغبة، تمسح به كل الصفحات القديمة، وتكتب بمداد نقوده كل الصفحات الجديدة.

حجز لها مقعداً في معهد تعليم اللغة .. ألمانيا متشددة في لغتها، وحجز لنفسه مقعداً على ثاني طيارة بعد أن نام عميقاً في كهفها وارتوى من خزانتها، تزوّد حتى يعود.

أعطاها مصروفها لشهور.

غرف من عسلها وسافر قلقاً عليها لكنها ربتت عليه، بددت قلقها وقلقه بمضاجعة الرجال، كل يوم أو كل أسبوع رجل.

لصقة بغراء من لهب، من يعجبها أو ترغبه ترميه بخطافها، تمصه حتى آخره من كل بقعة في بدنه، تنظفه وتنظف جيوبه ثم ترميه في آخر الليل.

نتفت ريش ربع المدينة وحدها تقريباً والباقي في الطريق، ونعيمة تضرب كفيها وتقول:

– مخ التونسي هكذا.. ربي بعث لك الحلال والمادة، وأنت تلعبين.

كأنها تلوم نفسها، كأنها تتحسر عليها.

تغشى العلب الليلية كملكة أسقطوا حكمها وحولوا البلاد إلى جمهورية ، تسكر على حساب من يستطيع أن يصطاد شرها.

في الصباح تحاول أن تعرف أولاً إن كانت تنام في شقة أم في شقتها حتى يزيد الحساب.

شربت على حساب العشرات، وأعطتهم رقم هاتفها للغد الذي لن يجيء.

امرأة فادحة ومطرح حنون.

رغم أنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط، لكنها لم تبك ولا مرة وحدها أو على صدر أحد.

محتالة كما أُنْزل في الكتاب، تأخذ نقود من يضاجعها حتى لو أكرمها وحتى لو أوصل فخذيها لصدرها.

عام طويل، وهي طويلة تحب الطويل، والألماني مشتاق على نار، يطفئ لهيبه بإرسال النقود، تلقفها وتقول :

- فلوس من المتعوس.

سارحة طوال الليل، نائمة طول النهار، لكنها طيبة مطيعة لا تنسى درس الساعة الخامسة ثلاث مرات أسبوعياً في معهد تعليم اللغة الألمانية .

طارت وفي ثاني ليلة تزوجت.

في ألمانيا وجدت نفسها في بلد نظيف، عندهم أخلاق بيضاء تقول ، لم تجد لوناً رمادياً واحداً إلا في غيوم السماء، تلتفت ناحية نعيمة، تفقع ضحكة عارمة ساخرة :

- ناس عندهم لبن أبيض.

- كل حاجة عندهم بيضا، حليب البقر مثل حليب البشر كله متشابه

تكمل ضحكتها:

- ليس أزرق كما عندنا.

رقصت كما لم ترقص في حياتها : الرقص طقس في الحفلات هناك، في البيوت، غناء بالجسد، حالة فرح بالحياة، حياة بألوان، رقص واضح.. اليد في الخصر لا تنزلق سهواً على العجيزة ، لا تتحايل، الأصابع تعزف على الجسد، قد تضغط لكنها لا تنبش، اليد على الكتف وسام محبة وقرب، تربت لا تعبث وإن أوغلت توغل بفعل دوامة النشوة التي يدورون فيها.

كل واحد وزوجته، كل واحدة وصاحبها، لم تجد أحداً يمد يداً بين ساقيها، ولا قرصها في عجيزتها، وإن أشادوا بها علناً في وجهها ووجه زوجها.

لم تجد من تتبادل معه صنوف النميمة.. حتى النميمة بيضاء، لم يعطها أحد رقمه، لم يلحقها في الحمام، لم تجد من تحتال عليه تأخذه وقتما تحب وتتركه وقتما تريد.

شبعت من الشمبانيا، ملأت جوفها وأغرقت جسدها، حممته بها ليلعقها أحدهم، تمنت أن يفعلها أحدهم ثم تموت.

لم يقربها واحد، لعقوها جميعاً في طقس احتفالي كأنهم يزفون كليوباترا لأنطونيو.

هي بالطبع لا تشبع ، تكاد لا تعرف ماذا تريد، مجاهدة جاحدة أصابها الضجر، بدّل زوجها الأماكن والأصحاب.

في فنادق بعينها وجدت ضالتها، يسهرون معاً، يشربون حتى منتصف الليل بليل، عندما يدخلون يعلقون معاطفهم، يضعون مفاتيح سياراتهم في قمقم من نحاس مملوء بنشارة خشب، وبعد انتهاء السهرة حيث بلغ السكر مبلغه وارتفعت النشوة بالجميع نصف متر عن الأرض، تفكر هي فيمن سيرفعها ، النساء يتقدمن أولاً طبقاً لقانون الذوق، تمد واحدة بعد الأخرى يدها المباركة في القمقم تلتقط مفاتيح أية سيارة حسب بختها وتخرج، تشغّل مفاتيح السيارة عن بعد، تعرف مكانها من ضوئها الذي اشتعل، تركب فيها تنتظر صاحبها، تذهب معه تنام عنده وفي الظهر تقريباً يأتيها زوجها أويوصلها صاحبها الجنتلمان العابر الذي وقعت عليه القرعة.

هي في الغالب تتأخر حتى العصر.

أعجبتها اللعبة، تتقدم الجميع، شغلت ماكينة حيلها لتعرف مفتاح الذي يروق لها لتسحبه، هي الوحيدة التي تغير المفتاح بلمح البصر إن لم يعجبها صاحبه أو نامت معه من قبل.

تقول بغيظ : ناس ملايكة.

أتت على كل المفاتيح ، لم تشبعها المفاتيح البيضاء، في النهاية أصبحت لعبة مملة وهي تعشق الاحتيال الدائم ، اللعب الدائم المنتصب دوماً، لم تشف كل غليلها،

صرخت صرخة عالية ثم طارت إلى أولاد بلدها والبلدان المجاورة، الذين عبروا البحر خلسة،، حرقوه لأجل فرصة عمل، حلم، وفتاة بيضاء.

احتالت، عرفت مكانهم سريعاً، تمرغت وسطهم كذئبه جائعة منذ عام، فتحت ساقيها للإيور المحلية السمراء وسيقان الأفارقة، لاهثة متلاحقة اللهاث، لم تشف غليلها بعد، فتحت عجيزتها أيضاً المنافذ هنا تعشق بعضها، باعدت بساقيها بين الأبيض والأحمر وتركت الأسمر يموج ويحكي.

وصلت للسقف، لم تعد ترى الملائكة، كرهتهم وتركت للشياطين الطيبين أن يتبادلوها بقسوة افتقدتها ، لم يكن عطشاً فقط ، أفرغوا فيها قلقهم وتوترهم وضيق عيشهم وأحياناً بهجة عابرة.

كل واحد يدكها ويحلم ببنت بيضاء وحليب أبيض .

غرقت فيهم لتروي نهمها لتلعب هي لعبتها، تأخذ ما تريد على طريقتها، وهم استوصوا بها خيراً، فردُوا لها أشرعتهم النافرة دوماً في انتظار الإقلاع بها، نصبوها دائماً في انتظارها، لكنهم لم يستقروا في مراكبها طويلاً،عند أول رحلة جديدة تركوها.

وزوجها قلق.

فوجئت حين وجدته أمامها، لم تجد عندها مخزوناً من الخجل يداري عريها.

نظر إليها باحتقار تمنته، أعطاها ظهره ومضى، حين لحقت به صرخت عالياً أيضاً :

.- كل حاجة عندكم بيضاء، لم أعد قادرة على تحمل الأخلاق النظيفة.. أريد بشراً لا ملائكة.

انتظرت قليلاً حتى هبط حملها، كتبت البنت السمراء باسمه وتركتها.

طارق بن زياد كان في حكايتها، أحرق المراكب حتى يقطع فرصة الهروب على أي كان وليواجه كل واحد مصيره بروح المقاتل اليائس لينتصر على الموت قبل العدو.

وهي أحرقت كل مراكبها، حرقت الركاب والشاطئ أيضاً لتخلق فرصة غير موجودة، وستعود على طريقتها.

كلاهما أطلق خياله، هو صنع حيلة يحتال بها على الخوف من الموت، وهي صنعت حيلاً لتحتال على الخوف من الحياة.

حيلته وحيلتها صائبتان، كل على مقاسه، هو وجد ساحة ومعركة مرغماً، وهي تخلق كل يوم وكل ساعة معركة تفاجىء بها نفسها لتفاجىء الآخرين.

هو لا يعرف ما ينتظره بالضبط من أهوال لكنه يعرف ماذا يريد، هي تعرف ما ينتظرها لكنها لا تعرف ماذا تريد.

الفارق الوحيد بينهما أنه صنع خياراً واحداً، وهي صنعت خيارات متعددة.

الطريق السهل لا يناسبها، البحر الهائج أولى بها ليطوحها، لتحتال على رياحه برياحها حتى تعود.

عادت ليس في جيبها غير شهوتها، شبعت مؤقتاً من النقود، ونعيمة وأبو شندي يرقباها بعيون غائبة.

غائبان تائهان في حكايتهما، في انتظار بريجينف الغائب الذى قد يطل من الباب في أية لحظة، حيث عيونها مسمرة هناك.

تقطع ألفة عليهما الطريق، تقترب من أبوشندي، الوحيد الذي تشعر برادار الأنثى أنه لا يرغبها رغم كومة الألفاظ التي يرميها في طريقها، رغم ملابسه العادية وأنه لا يملك مليماً فائضاً، لكنه يملك شيئاً ما داخله يظهر على وجهه يجعله في نظرها أقوى الرجال، عيونه شبعانة ووجهه ممتنع مستغن تريد أن تكسر أقفاله، تقرر أن تفض أختامه، هذا الذي يظهر في عيونه أنه عاشق قديم لكنه لا يقترب منها.

تقترب:

- تحب تعمل Lamour.

- نعم !!!!

تضحك ووجهها الجامد يتحرك:

- تحب تعمل لامور؟

- أعمله وأعمل الذين خلفوه، أعرفه أكثر منك.

تدرك أنه ربما لم يفهم لكن حبله طويل.

- تحب تعمل سكس ؟

أبوشندي الذي بوغت لم يشأ أن تظهر ربكته الداخلية على وجهه، صياد قديم اعتزل بعد عشقه لأم زينة، عاف النساء لكنه يعشق بائعات الهوى.. تنعشن مناطق الروح الباردة، تدلّكنها بضحكاتهن المرقوعة وإيماءاتهن اللاذعة.

توقظن تلك الأحراش المحروقة التي لقيت حتفها من زمان ولم يتبق منها إلا رماد صدىء، تنفضنها من سباتها البارد، تصببن ماء غنجهن على الرماد لتحدث الصدمة وينفجر الجسد من ارتطام النار بالنار، ويصاعد بخار قديم ثم تتفتق العجينة شيئاً فشيئاً.

تهزه برفق في كتفه.

- لن تقدري عليَّ.

تفلت منها ضحكة فاتحة :

- بالسياسة والسيّوسة، رأس الفيل في الناموسة.

بحدة تثبت عينيها الجائعتين في عينيه.

شيطانه يلكزه بقوة ليلقي نفسه في أتون المعركة، فقط ليكسر لها أنفها،.. لم تنم مع عاشق من قبل، لم تصادفه.

لكنه بحدس العاشق القديم، ابن الليل والقنابل والانتظار والقلق يعرف أن شبكته لن تعود سوى بالقواقع.

لا تضحك على نفسك يا أبوشندي، أنت لم تعد تسجل أهدافاً حتى في شبكتك المحلية في ملعب البيت، وزوجتك التونسية التي تزوجتهاعلى غفلة من الحياة، وعلى خوف من ألا تجد من يخبر عن موتك تركتك لأنك لا تحرز أهدافاً جيدة، غادرت وقالت لك إنك عاطل عن العمل.

- تعرف، أنا شفت الثورة الفلسطينية التي تحكون عنها عندما كنت في ألمانيا، مشيت مرات في المظاهرات مع زوجي وأصدقائه- بالصدفة - ولم يقم أحد بالثورة معي.

يتطلع في وجهها.

- ما رأيك أن نقوم بالثورة معاً ؟

يحاول أن يغير الموضوع، تقطع عليه الطريق سريعاً :

- وأنا سأمثل إسرائيل وعليك أن تقتلني.

يستجمع داخله، يداعبها حتى لا تسحب رجله.

- أنت أجمل مثال على الثورة، بل أنت أفضل منها.

- تعرف ماهي أحلى حاجة في الدنيا ؟

- الحرية.

- لا لا، أحلى حاجة في الدنيا الجنس الحرام.

صحيح إنه يموت في العاهرات لكنه يعشق الباترونة منهن التي لا يطالها أي واحد إلا في المناسبات القومية، لا يرضى بأية واحدة ولا بواحدة عديمة الروح، والباترونة صاحبة المقهى التي تداعب خياله، التي يمكن أن يكسر أجنحته ويطير إليها غير موجودة اليوم.

تدق الطاولة بأظافرها لتسحبه، ثم قبل أن تنسحب وبغمزة ميكانيكية :

- جهز صواريخك.

- جهزي قنابلك.

عيونها تصعد سلالم الشهوة بسرعة الصاروخ وأبوشندي يقول داخله :

- حيرت المواجع يا بنت الـ...

يراقبها عائدة الى مقعدها، شياطين الرغبة تتقافز على كتفيها.

فضيلتها – إن كان لها فضيلة – أنها تنسى نفسها في اللذة، لا، بل تجرد اللذة نفسها من ملابسها، وعندما تستيقظ تنشل النقود من عين الحادي.

لا شيء يملأ جرتها، نهمة لا ترضى، قاعها مثقوب، لا تشبع من النقود والسكْر والجنس.

يتخيل لو استطاع أن يتجاوز محنته ويشرب معها كأساً يستمتع بها بين رشفة وأخرى وحين تصعد دماغهما يصعدها، يأخذها بماضيها ويدكها ليمسح بحاضرها

ماضيه، ينسى نفسه، لكنه وهو يعيد الكأس من شفته الى حافة الطاولة يراها هناك في قاعه تبحث عن طريقة لتخرج .

يقطع طريقها جورج وسوف:

بين الزحام أدوب، أدوب بين الدروب.

يشم رائحة العاهرة المتخفية، عاهرة بالعقل لا بالجسد، يرى وجهها الجامد، أفخاذها الصلبة أفضل منه.

امرأة تضحك من جلدها، جلد مشدود خارج من مائة عملية تجميل.

يقول لنفسه : دعارة العقل تشفط الروح.

ينظر إليها من تحت رموشه:

تمثال حي جامد، رابضة مستيقظة لكل شيء.

كأنك يا أبوشندي حين تستغني عن الأشياء تجدها عند قدميك أو تجد ما لا تريد، إذاً استغن عن الخروج من هنا فلربما يأتيك وحده، لكنه لا يقدر على الزهد، كل ما يستطيعه الآن أن يبقيها في قاع الكأس ويدير وجهه.

عملت أياماً في المقهى وخطفت فرصتها لكنها حين رجعت، رجعت زبونة للمقهى وزبائنه، جسدها الساخن دوخ الجميع، تلهب وتعرف متى تنسحب.

وكسوف يقول بحسرة : كنا نتمنى في الماضي حين عملت هنا أن ينحسر بنطالها قليلاً أو ترتفع بلوزتها من أي جانب لنرى أي شيء.

تتمشى الى مقعدها بجوار نعيمة، حفلة مباهاة باللحم الساخن، بث حي على الهواء مباشرة، سروال منحسر وخيوط تندفع من أسفل البلوزة ليسيل الوعد.

تجلس كأن أحداً لا يعنيها، زبائنها كلهم تقريباً من الخارج، لكنها تأتي إلى هنا فقط لتمارس غواية الصيد التي أدمنتها.

تطلب شيشة وعصيراً، وحين يرن هاتفها تتركهما سريعاً لواحدة من أعضاء المنتخب، وتخرج لتركب سيارتها أو سيارة أخرى.

كأن المقهى محض شبق حين تدخل أو تخرج، أو كأن مثانته تنتفخ حين تضحك، تضع أوزارها بجوار نعيمة التي لا تتحملها، طينتها لا تركب مع شرها في مركب واحد.

تلتفت ناحيتها:

- خذي نفسك يا نعيمة واهدئي، أخذت لك بثارك من الأجانب.

نعيمة التي لم تبلع الكلام الذي جاء لها على الجرح، لا يعنيها أن ينتقم لها أحد من أجنبي أو غيره، خاصة ألفة، حتى هي لا تفكر الآن في الانتقام، فقط تحاول أن تزيل وجعها.

أحياناً تفكر أن تدخر مبلغاً للزمن، تفكر في قوتها وأخيها البعيد.

وألفة كأنما تقرأ أفكارها، وبجملة عابرة للقارات والأوجاع :

- رأيت أخاك في ألمانيا.

تكاد تصرخ لكن غصة توقفها:

– بخير..

تبلع ريقها بصعوبة :

– وكيف أحواله ولماذا لم تخبريني ؟ احلفي.

– صحته حلوة، نمت معه.

بجملة واحدة أردتها.

– بخير؟

– بخير جداً، خير بلدنا.

وتضحك.

تصمتان، كل في ساحة معركته.

– البنت التي خلفتها تشبهه.

نعيمة خرست، لكن قلبها اطمأن وإن أخفت.

وألفة تستدير ناحيتها تنظر بعينيها الفادحتين في عينيها:

– أظنها تشبهه كثيراً، ملامحه، سمرته، ضحكته.

– وهو ؟

– اطمئني، بخير، لكنه خائف وقلق وهذا أمر طبيعي.

- وكيف عرفت أنها ابنته ؟

- أنا متاكدة أنها ابنته، اللبن الخائف لا ينجب غير الإناث.

باب البحر

وانضم وافد جديد إلى طاولة درة.

مثل الحكام الملهمين تبدل حكومتها من حين لآخر، تنقل بعض الوزراء من طاولاتهم لمقاعد زملائهم، الأصح غرمائهم وبالعكس، حسب ولائهم أو حسب مزاجها لا يهم، قد تعيدهم مرة أخرى، لكنها تطيل الفترة حين يشذ ذكر عن هذه القاعدة بسبب غضبها عليه، وأبوشندي يميل على أذن شادي ويخفض صوته :

– رئيسة وزراء طيبة وذكية، تفعل ما يفعله رؤساؤنا بالضبط، تنقل من الحكومة للاحتياطي ثم العكس، والجميع على دكة قلقة مشتعلة دائماً.

قانون درة، لا يستطيع أحد أن يخالفه أو يعترض، والذي يفكر مجرد التفكير أو يظهر أدني امتعاض يطرد من قهوتها، أقصد حكومتها، بالكارت الأحمر ولا يعود.

– والمشتاقون كثْر، على طول ذراعك والعدد في الليمون.

يضحك براحة : ربنا يجعله عامر.

وشادي يرد بسعادة كأنها ستهبط في حضنه :

- هي عامرة ومعمرة بالفتح والضم، أين ستذهب بعد ذلك.

انضم وافد جديد، لا يشارك في لعب الورق لكنه يتفرج باهتمام بالغ على الملعب، يقرأ أسرار اللعبة واللاعبين، مكانه إلى جوار درة تماماً، في المقصورة، تحت جناحها الحنون ورعايتها الطرية.

غسان، اسم يستعمله الشوام خصوصاً السوريين، هو كذلك غير أنه في الحقيقة تونسي من أب سوري، هرب إلى تونس في الثواني الأخيرة من الوقت بدل الضائع، قبل أن يُقْتَل هو وعائلته، كان اللاعب الأساسي في فريق للانقلاب على نظام الحكم هناك أيام كانت الانقلابات تحدث كل أسبوع وربما كل يوم، ربما لو تأخر دقائق لانتهى.

حط بأولاده كاملين في تونس، زمن بورقيبة، صار لاجئاً، وبطريقة أو بأخرى حصلوا على الجنسية التونسية وغسان أصبح اسمه فجأة سي غسان.

تربى في جو غريب مضطرب، يحكي بالسورية في المنزل، وبالتونسية في الشارع والمدرسة، تونسي لكنه عند أول مشاجرة عابرة مع رفقائه يتحول لسوري فوراً، يحولونه :

- أشعر لحظتها أنني أجنبي.

ربما هو من أحس بذلك، وبالغ في تعميق هذا الشعور داخله، حاول أن يقاوم قدر استطاعته، منعزلاً معزولاً عند اللزوم، لكنه اقتنع حين رفضوا أن ينصبوه رئيساً لاتحاد

طلبة المدرسة الثانوية رغم حصوله على الأصوات المطلوبة، ومدير المدرسة قال بصوت فصيح غليظ :

- تونسي من أب وأم تونسيين، وتجري في عروقه الدماء التونسية الحارة.

- كأنهم كانوا يختارون الرئيس.

هذه البلاد ليست بلاده ولم تكن، لكنها يجب أن تكون كذلك.

وأقسم.

أنهى البكالوريا بطلوع الروح، كان عليه أن يفتش عن عمل يعول به نفسه، أو يعول نفسه ويكمل دراسته، والدنيا هنا ضيقة، وهو وأهله مراقبون ولو من بعيد.

فليذهب إلى فرنسا، المكتظة بالتوانسة والمغاربة والجزائريين، أرض العسل واللبن، ودنيا الأحلام، والتي كأنها تكفر عن خطاياها تجاههم باحتضانهم، أو تعيد استعبادهم مرة أخرى باحتضانهم أيضاً، وبدل أن تحكمهم في بلادهم تحكمهم في بلادها، لكنه في قرارة نفسه كان يبحث عن أرض الميعاد، ووالده وافق بصمت وتجرع ألم الفراق مرعوباً من غياب سنده، متخوفاً ألا يجد من يدفنه.

حرق البحر مع الآخرين، قطعه عارياً بقميص مفتوح الصدرفي مركب وحيد بائس، في بحر عار إلا من أحلامه التي تنتظره هناك عند أقصى نقطة.

كان يمكن أن يموت بسهولة مثل آخرين وتقرضه الأسماك.

- فضلت أن أموت بمزاجي ، أن أضيع في بلاد بعيدة على أن أعيش هنا فقيراً، نكرة بلا جاه، ضحية نفسي بدل أن أموت ضحية الآخرين.

بحث عن السلطة والمال، ليعوض بهما ما كان يجب أن يكونه، ليمسح بهما إخفاقاً يعتقد أن لا يد له فيه، ولا يجب أن يتحمل نتائجه، يفكركثيراً فيما لو نجح الانقلاب، وأصبح أبوه رئيساً للجمهورية، يسرح ويهم بالصراخ لكنه لا يستطيع :

- كان عليه أن يفعل ذلك، أن يقاتل للنهاية .

يستغرق في الحكاية، يكاد يغرق فيها :

- حتى ولو مات من بعد في انقلاب آخر ؟

- حتى ولو قتل، إنها ضريبة الكبار التي يجب أن يدفعها بقناعة تامة.

بأنف طويل شره بحافتين مقلوبتين للخارج وعيون خضراء، نحيل إلا من الغل - غل يكفي أن تقوم بثورة - وحقيبة كبيرة من الأمل ، يحلم بعيشة أولاد الكبار الذين يسمع عنهم هنا وهناك ولا يراهم، وحين يضيقون عليه يقول بعصبية وأسى :

- أنت مو عارف مين أنا ؟ كان يمكن أن أكون.. ولا يكمل.

حين رفضه البحروحطت قدمه على الشاطىء نام حتى شبعت منه الأرصفة، فكر أن يكمل تعليمه لكنه داس بسرعه على الفكرة، النقود شحيحة، بالكاد تكفي لأن يكمل نصف الحلم في النوم والصحو، وروحه ليس بها مكان شاغر للعمل المرهق والرزق البطيء، روحه في مكان آخر وعدته

جاهزة،يكفيه أن يعرف الفرنسية ولديه حلم طويل وبضعة شياطين تنام بين ثقوبه.

الدنيا مع الواقف كما قالت نعيمة ، حكمة اليوم والأمس والغد، كان عليه أن يخترع لنفسه ساقين من حديد ولساناً من عسل وفلفل حار، راح يشم بقوة، وأنفه الطويل ساعده، ربما وجد الطريق صدفة لكن الصدفة أيضاً لا تذهب لأى واحد، ربما سعت الوظيفة إليه، لكنه للأمانة عَسَّ عليها بما يكفي وظيفتين.

وجدها تنتظره مفتوحة الأحضان في ساحة النضال، كان عليه أن يناضل، أن يقابلها بصدر رحب أو بالأحرى يدعي ذلك، كي يستطيع أن يرى الأمور جيداً بعقله، يعرف أن المناضلين الحقيقيين مثل أبيه يحاربون بقلبهم، انضم واعياً للمظاهرات التي تقف ضد رفع أسعار الخبز وسن التقاعد.

يريد أن يأكل أولاً ويملأ بطنه، وبعد أن أطمأن على ذلك وجد نفسه بعد أسبوع واحد مناضلاً عتيداً وهتّيفاً، يخترع الشعارات، يتقدم أمام الصفوف محمولاًعلى الأعناق، والميكروفون بيده، ملكه وحده.

الأرض ليست أرضه والهتافات ليست هتافاته لكنها صاعدة من حنجرته يرسلها إلى عنان السماء.

وحين يتبدل الأمر، ينتقل إلى مواقع الحزب الآخر كسكين في زبد، بسهولة لا نظير لها، نذل أو سياسي من طراز رفيع، فرز أول، وفي وقت قصير راح يعي في أي موضع يضع قدميه وحنجرته، وفي أي ساحة يقع واقفاً.

استقر في الحزب المعارض الذي يقوم دائماً بالمظاهرات، تراوده دائماً رغبة أن يهتف في اتجاه سورية حلمه الأول ليكون ابن رئيس، ورئيساً في يوم من الأيام، أو في اتجاه تونس حلمه الثاني، اتجاه يجد حنجرته بين يديه بدل أن تتبخر في بلاد الفرنسيس.

الحكاية بسيطة، جاهزة، تحتاج فقط لواحد نهم متطلع، كثعلب جائع وسط مجموعة من الديوك داخل قفص مفتوح، يعيش وسط الطلبة التوانسة المقيمين في الخارج، ودولتهم تحبهم وتطاردهم أينما راحوا، تطمئن عليهم وعلى ولائهم، وهو يعرف كل شيء عنهم، ماذا يطبخون وماذا يشربون، هم يدرسون وهو يتظاهر ويأكل.

كان مستعداً على أعلى مستويات التدريب وصدق النية،، جاهزاً لأن يتحول إلى جاسوس حصري من النوع الفاخر ومخبر دنيء.

وهو من زمان ناقم عليهم بما يكفي لأن يعبيء بحرين ومحيطين، لا يحبهم، وتاريخهم معاً يبشر بحراب في الظهر لا تنتهي، هم السابقون، لم يشاءوا أن يعطوه مكاناً ولن يعطوه، هو ابن أجنبي، له الصدقة والزكاة إن توفرتا وتذاكر مجانية لمباريات كرة القدم في الأعياد الوطنية، فلينتزع مكانه بنفسه بأية وسيلة، وإن تبدلت الغاية.

الذين اصطادوه توقعوا أنه الرأس الكبير، دائماً في المربع رقم واحد في أية مظاهرة، يحارب ضدهم، لكنه غير لهم اتجاه عقارب الساعة بسرعة الصاروخ ووضع عيونهم في اتجاه بندول رغائبه ومآربهم، يلعب لصالحه أولاً وأخيراً ضد الشيطان وأبنائه، ولا مانع لديه أن يغتال المسيح وحوارييه.

الذين اصطادوه خافوا أن يحرض الطلبة ضدهم، ضد نظامهم، وأن يخلق لهم من المشاكل ما يقوض به نفوذهم، كان عليهم أن يقتربوا من يديه وعينيه، يملأوها حتى يبتعد عن رقابهم، قدروا أنه ناقم مارق، لا شيء لديه ليخسره، طائش بما يكفي لصنع قلق هم في غنى عنه، متهور بشعر أجعد طويل، مبروم حتى أذنيه، بإسوارة من جلد في معصمه الأيمن، مفاتيح معلقة في حزام بنطاله، وشره واسع ، كاف لأن يستبيح روما نفسها .

درسوه، قلبوه على كل الجهات والأجناب، رموا له الطعم، في الموعد كان مستعداً تماماً، ماطلهم كسياسي بارع ولاعبهم كراقصة عتيقة، فكر في المستقبل حين يعود، فكر في أخته الوحيدة، في أن يجد قبراً نظيفاً وجنازة محترمة لوالده تعوضه عن مغامرته الكبيرة الخاسرة.

أكل قلبه في منتصف الليل بعد أن عب من الكونياك ما يكفي لقتل نصفه وإذابة النصف الآخر، مضغه، لاكه بقوة وتوكل على الله ليأكل قلوب الآخرين بمنتهى المتعة ودون ذنب.

ابن الثائر يصبح عميلاً، معادلة جديدة لزمن جديد.

أصبح جاسوساً، ينقل كل حركة، كل دبة وكل طبخة، والدينارات التي حلم بها في تونس بين يديه راحت تسقط بين قدميه وبالفرنك الفرنسي، ومن المنبع حتى تهدأ شهوته وترتاح.

- من المنبع إلى المصب نهرك يا غسان.

أرجوحة الجاسوس تناسبه، انتقم من الجميع حتى كاد يشبع، الحقيقة لم يكن الانتقام هاجسه الأساسي، لكنه استخدمه وقوداً يصعد به إلى أحلامه، وسلماً يركبه فوق كوابيسه.

مازال في أول الطريق، لا يشبع من المصاري ولا من دق خوازيقه في مصائر الآخرين.

ملعون ونذل بما يكفي لخراب مدينة، ذكاء نادر وأحلام كبيرة لها ثقل الكوابيس، خلطة سحرية كان يجب أن تختصه الطبيعة بها وحده، لكن العميل ابن الثائر عليه أن يحسب حسابه جيداً وألا يقع في غلطة ولو يتيمة، ألا يتدحرج في غلطة الأب، خطأ يجب ألا يتكرر في العائلة مرتين، وسمعة العائلة مهمة، لذا صار حذراً وخائفاً أيضاً ، يخشى ألا يستمر في موقعه طويلاً، أن يرموه على عتبة الخريف طالما انتهت الحاجة إليه ووفى دينه، هذا إن كانوا في طيبة الأم تريزا ولم يحرقوه.

- الخيل التي تشيخ لا تستمتع غالباً بسنوات المعاش.

قالها له أسير مثله أرسلوه خلفه يتعقب حركته.

- سيحلبونك حتى آخر قطرة، ثم يرمونك للكلاب التي نهشْتها من ظهرها لتنهشك في وجهك.

الجاسوس صديق فقط لنفسه، لضميره الميت، ونصيحة واحدة يتيمة تسقط من ذاكرة براءته القديمة، يرميها في الثانية الأخيرة لجاسوس طيب مثله. قال له، ثم لوح بتذكرة سفر إلى بلد ثالث لا يعرفه أحد بعد ساعات.

كان عليه أن يجمع نقوداً كثيرة، أن يصنع سمناً كثيراً حتى لا يتأثر برميله إن غاب الحليب، أو جف الضرع وانقطع.

أراد أن يعود إلى الملعب الذي خرج منه، يعود إليه كبيراً كما وعدوه، كما كان يحلم به طيلة عمره، مع حذر يكفي فرقة جاسوسية بأكملها، أو يكفي لئلا يخسر نابليون معركة واترلو.

دفع برميلاً من الزبد لواحد من الذين استخدموه، لكبيرهم، ووضع الفأس على أكتاف الآخرين، تزلقا معاً حتى اتفقا ، النصف بالنصف، وعاد.

- الفلوس الحلال من الحكومة تعود حراماً للحكومة.

يكاد يضحك، شر البلية على طاولته.

عاد منتفخاً بفلوس الحكومة ودماء الضحايا، أحس أنه يرقص فوق الجميع، وأقدامه تتقافز فوق جثث صارت بديلاً عن أديم الأرض، اشترط عليهم أن يكون عضواً في البرلمان.

مسألة سهلة بإشارة من يد الكبير، وتعويض بسيط عن خدماته السابقة.

- تطلب.. نفكر، أما أن تشترط فلا.

واللاحقة، يمكن أن يؤدي نفس الخدمات وأكثر.

فكر أن يقول ذلك، لكنه يدرك أن لا شيء بالمجان غير الموت، وأنهم بالطبع لن يفعلوا له شيئاً ولو كانت عيونه خضراء.

يستطيع من هناك، تحت قبة البرلمان مباشرة أن يفعل كل شيء ، من على المنبر تحديداً، لديه خبرة في استعمال الميكروفونات، يقف مع الحكومة ضد أي واحد مهما كانت سمنته، ويقف مع الحكومة ضد الحكومة لو احتاجوا.

أسهل شيء أن تتسلل في الأرض غير المستوية طالما أنك تعرفها جيداً، و حرثتها من قبل في ليال غير مقمرة.

الأرض ليست أرضه، لكن الغنائم يجب أن تكون غنائمه.

ولأن المتعوس أو الجاسوس يقابل خائب الرجاء، تعرف على ألفة في أول طلعة، محتالة عتيدة وقع منها ضميرها مثله، لكنها بدأت تكبر، تتعب وتفقد الطموح يوماً بعد آخر وهو مازال في أول السلم.

لم يجلس معها سوى مرتين، ثم اصطادته عين الخبيرة درة، نقلته بفرمان من عينها الثانية إلى طاولتها، وأومأت لها أن تبحث عن سمكة أخري في مقهى آخر أو رواية أخرى، حيث بدا لها وهي الملكة أن الرواية بدأت تضيق هنا وأن حكايتها تبخرت ولا يحتاج أحد معرفة مصيرها.

يتذكر الآن جيداً أنه صادف درة عابراً في إحدى غزواتها الخارجية في فرنسا، لكن سنانيرهما كانت عامرة بما يكفي من الجثث، فلم تغمزا معاً.

بغمزة حازمة نقلته إلى طاولتها، قنواتها مفتوحة على رجال الأمن والقضاء والمال، والمصالح متبادلة والشبكة تلمع بالصيد الوفير.

رمى لها كلمة واحدة أنه قريب من الجماعة، قالت بصوت قاطع وهي تغمز: إن الجماعة يلعبون الورق في حجرها، لم يحتاجا وقتاً طويلاً للاتفاق.

ورجال الأمن شموا أنه قريب ويلعب في ساحتهم.

حاول كسوف أن يصطاده لنعيمة، لكن محتالاً خفيفاً بالزيت على محتال بالسمن بالبلدي، لا ينتج طحيناً أو عواءً في سرير، ثم إن نعيمة بعجيزتها لا تساوي أكثر من صفحة صغيرة في روايته الخالدة.

حاولت باربي أن تودع صغارها، تقفل باب ماضيها وتلطشه، لكن قطاره لم يعد يتوقف في المحطات القديمة، ثم إن صغارها ينظرون إليه بريبة، نصف تونسي كان يعيش بفرنسا، وبخيل، يشمئز من أنه يقرضهم نقوداً بسيطة لا يردونها، أو يستلفون منه السجائر، يأخذون فقط نصف علبته يومياً.

كان على قطاره أن يتوقف في محطات كبيرة، الصغيرة للعابرين، ودرة صاحبة المحطات والقضبان تقدمت ورفعت له الرايات الكبرى الهفهافة، جففت المنابع من حوله، ومنعت تسرب مياهه ونقوده ونفوذه إلى قنوات الأخريات

والآخرين، واعية أنه لم يرم كل بياضه بعد، وأن بعض ذيوله مازالت تلعب تحت الماء، لكنه صار محصوراً في بِرْكَتِها وبرَكَتَها.

وأبوشندي قرأه من أول أسبوع، يشم الخونة وأصحاب الخسة من على بعد كيلو متر، يعابثه :

- كيف الحال يا سيادة النائب؟

- كله تمام.

يميل على أذنه : سيكون أول استجواب لي عن فلسطين، وسأطلب تنظيم مسيرة من هنا إلى القدس.

القمح يدور يدور ويرجع لقلب الرحى، ينظر إلى نفسه في مرآة الآخرين باعتزاز كبير، عاد بنصف ما كان يحلم به وأكثر، بانقلاب ناجح، لم يبق له سوى الاستيلاء على المقعد الذي يناسبه، حتى لو خطف مقعد نائب الرئيس نفسه، نائبة الرئيس تحاوطه ، تعد له العدة، تعدها لنفسها، يجلس بجوارها وتحت جناحها مباشرة في انتظارالانتخابات القادمة ، ورجالها، رجال الأمن راحوا يسمعون بقوة أنه قريب جداً.

إذاعة درة جعلت الموضوع أكثر قوة، وبدأت الإشاعات.

اللعبة تكبر،الكراسي الموسيقية تتبدل، والعضو المحتمل يجلس في موقع مناسب من الطاولة كبروفة محتملة للكرسي القادم، يجلس ويطيل ليسخن المعقد، لكن الانتخابات تأجلت فجأة ، وأحلامه انكمشت قليلاً بفعل

البرد الذي تسرب بين ثناياها، وهو متعجل عجول، يريد أن يتم الصفقة سريعاً، حتى لا يغير الجماعة جلودهم، ويأتوا بواحد مازالت ناره حامية ومقعده دافئ.

يعرف أن كل الخياطين والبصاصين وكل الجواسيس والمخبرين كان لهم باع طويل في التاريخ إلى حين، إلى لحظة لم يتحسب معظمهم لها جيداً فتم شطبهم بماء النار.

لكن مقامه محفوظ في المقهى، ودرة تدلله، إذا وضعوه في البرلمان فسوف تأخذه لابنتها الكبرى، لديه سيارة فخمة جلبها معه من فرنسا، ودار ملكه ومحفظته عامرة ومستقبله أمامه، وستساعده بكل إمكانياتها في الحصول على المقعد المأمول، للحظة تشككت في أن يقبلوه لأصله السوري، لكنها اطمأنت بعد أن عرفت أنه قد حنى قدميه ومؤخرته في لبن الجماعة، وراحت تدفع في اتجاه آخر.

- تونسي ويعرف كيف يطبخ الكسكس ويأكله.

وإن تعثر المشروع وهو لن يتعثر بإذن الله، فلتدخل معه في مشروع آخر بنقوده وهي بسلطتها، والزبائن جاهزون عندها.

الأمر جد خطير، والحكاية تحتاج لخطة كبيرة لا ينفد الماء منها.

كان عليها أن تختار واحداً بعينه يحمل مشروعه ومشروعها فيه على كاهله، وأن يتولاه بعناية فائقة، فكرت بسرعة أنه صيد مهم لابنتها أولاً ولها من بعد

ومن قبل، تستطيع عبره أن تدخل دنيا أخرى من بوابته، تريح ظهرها وسيقانها المتعبة على ظهره.

هي لا تعرف أن عينه من حبيبةَ المغنية، وهو يخفي الحكاية ، يدفنها حتى تطلع حكايته أولاً، ليرى إن كانت ستفقس أم لا، ومهما كانت فراستها وخبرتها في ملاعب الرجال وألاعيبهم، فهي خبيرة في غير ملعبه.

وهم حولها كثيرون، لكنها ضربت أخماسها واختارت سي المنجي، وهو ولا فخر من كبار ضباط الأمن في المدينة، صحيح أنه خرج على المعاش منذ عامين، لكن السيد الرئيس يمكن أن يعيده في أية لحظة لخبرته الكبيرة أو للحاجة إليه كما يفعل مع أمثاله، والدليل على ذلك واضح للعميان، إذ عينوه إماماً لمسجد النصر القريب من مقهاها، وهو – كرّم الرئيس وجهه – يقضي يوم الجمعة في المسجد وبقية الأيام في المقهى، يلعب الورق ويراقب المصلين الذين يفدون للمقهى نهاراً، في الليل بالطبيعة لا يحضرون، وهو صاحب براءة اختراع أن تعد الحكومة خطبة الجمعة للأئمة وتدفعها إليهم مكتوبة جاهزة أيام كان في الخدمة، كيلا يخرجوا على النص ويتحدثوا في أشياء ممنوعة أو في أي شيء :

– كي لا يدعوا للمسلمين في الشيشان

وكي لا يهاجموا حزب الناتو.

وهي تكاد تنفرط من الضحك .

تصوري، واحد منهم كان يقول : اللهم أهلك حزب الناتو.

ربطهم جميعاً بخطبة واحدة، كي يتساوى المصلون في الثواب، يراجعها بنفسه، حتى لا تعود البلد للأيام الغابرة التي كان فيها الكفرة الفجرة أعضاء الجماعات الإسلامية يلعبون بذيولهم في الشعور الوطني للأمة. وبعد أن خرج على المعاش مازال يراجع الخطبة بنفسه، وهذا أكبر دليل على الاعتراف بمؤهلاته الكبيرة وأنهم لم ولن يتخلوا عنه، الفارق البسيط أنه تحول إلى إمام وخطيب لمسجد النصر، وأصبح يقرأ الخطبة بنفسه.

ثم إنه وبحمد الله كان عضواً معتمداً ومهماً في فريق درة القومي، وإن لم يكن يلعب الورق معها أو يجلس على طاولتها، إذ كان يجلس بحكم مكانته الرفيعة ووظيفتة الغليظة في الدور العلوي، كما يليق به، كما أنه لم يكن يدفع مليماً واحداً وهذا دليل آخر على أهميته وسطوته ومقامه العالي.

هناك ثغرة بسيطة قد تعوق تنفيذ الموضوع، هو أن سي المنجي – أو شيخ الأمن كما يحلو لها أن تطلق عليه من خلف ظهره – واحد من الذين يهوون طلوعها، لا تنزل عينه من على صدرها ومؤخرتها إلا للشديد القوي، واحد من المغرمين، لكنه كان يخشى على منصبه أكثر من شهوته، ويعرف بحاسته العاشرة أن المقهى ملغوم وأن زملاءه قد يصطادونه قبل أي أحد كي يصعدوا على جثته، وأنها هي نفسها قد تتباهى به، وأنه صاحبها حتى ولو لم يقرب بئرها إلا مرة واحدة.

للشهوة سرها، تنتصر أحياناً على كل شيء، راح يلاعبها وتلاعبه على أرض زلقة بالتلميحات والتصريحات، ويتوعدها : سنفتح عكا بإذن الله، وستجدين من الغنائم ما لا عين رأت، وسنسمع ما لا أذن سمعت! وفي اليوم الذي ذهبت إليه لتأخذ نصيبها وهي خائفة إذ تسمع أنه لا يلعب إلا في الشوارع الخلفية ، لاحقه هاتف دائم من مكتبه اضطر أن يرد عليه، كان يحمل كلمة واحدة ثقيلة أنه خرج على المعاش، فلم يتحمل قضيبه الصدمة ونكث على خصيتيه، ودرة تتغنج وتقول لحلومة :

- ربنا نجاني منه، لكنه دخل به فيما بعد على المصلين.

تكمل ضحكتها :

- يا خوفي أن يعوض ذلك في غسان، وربنا يستر.

كانت خطة شيخ الأمن غير واضحة المعالم بالنسبة لسي غسان، وإن أغرقه بالكلام الكبير الغامض وبقيمته عند الجماعة الكبار.

- عليك أن تتبعني جيداً، وأن تدفع.

- أدفع ! أدفع لمن ؟!!

- لمن سوف ينهون لك الموضوع، واحد يعطي لواحد، وعليك أن تدرك أن اللعبة كبيرة.

- كما ترى.

- أنا لن أضع شيئاً في جيبي، حاشا لله.

يقول وهو يهز مسبحته أمام عيني غسان اللتين تاهت الحكاية فيهما، بعين بها حزم وأخرى بها بركة، يربت بيد تفرم ويد تمنح البركة.

لكن للحق كان هناك بصيص نور بالطبع، وجزء غير مخفي من الخطة ألقاه عليه كما يليق بإمام وخطيب حازم :

- أنت تعرف بالطبع أن بلدنا عظيمة والحمد لله، والناس تحب السيد الرئيس.

- وأنا أولهم، من لا يحب السيد الرئيس.

- لكن هناك الملاعنة والزنادقة المهزومون من قبل، وبعضهم مازال متخفياً، يضمرون الشر وإن أخفوا، وعليك بشيء واحد فقط كي تحصل على ثواب الله والرئيس معاً.

على رأسه الطير، لا يدري إن كان هذا الرجل يستغفله أم لا يعرف قدره، بعيون خضراء مفتوحة يكاد لونها يبهت .

- عليك أن تراقب المصلين حين أردد الدعاء في نهاية الخطبة.

- كيف ؟

- حين أقول اللهم انصر رئيس الجمهورية، عليك أن تعرف سريعاً من الذي لم يقل آمين.

- .....

- ستجدهم لا ينطقون ولا يردون، غيِّر مكانك كل جمعة من زاوية لأخرى، اجلس وظهرك للحائط الجانبي كي تستطيع أن تراهم جيداً من وجوههم المكشوفة لك.

كانت بقية التعليمات الصارمة بألا يقترب منه في المسجد أبداً، سيتقابلان في المقهى بعد الصلاة، وأن يحاول أن يعرف أسماءهم، يتلطف إليهم ويمكن له أن يدعو واحداً منهم إلى مقهى آخر يكملان التسبيح هناك، وألا يدعو اثنين إلا في حالات نادرة، حتى لا يتسرب الشك من أحدهما للآخر.

- واترك لي الباقي.

مهمة سهلة بل تافهة لمخبر عتيد، حائر أيضحك أم يبكي ؟..آخرتها أن يعرف من شفاه المصلين إن كانوا مع الرئيس أو ضده.

للعب أوقات لا بد منها :

- وقلبه ؟

- القلوب لله، نحن علينا الوجوه، وما في القلب سيظهرعلى الوجه في المسجد، وأنت خبير.

للأمانة لقد أبلى غسان بلاءً حسناً، الفارق الوحيد أنه لم يكن مقتنعاً هذه المرة بهذه اللعبة التافهة التي لا تتناسب البتة مع تاريخه المكتظ بالجماجم،

لكن للرغبات أحكامها خاصة حين تكون خارج السياق، يتذكر جملة ألفة : أحلى حاجة في الدنيا الحاجة الحرام.

وجاءت الانتخابات، لم يظهر اسمه ولا وضعوه حتى في الاحتياطي ذراً للرماد.

- حلقوا لي بسرعة.

حلقوا له على الناشف، قصوا شعره المفلفل الذي خبأ فيه صولاته وجرائمه، وشيخ الأمن الذي ظهر في المساء كديك فصيح في غير موعده شده من قميصه :

- الحرب ليست جولة واحدة، عليك أن تبقى صامداً على إيمانك بالله وبي، في المرة القادمة سأقولها من على المنبر وسآخذ معي كل المصلين، ثم سأقولها لك بكل صراحة، لا تنس أنك من أصل سوري وهذا ما عقّد المهمة هذه المرة وأجَّلها، والمسألة تحتاج لجهود لإثبات ولائك لنا.

يا خبر أسود، القمح يدور بجنون ويعود صاغراً لقلب الرحى تطحنه، تفتك به كيفما تحب وتطلقه وقت تحب ناعماً أو خشناً، طبعت عليه قبلتها الأخيرة، وأنت لست قمحاً ولا فولاً، أنت نبت شيطاني مثل بنت من طائفة تحب شاباً من طائفة أخرى تلعب معه كيفما أرادات، أما أن تتزوجه فلا وألف لا، على الأقل هي تحب وترغب أما أنت فتحب وترغب، رغبتها تحيي ورغباتك تميت.

روحه في قدميه، وحلمه يساقط أمام عينيه، سكران ولا خمر، حين استفاق على صرخة مهدي :

- أنا مسيحي، أنا حر.

مهدي حر يختار ما يشاء ويصمد أمام حلمه مهما كان بعيداً، مُصر وليس في يده غير قبض الريح، ولا يوجد من يستطيع أن يحرمه من حلمه حتى لو حرموه كل شيء.

يقترب منه في غير وقته، وبابتسامة طفل يطلب حلوى روح الموز من أمه :

- أنت كنت في فرنسا وتعرف كل الناس، ما شاء الله، وتصلي في الجامع كل جمعة، بالله عليك ادخل على الكمبيوتر وسجل اسمي في كشوف المارينز، أو كلم لي أحداً من معارفك.

- في وقت آخر.

.. بالله عليك، حلفتك بالمسيح، أنا أنتظر منذ سنين، ولم أحصل على أي شيء.

- عليه الصلاة والسلام.

يكاد يدفعه بعيداً ويمضي، لكنه يدرك الآن أنه واحد من ضحايا أمثاله، أو واحد من ضحايا من يضعونه الآن في المحرقة، وربما كان واحداً من ضحاياه هو ، يمسك نفسه عن الثورة ضده، يرد عليه بتأمل واضح وهو يسمع صوت الخابور يدوي في ظهره :

- يا مهدي، أنا يهودي، أسلمت وسلمت ولم آخذ شيئاً.

الطاولات كاملة هذه الليلة ، والأحلام أيضاً.

باب الرجال

الطاولات كاملة هذه الليلة ، والأحلام أيضاً.

ليس هناك طاولة فارغة، ليس هنالك حلم غائب، ما من أحد تأخر عن الميعاد، اللهم إلا حلم مهدي الذي لا يعرف أحد له ساعة، لكنه قد يظهر في أية لحظة.

انظر، ها هو قادم، كأنه ما كذب خبراً، حلمه في المقدمة وهو خلفه، مهدي المسيحي الوحيد المعتمد في المدينة، تظن أحياناً أنه المسيح نفسه أو بولس الرسول أحياناً، يقف منتصباً على الباب بقامة مشددودة، وصدر مفرود كمن يجلجل بوقفته، وبعينين واسعتين حادتين يندفع كقذيفة بلاستيكية إلى قلب المقهى، يعلن عن حضوره والوجوه تلاحقه، ثم فجأة بعد أن يتيقن أنه أنهى البروفة الأولى كما يجب، يلملم أطرافه وينزوي في ركنه البعيد، يراقب الجميع بقلق خفيف.

يقلب عينين محمرتين بسرعة فائقة، يراقب بدأب من يضعون جهاز كمبيوتر أمامهم، ربما ينتقي واحداً يهبط عليه ليسأله سؤاله الخالد عن صفحة أمريكا وقوة المارينز، وبالطبع سوف يعزف له السيمفونية الخالدة ويقص عليه حكايته، وأن الحكومة والآلهة تقف ضده، لاعمل لديه ليستره ولا أمل لديه حتى نهاية عمره طالما أن الحكومة الظالمة باقية، ولا مسيح يأتيه ليخلصه، يستعطف في طلبه مرة ويندفع مرة.

- الحكومة تطاردني، والقساوسة يدعون لي ويمسحون على رأسي بالصبر وأحياناً بالخبز، وأنت، أنت ستساعدني.

يعزف نفس اللحن بنفس درجة الشجن كلما خطت قدمه المقهى، لا أحد يستجيب له ولا هو يمل .

كأنه يعرف بغريزته أن أفضل طريقة لتحل مشكلتك هي ألا تستسلم، لا يستسلم، البعض لا يأخذه على محمل الجد وإن تعاطف معه بابتسامة، البعض الآخر يشتري دماغه، يعرف أن شوارب أعوان الأمن تتابعه حتى وإن اعتبرته كماً مهملاً أو ناموسة يمكن أن تُسحَق في ثانية، وهناك من هو في غنى عن المشاكل خاصة التي يكون الجماعة طرفاً فيها، يعرف أن مهدي قد يتحدث وسيقلب له دماغه وربما حياته بين لحظة وأخرى.فعلها أحدهم، تعاطف معه حتى الذروة ولم يفكر في البوليس، فاضطر أن يغادر المقهى سريعاً ولم يعد إليه ثانية.

لكنه هذه المرة كسر التوقعات وكل التخمينات، اتجه فجأة بخطوة منتظمة عالية تليق بالمارينز إلى مقعد فارغ بجانب أبو جعفر الذي يجاور أبوشندي وشادي، حط على طاولتهم كالقضاء المستعجل، مؤدياً التحية العسكرية في حركة تليق بمستقبله، وموجهاً داناته لأبوجعفر :

- أريد أن أذهب إلى العراق.

أبوجعفر حملق طويلاً في هذا الكائن الفضائي دون أن ينطق.

- المارينز الآن في العراق، أريد أن أعمل معهم، أصبحوا قريبين منا.

لو كان أبو جعفر في عقله لربما صفعه بسرعة دون أن يهتم لعضلاته، وربما رماه بالكرسي الذي يجلس عليه، وعاجله بقذائفه المتنوعة من عيار الخونة والعملاء والمرتزقة وشيّعه بالبصاق، لكنه في دنيا ثانية وعالم آخر، وعيناه لا ترى العالم – إن رأت – سوى على شاشة تليفزيون قديم بالأبيض والأسود.

لم يعد في استطاعته أن يأتي إلى المقهى وحده، يمر عليه أبوشندي أو شادي ليحْضراه، يمران معاً، أو كل منهما بمفرده، لأنهما موقنان أنه سيهاتفهما في منتصف الليل أو آخره يخبرهما بأنه سيموت في الحال، وبدل أن يتحملا هذا العبء كل ليلة يمران ليأخذاه معهما من البداية حتى لا يفسد عليهما قعدتهما بهواتفه ، إلى أن يسأم أو ينام في طاولته ليحملاه بعدها إلى سريره تائهاً في آخر السهرة.

يحضر جثة صاحية ويعود جثة نائمة، روحه في مكان آخر، أبو جعفر المهزوم الذي انتهى من معظم أحلامه تقريباً، ولم يبق له سوى حلم واحد وشاحنة كوابيس، وضع الخطط اللازمة للنضال، ملفه الكبير الذي كتب عليه بخط عريض "حناجر القصب " وحين تعب من الخطط ومن تكوين جيوش المقاتلين الذين سوف يدحرون المشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة، انتقل إلى المرحلة العليا من النضال بتكوين جيش من بائعات الهوى يمسدن له ظهره ويدعكن له ركبتيه المتعبتين، يطبخن له ويأكلن عنه على أمل أن يريهن قضيبه مرة ويشعلن ليله ومزاجه ولو مرة أيضاً بحناجرهن، لكنه مريض تماماً على شفا الحافة، يصحو يوماً ويغيب عشرة، لا أحد يعرف له سبباً أو وجيعة، وأبوشندي يقول : الرجل مات من الداخل تماماً،أوجاعه هنا ومرضه في مكان آخر، زمنه انتهى، أصبح بالكاد حكايات قديمة مرة، وأهله تبخروا، من مات مات، والباقون مشتتون في بلاد لا يطولها، وهو تشتت مع الجميع وبين الجميع، لم يبق شيء.

لا أدوية العراق أصبحت صالحة له، وبدلاته خير شاهد عليه، بعد أن ضيّقها بليت كلها دفعة واحدة، برأس تائه في كل الاتجاهات ينتظر هاتفاً من هنا أو هناك ليطمئن على ابنه أو زوجته وبقية أهله، يكلم نفسه طول الوقت، لا شيء سوى خيالات تعبر أمامه أو أوهام يصنعها، على حافة الجنون تماماً، على شعرة، إن لم يكن قد انزلق فعلا بقدمه اليمنى.

وكسوف المحتال يسامره، هو الذي تبقى له من صنف المجاهدين، يأتي به إلى المقهى صباحاً وقد يعيده، يرتب له من تبيت معه مقابل أجر لها وأجر له، وإن تعذرت المجاهدات الطيبات لغزوة خارجية يبيت عنده حتى لا يقلق منام أبوشندي وشادي في مؤخرة أنصاف الليالي، وبين يوم وآخر يقول له بصوت خفيض مشحون إنه لا يصدق أن صدام مات، وصاحبنا ينتفض كأنه برىء وشفى من كل أوجاعه :

- نعم، صدام ما مات.

ينتظر من يكذب عليه، من يقول له ما يحبه ويهواه، وكسوف سيد الكاذبين إلا في موضوع صدام، ينسجان معاً حكايات عن شبيهه الذي أعدم مكانه، وأنه ينتظر اللحظة المناسبة ليظهر.

لا يتعبان :

- صدام يمكنه أن ينام مع هؤلاء البنات كلهن في ليلة واحدة.

يصنعان اللعبة معاً، يغرقان فيها في كل وقت في البيت والمقهى، وصدام مازال موجوداً على ظهر الدنيا، مازال مختبئاً، وسيظهر كالمسيح في أية لحظة، ربما في آخر الرواية، وما إن يسمع مهدي اسم المسيح حتى يقرع نواقيسه، يسحبهما من الوهم اللذيذ ويدخل في الحوار:

- نعم، سيظهر المسيح، وأنا في انتظاره.

وكسوف الذي استفاق يلاعبه :

- أين ستقابله ؟

- هنا في المقهى، يمسح دموعي ويلبي طلباتي كلها في غمضة عين، لأرتاح.

يتطلع بعيونه للسقف حتى يصل السماء الثانية :

- سيأتيني في أي مكان.

ينحني على أبوجعفر، يميل بجذعه الثقيل، يهمس في أذنه :

- أريد أن تساعدني لأذهب إلى العراق.

وأبوجعفر ينتفض فجأة على حيله كمن استعاد صباه،، يكاد يزأر :

- بل أنا الذي أريد أن أذهب الآن إلى العراق.

يكررها مرتين، في الأولى يصرخ، في الثانية بصوت مجروح، رويداً رويداً يهبط على مقعده، ومهدي واجم لا يفهم شئياً، لا يعرف إن كان أبوجعفر مثله يريد الذهاب للعمل مع المارينز أم لا :

- خذني معك، نذهب معاً.

لا يسمعه، يتمتم بجملة واحدة :

- صدام ما مات، صدام ما مات.

ثم ينخرط في بكاء طويل.

وأبوشندي بصوت حازم، بمرارة واضحة يؤنبه :

- تقتل إخوتك في العراق من أجل أن تعيش يا مهدي، تقف على جثثهم لتأكل ؟

- يقتلونني كل يوم ، ولا أحد يدافع عني، ولا واحد، ولا آكل.

أبوشندي يعض على الفص الباقي من روحه، مشفق على مهدي، يكاد يتفجر ألماً أمامهم لكنه يربط على نفسه، مكلوم لأجل صديقه: بضاعتك ليست هنا يا أبوجعفر، لم تعد حتى هناك، لا أحد يحتاجها، أو يتذكرها.

حين تفقد أهلك ووطنك، وأنت صبي أوشاب ستبحث عنهما في ثقب الإبرة، ستجد لك أهلاً آخرين ووطناً مؤقتاً، وحين تفقدهما وأنت على مشارف الستين لا يتبقى لك سوى بائعات الحب، دون أن تشعر تكّوِن جيشاً منهن، يصبحن وطناً احتياطياً، يلاعبنك، يهتممن بك كسائح ليبي أو من الهنود الحمر ويغنين لك النشيد الوطني الذي يعوضك عن نشيدك الأصلي.

وحين تفقد أوطانك الأصلية، ولم تعد قادراً على اللعب في الأوطان والأحضان الاحتياطية لا يتبقى لك سوى الجنون، حتى الجنون أحياناً يخونك ويخلف موعده لتبدو أضحوكة أمام نفسك.

يبدو مثل بطارية قديمة في سيارة معطوبة تعمل فيها عين واحدة هي عين البكاء، العيون الأخرى نشفت، نضبت وتشققت، مخه ضرب وانعطب ثلاثة أرباعه ولم يعد به سوى ربع واحد خامد، ينتفض فجأة كذكرى بركان يقذف جملاً حادة حيناً ومكسورة أحياناً أخرى، لا يعرف على الأغلب من هو ولا أين هو.

وأبوشندي في لحظة مغسولة باليأس يتمنى له غصباً عنه أن يموت، يوقن أنه المثال الحي على ما جرى لهم جميعاً، تمثال من لحم، يراه يتحلل أمامه، ولا يستطيع أن يلملم ما يساقط منه، مرعوب من أن تكون هذه نهايته هو أيضاً.

متوتر طوال الوقت، راح ينسى أن هدفه الوحيد أن يهاجر، مع أن الهجرة هي الحل المثالي له، والجلوس هنا هو الحل الانتحاري بعدما خلعته زوجته المتعشطة للحياة المريحة، خلعت برقع الحياء وأخذت طفلتيه وانسحبت إلى بيت أهلها في انتظار أن يأتي لها بالحل السحري، بالنقود أو يهاجران للبنان حيث اللبن والعسل الذي حكى لها عنهما طويلاً.

يفكر، يهرش رأسه :

لا يا أبوشندي، هم أبوجعفر أكبر من همك، على الأقل أنت تعرف أين بناتك، وهو لا يدري أين أهله، وما إذا كان يكلم أشباحاً أم جثثاً.

لا يا أبوشندي، همك أوجع من همه، دماغه ساحت ودخل في متاهات الخرف، أما أنت فتركتك لشياطينك أمامك وخلفك طوال الوقت.

هو لم يعد خائفاً من شيء، وأنت مرعوب من كل شيء.

أنت لا تخشى شيئاً قدر خشيتك من الخرف، تخاف أن يدهمك، فلا تعرف أين أنت ولا من أنت.

تريد أن تموت مفتوح العينين، تودع ذاكرتك وماضيك بشجاعة لم تفتقدها يوماً أمام الشدائد، لذا تبالغ طول الوقت في لعب الورق، الورق يجعل الذاكرة حية متوقدة، لذا غيرت عاداتك ودخلت في علاقات مع بشر لم تكن تعرف بقية أسمائهم، ولم تكن تريد حتى أن تتحدث معهم، ولا أن تدخل دينهم ودنياهم.

كان يقف منتظراً حافته التي سوف يقلع منها ذات يوم، الحافة التي كان يعودها كل شهر ليطمئن أنها مازالت في مكانها، وأن البحر الطيب لم يبتلعها، وأن الغمامة مازالت تروح وتجيئ فوقها لتحرسها.

في المرة الأخيرة وجد مباني الأسمنت قد دقت أساساتها فيها وملأتها، وصور السيد الرئيس تحاوطها فانقبض قلبه، وجملة أبو جعفر الذي تاه طويلاً ثم نطق بها ترن مدوية في أذنه :

- لا تنتظر بريجينيف، بريجنيف طار إلى مكان آخر يبيع فيه بضاعته وتركك وحدك هنا.

وهو يفكر، كأنه لم يكن حقيقياً، بل وهماً يبيع وهماً، أو كأنه حقيقة من إسفنج تسرب إلى البحر.

ماء وسخ تسرب بين الأصابع، سراب تحول إلى سراب.

لا أحد ينتظر أنبياء الآن يا أبوشندي، زمن الرسالات انتهى.

ملامحه من بلاستيك، كأنه لم يعد ينتظر شيئاً، يعرف أن الثورة راحت من زمان لكن دم الناس الذي سال على الأرض في كل شبر وفي الخنادق هو الذي حافظ على روحها وجعلها تستمر وقتاً إضافياً، الخسارة فيما مضى كانت في الأرواح، لكنها الآن تعشش في الروح.

يعي الآن تماماً الخسارة، وصوت حسن الدهماني المغني التونسي يكمل له بقية الحكاية حين ينطلق من سماعات المقهى : (الغربه يامّايه، جرح بلاش رصيف).

يلعب الورق كي يفعل شيئاً مفيداً في الحياة ويوغل، كي يحتفظ بعقله، أحياناً ترتخي همته ويستسلم للأمر.

حتى لو خرفت وذهب عقلك يا أبوشندي أفضل لك، لتنسى كل ما حدث لك، لكن صوت طفلتيه يرجه، يوقظه من استسلامه.

يلعب ويتفرج على الرجال، يلعب مع مُحَمَّد كازانوفا، مُحَمَّد شهريار، الذي أتى على كل البنات إلا واحدة لحست مخه، يجلس مع فتياته وأحياناً أصحابه، وبين فترة وأخرى ينسل إلى سيارته أمام المقهى ليعب زجاجات البيرة من وراء الجميع، البيرة التي لا يستطيع أن يدخل بها للداخل وإلا أكلته درة هو وفتياته، ثم يدخل نصف متطوح نصف منتصر، يقول له : يا بني اهدأ وتزوج، لن تشبع طالما تحمل مسبحة في يدك لتعدهن ، النساء لسن بالعدد، لن تشبع بهذه الطريقة، الأكل بالعين والنساء بالعين والروح أيضاً.

– قلت لك، أريد أن أتزوج واحدة تأتي لي بالنوم، تجعلني أغمض عينيَّ تماماً.

يحرك إصبعه كأنه يفكر :

– أريد أن أتزوج المغنية باسكال مشعلاني، أنت تعرفها طبعاً، أجمل واحدة.

لا يعرف إن كان يمزح أم لا، لكن ملامحة جادة، يجاريه ويأخذه على قدر عقله :

- يا بني، يا بني باسكال وجهها ثقيل، بروح خشبية، أنت تحب العرائس الحلاوة، والعرائس الحلوة التي تقع في يدك لا تعرف قيمتها ولا حلاوتها.

يكاد ينصرف عنه، لكنه يعرف طيبة قلبه :

- ثم إن هذه تحديداً لن تأتي لك بالنوم، بل ستطيره من عيونك.

وبحزم كأنها المرة الأخيرة التي ينصحه فيها :

- اختر واحدة فقط بقلبك واطرد الأخريات، عقلك لا يعمل، استعمله مرة، اطرد التي طردتك وستنام ساعتها جيداً، أو تزوج بواحدة طيبة واركض وراء الأخريات، ستنام بعمق أيضاً.

يكاد ينفخ : أنت تريد واحدة تأتي لك بالنوم، وأنا أمة مُحَّد بأكملها لم تأت لي به .

لا تجعل طريقك باتجاه واحد مثلنا.

يود لو يقول له إنه يكاد ينقب الأرض ليبحث عن اتجاه آخر لولا أن اتجاه الأرض يذهب به إلى الموت، ولو استطاع لاخترع جهة خامسة بدل الجهات الأربع.

يكاد ينتهي إلى نتيجة نهائية : كازانوفا هذا ما كان يجب أن يدخل في باب الرجال، باب النساء أولى به.

يحاول أن يقنع مهدي أن يجد من يتوسط لدرة ليعمل عندها حارساً ليلياً للمقهى وحالها بالطبع أفضل من حال العراق، مع أنه يدرك أنها قد لا توافق بسهولة، لا تريد وجع رأس، يكفيها أنها تتركه هنا يقضي وقته يأكل ويشرب ويحلم بالذهاب للعراق ويحلم بالمسيح والمارينز، كما أن أصحابها من جماعة الأمن لن يوافقوا على ذلك ومهدي يعتبرهم عدوه الأول، هم الذين منعوه من العمل، ورفضوا أن يعطوه بطاقة هوية للعمل أو السفر من أصله، لكنها مجنونة، من الممكن أن تضرب في رأسها وتفعلها.

لكأنك تنسى مشكلتك يا أبوشندي وتحل مشاكل الآخرين، أو تدفنها في حكاياتهم، لا، أنت لا تفعل ذلك إمعاناً في الهروب، لا تحتاج إليه ولا تقدر حتى عليه، أنت تضع مشوارك بين عينيك تماماً، وتتذوق لسعته كجرح حي لا يتوقف نزيفه.. (والغربة يا مّايا.. جرح بدون رصيف).

أنت الآن أمام الحقيقة كاملة دون رتوش يا أبوشندي، الحكاية كلها أشباح في أشباح.

تعتقد أن كل واحد أو واحدة هوالشاهد الحي على ما وصلت إليه الثورة، لكأنك تنسى أنك الشاهد الملك والحقيقي الذي يشرح المأساة، يجسدها دون أن يحتاج ليرفع صوته أو يحكي.

يراوغ نفسه، يحاول أن يزوغ منها قليلاً، فليضع همه في هم شادي، نجمه خفيف ودماغه في الأعالي، لا يهبط من سمائه كثيراً، لا يمكث في المقهى طويلاً إلا لإرضائه، على نار دائماً في انتظار عشيقته التي تهاتفه في أوقات مفاجئة، وهو يحافظ عليها وعلى مواعيدها بحبة عينه، وأحلامه على مستوى الطاولة التي يجلس عليها، على مستوى حزام البنطال الذي يعبر أمامه، أولاده في حضن أمهم وجنسيتها، ولن يحتاجوا أن يغيروا أسماءهم، بعد أن استقر على اسمه الأخير، مودعاً السنوات التي قاسى فيها الأمرّين وحمل عشرة أسماء بعشرة باسبورات لم يعد يتذكر بعدها اسمه الحقيقي، أحياناً يختلط عليه الأمر حين يقدم طلباً أو ينهي معاملة، يكتب اسماً قديماً غير الاسم الذي يحمله الآن، تعجبه شرنقته الحريرية التي صنعها من أنامل

وآهات الأخريات، متصالح تماماً مع نفسه كأنه عبر المانش بيد واحدة، بابتسامة مرتاحة على وجهه :

- الطقس هنا بارد منعش، والدنيا خضراء لذيذة، والبنات الله يكرمهن،حارات يدفئنها، وبنت صغيرة تحبني وتعطيني أكثر مما تخيلت ولا أريد شيئاً آخر.

تعب من الأحلام، اختار آخر حلم دق بابه بعشيقة حلوة، أمسك به وعاش فيه بعد أن قضى شباباً مكبوتاً وسط القنابل والدموع البلاستيك.

ينظر إليه وبلهجة حازمة :

- لا أحلم بأكثر مما أنا فيه.

وأبو شندي لا يرد، يتمنى لو يستطيع أن يتبادلا المقاعد والنساء، لكن عيون شادي الذي يستدير ليواجهه بمقعده تحمل أكثر مما يستطيع هو، وكأنه قرأ ما بداخله :

- اسمع.. كنت أحلم بدخول فلسطين مع الداخلين، مثلهم، أغني لهم، أنا الحادي، أدخل لأضع كوابيسي تحت وسادتي وأنام أو أموت سعيداً.

يهرش جبينه بعصبية واضحة :

- لم أستطع، نعم لم أستطع، الآن أعتبر كل واحدة فلسطين، أحبها، أسعد بها، أدخلها سعيداً، أضع حلمي بين ساقيها وأنام.

يضحك، ضحكته تعبر الطاولات إلى باب المقهى، وأبوشندي ينفرط مثله أو أكثر:

- اسمع ولمرة أخيرة : تونس جهة القلب، جملة مفيدة، أجمل مدينة في العالم.

يعشقها رغم أنه يدرك أنه هنا على الحافة تماماً، ربما يحبها لأنها الفرصة الأخيرة له، ولأنه لا يستطيع مقاومة الغرام الذي يوقن بأنه لن يجده في أي مكان آخر.

يرن هاتفه ، فينهض سريعاً بضحكة حية ، لا ينسى أن يقبِّلَ أبوشندي كممثل في أدوار الغرام، ثم يمضي كطفل جاءته لعبة جديدة.

تلعب الورق يا أبوشندي، تلعب لتقتل الوقت المقتول ، في انتظار وقت آخر لا يجيء، أنت بالكاد سترة مستعملة قديمة، لن يصلحها الكواء، ولن يفلح فيها البخار.

يتأمل أغلب الرجال الذين يأتون للمقهى، وجوههم مكسوة بلمعة فاقعة، يلبسون ملابس عتيقة لامعة، اقتنوها من سوق الملابس المستعملة التي تنعم عليهم بها أوروبا، من فرنسا تحديداً التي مازالت حنوناً على أهل مستعمراتها القديمة.

الوحيدة التي لا تشتري منها هي نعيمة، حتى لا تلمس جسدها قطعة ربما ارتدتها أختها في إيطاليا من قبل، وجاءت الطوبة في المعطوبة لترتديها هي من بعد.

- جسمي يأكلني لو قادتني قدماي مرة للسوق، أستدير سريعاً وأخرج.

حتى مجيد اللبناني آخر واحد من الممكن أن يدل على اللبنانيين كما يقول أبوشندي يلبس من هناك، ويتفاخر أنه يستطيع أن يلقط أفضل القطع بنظرة واحدة و بأتفه الأثمان، لكنه شيطان يعرف كل الماركات ويعرف كيف يلبس.

أنت تنسى يا أبوشندي سيدة الطبقة الراقية التي لا ترتدي تلك الملابس ، ملكة المقهى درة هانم أو لِلّا درة كما يطلقون عليها أحياناً، تأتيها ملابسها تسعى إليها من باريس من دبي حتى ولو خلعتها ونسيتها، يأتيها الحرير ورغم مظهره اللامع يبدو في عينيك - كأنه حرير مستعمل، هي نفسها مستعملة، ولا يمكن أن تكون هي والملابس.

يمسح المقهى بعينيه، يرى الرجال كلهم يناضلون في كرة القدم، يغرقون في لعب الورق، ويلبسون ملابس مستعملة.

يرى الجميع مثل ملابسهم، كلهم درجة ثانية، ينظر إلى رجال هاربين من بيوتهم، يفتشون عن نزوة أو إغراء يرطب الروح، دخلوا في القروض، أدخلتهم الحكومة في نفقها كي لا يستطيع أحد أن يلتفت وراءه ليرى شيئاً، سوى تسديد أقساطه المنهكة، يلفون في ساقية ولا يعرفون متى يتوقفون.

يفرون من الأقساط ومن زوجاتهم، باحثين عن نساء مستعملات، ينتقمون بهن وفيهن من كل شيء.

تستطيع أن تعرفهم من وجوههم، لكنك لا تعرف ما في قلوبهم.

قلوب الرجال صناديق مقفلة يا أبوشندي مثل قلبك، وأحلامهم بطيئة هذه الليلة على غير العادة، الأحلام السريعة كالحب تشهق سريعاً وتمر سريعاً، والأحلام البطيئة كالموت كالكوابيس أقدامها ثقيلة وأنفاسها متحشرجة.

تعبر أمامه درة، تأمر كسوف أن ينزل صور السيد الرئيس من الحائط، ينفض التراب عنها ويلمعها.

- هل سيأتي لزيارتنا ؟

- اخرس أنت.

تلتفت لأبوشندي : أفكر أن أطبع صورته على بلوزتي.

- على كل البلوزات ؟

- وعلى كل ملابسي.

تمرر يدها على ما تيسر من جسدها سريعاً ولا تنسى أن تمس عجيزتها.

تمر وهي تهزها بجسارة فائقة يمكن لها ودون مساعدة أن تحمل عليها السيد الرئيس نفسه لا صورته فقط، يقسم بينه وبين نفسه أنها رغم اللعب والدلال أكلت الكريمة فقط من فوهة الكأس، لكنها لا تعرف جيداً طعم العصير تحته.

يكاد يحلف أنها لم تستغث على السرير من قبل، وأنها تنفس عن نفسها في اللعب الحامي بالجميع.

تتبختر أمامه، يقول لنفسه : هذه المرأة على أية حال أفضل مني، ليست بائعة هوى وليست بائعة حب، هي عاهرة بالمعني الحريف بالتمام والكمال، بالذكاء والفتنة، تستطيع أن تواجه أي واحد، بشخصيتها بجمالها بنفوذها، بنهديها تحديداً، بأعوان الأمن الذين يسكنون قهوتها وتعشش في شهواتهم وأدمغتهم.

تستطيع أن تنام مع سفيان سنينَ، ثم تركله يتدحرج تحت قدميها يلعق أيام ماضيه وحاضرها ولا يجرؤ أن يفتح فمه بكلمة، ولا أن يحلم دون إرادتها ولاخارج مدارشهوتها.

سفيان الذي يبدو كحكاية في المؤخرة، لا ينتبه له أحد إلا إذا بسطت له جملة أو ابتسامة أو كلمة تبل ريقه، مع أنه ينفق كل وقته في المقهى، هو عمود المقهى، بل كل أعمدته.

أقصى أحلامه أن يقضي نصف وقته يراقبها ويده تتنقل في جنبه الشمال من قلبه إلى جيب بنطاله.

هذه المرأة تستطيع أن تواجه العالم كله، والأنكى أنها تستطيع أن تواجه نفسها.

يقول ذلك ويكاد يصرخ: تستطيع أن تفعل أي شيء، أن تستغيث وتجد من يجيب، أما أنا فلا، لا أستطيع مواجهة البقال والجزار، ولا الصباح القادم ولا عيون طفلتيَّ ولا لسان زوجتي الفالت ولا شهوتها للحياة على جثتي.

– هذه الدرة أفضل مني بكثير، أنا مستعمل وهي لامعة جديدة بختم البنك.

هي تناضل تستمتع بنضالها تسعد به وتفخر، أما أنت فلا يعني نضالك أحداً، وحتى لم يعد يعنيك.

صوتها يأتي ثانية تنادي على كسوف ليترك ما في يده وسفيان ليترك ما في جيبه، يصعدان على عمودي كهرباء متقاطعين يعلقان لافتة من اللافتات التي تعودت أن تعلقها على بوابة المقهى لتهنئة السيد الرئيس في كل المناسبات، هذه المرة كتبها لها الشباب أحباب باربي الذين يقضون وقت الظهيرة في المقهى.

يخرج ليرى : مقهى لمة الأحباب يهنىء السيد الرئيس بعيد الخريف.

باب النساء

بالطبع ليست كأحلام الرجال، قد تتشابه معها في أن بعضها مكتوم لكن أكثرها صاخب ومدو.

حلُومة بين بين، بصوت نصف مكتوم تسب الحكومة التي تعطل استخراج جواز سفر لها، لتطير على أول طائرة حيث ينتظرها أصدقاؤها الكثر في مختلف بقاع العالم، ولولا خشيتها من غضبة أعوان الأمن المزروعين في المقهى ليل نهار لسبت

الرئيس والحكومة علناً، ولولا كسوفها من درة لفعلت ما لا يخطر ببال، درة التي تشتم رائحة غضبها، تقترب منها وهي تلعب بحواجبها :

- ما بك يا عشيرتي ؟

تضحك.

هي تعرف ما بها، ووعدتها أن تأتي لها بالجواز في حجرها، لكن عليها بالصبر قليلاً حتى تجد فرصة مناسبة أو غزوة في الجو تنهي بها الموضوع حتى لا تدفع أثماناً باهظة.

- أنا وعدتك.. الصبر، طولي بالك.

ترد بغضب طفل ارتاح لكنه نزق خائف على لعبته :

- كان الأفضل أن تصاحبي السيد الرئيس ونرتاح من الهموم.

تهز حاجبيها لأعلى مرات بسرعة :

- لو مات، بعينه.

تضحكان، تعود كل واحدة إلى موقعها، درة إلى حيث ترتب دولة أحلامها التي لا تنتهي، وحلومة إلى دولتها أمام الكومبيوتر وداخله.

في المقعد نفسه في الزاوية نفسها كأن درة أتت بها وزرعتها هنا، لا تقوم من مكانها، تمثال يتيم يبتسم يضحك ويقطب جبينه، يدخن ويأكل وأحياناً يدندن.

لا أحد يراها تدخل الحمام، كأنها توفر كل ثانية لتغطس فيه، أو كأنها تعمل حمامها داخل الكومبيوتر نفسه.

الأيام بطيئة، جواز السفر بعيد والأحلام تزيد، كلما ابتعد كلما زادت وتكدست.

تغيب مع أصدقائها طويلاً، وحين تفيق ترفع رأسها، تجد العيون تراقب حصتها من السعادة اليوم.

لا تعير أحداً اهتماماً، لكن شعاعاً من وجهها يكاد يحلق فوق رءوس القاعدين، كأنها لا ترى، كأنها ترى خارج المكان.

تعود لعالمها، تحرك أصابعها على لوحة المفاتيح، على الطاولة، في الهواء، تلف ذراعها كأنها تشبكها في ذراع واحد أو واحدة، فجأة تضرب الطاولة، يفلت منها لفظ بالفرنسية في الغالب، بصوت عال ونبرة فرح، يبدو أن أحداً شبك أصابعها، اصطادت فريسة أو وقع واحد في شباكها، وفتح ذراعيه ليضمها.

أو فتحت.

أنت لا تعرف بالضبط ماذا يحدث، لكنك تشعر أنها تتفاوض بقوة مع الأمل، وترسم مربعات على رقعة المستقبل، وحين تتعب أو تكتفي– نادراً ما يحدث– تنهض لتجلس وسط الشباب الذين يتوسطون المقهى دائماً في حلقة من الكراسي فلا يظهر خطأ في الصورة، لا تستطيع أن تحسبها إلا واحداً منهم، فقط وجهها باسم ومختلف عنهم في هذه اللحظة.

إلا لو انتبهت لأصابعها المنتفخة التي تشبه أصابع الكفتة، أو لشفاهها الزاحفة الممطوطة للخارج قليلاً، لكن تنفض كل ذلك تستعيد أنوثة غائبة أو أمومة غامضة كامنة تقفزان فجأة لحظة ظهور حبيبة في المشهد، حبيبة التي يبدو أن ملاكاً أفلتها على الأرض سهواً أثناء تجواله، انزلقت من ساقه أو مخالبه أثناء عبوره من سماء لأخرى.

حبيبة التي أوغلت بقوة في حلمها بأن تسافر لمصر أو لإحدى دول الخليج كي تصبح مطربة معروفة هناك.

تحلم وتتشبث، حين يكون الزبائن من الخليج تجتهد طوال الليل في أغانيهم، تطرح شعرها في الهواء، تميله ذات اليمين والشمال، ثم تهبط بنصفها العلوي إلى نصفها السفلي، تحركه أماماً وخلفاً، وهو يطاوعها أنى شاءت وحيثما أرادت، لكنها لم تعد من الغنيمة بالإياب ولا بالذهاب، كل ما حصدته بضع بطاقات بها أرقام أصحابها للسهر بالديار، وأبواب الشهوة مفتوحة في العيون.

وحين تغني لنفسها، لحبيبها الذي تنتظره، لحلمها بالسفر إلى مصر تطلق الأغاني العاطفية، ورحمة تقول لها بطبقة حازمة حنون:

-غني لنفسك، لحبيبك، لي، لواحد فقط يستمع لك بشغف في المقهى..

غني بصدق ولو كان أمامك قافلة من الكذابين.

تتشبث بالأمل، رغم أن ألفة عرضت عليها أن تنقلها معها إلى ليبيا، تغني هناك في السهرات الخاصة والأفراح، وتستطيع أن تحصل على مبالغ كبيرة

تطير بها بعد ذلك إلى مصر، تقوم بشراء الكلمات والألحان، وإنتاج شريط على حسابها إن لم تتوفر على منتج.

– قوة الفلوس يا حبيبة، قوة الفلوس أهم شيء.

لا تضيعي الفرصة، النجوم في انتظارك ليزدادوا نجمة، وبصوت ناعم : تخيلي اسمك وصورتك على الشريط، حبيبة تغني، وتسمي الشريط: الليل ونجومه. وبصوت أكثر نعومة مشحون بطبقة امراة داعرة، الطبقة الثانية تحديداً : ثم إنك فلقة قمر، وجسمك حلو يهد الجبال.

حلومة من جانب ورحمة من الجانب الآخر، ملاكان حارسان، الأولى تقلق عليها وتنهرها، كأنها تحقق حلمها فيها، والثانية تراها ابنتها التي لم تنجبها، تمسكها من كتفيها، تهزها:

– حاولي على حلمك ما استطعت ولو لم يحصل، لا تذهبي وراء ألفة ولو كانت هي الفرصة الوحيدة في العالم، ألفة تريد أن تنتقم من كل البنات.

وبدل أن تغني للعالم كله ويطير العشاق والمعجبون والحبيب وراءك، وراء صوتك، سوف تغنين عند أقدام رجال لا يفكرون إلا لما بين أرجلهم، سوف تصرخين تحتهم بدل أن تغني في وجوههم وفوق رءوسهم، حتى لو شئت الصراخ، اصرخي من قلبك، تقول وهي تغمز: النساء يتذكرن الصراخ الجميل يا بنتي.

والنقود التي ستحصلين عليها ربما تنتج حوائط أسمنت أو سيارة تمشي على الأرض، لكنها لن تنجب طيوراً تغني في السماء.

سِحر كلام ألفة يتضاءل أمام حضن رحمة وحدَّة حلومة القاطعة.

ألفة التي عبرت لليبيا خلف مجيد، عفواً أمامه، فالسيدة ألفة لا تمشي خلف أحد إلا دماغها، ما بالك بمجيد الذي يزعم أنه انتقل إلى وظيفة راقية هناك، وحين بحث في دفاتره عن واحدة تطاوعه بالذهاب معه إلى هناك وجد طموح ألفة أمام رغبته.

لا هو يرى ولا هي.

كلاهما في أفضل الأحوال جريمة تمشي على قدمين، أحلامهما جرائم وكوابيس للآخرين، كأنهما فولة محتال وانقسمت نصفين أعوجين.

ألفة التي لا تعرف ماذا تريد وربما هي الوحيدة التي تعرف، لأنها راضية عن نفسها في حالتها القلقة، في السقف الذي لا تراه إلا إذا نامت على ظهرها، لا تستطيع أن تعيش مرتاحة، ولو ارتاحت ووجدت زوجاً وبيتاً آمنا لربما ماتت في الحال.

التسكع على مقاسها، والاحتيال بين عينيها وساقيها يزينها، يصعد ليصنع شامة بين حاجبيها، سيدة القلق تكره الاستقرار، تسافر لليبيا وتعود محملة بالنقود والجواهر، لا أحد يعرف ماذا تعمل بالضبط، لكن يمكن أن أخمن تماماً ماذا تفعل، تقول نعيمة.

حين تغيب بنتان أوثلاث عن المقهى، تحلف نعيمة بشرفها أنهن ذهبن مع ألفة إلى ليبيا، وبصوت فاضح ضاحك:

- أقطع ذراعي ركبن الطائرة.

وبضحكة مرقوعة :

- ركبوا الهوا.

تردد بثبات كأنها حكيمة زمانها :

– منى عينها أن تكون مثل درة، لكنها لن تستطيع، درة تلعب وتستمتع بلقبها، أما ألفة فتلعب لتغيظ الآخرين وتغيظ نفسها.

جسدها ميدانها.

لكنها في النهاية تلعب وتستمع بلعبها، صنعت ميداناً سمته باسمها دون حاجة لموافقة الحكومة.

كانت ألفة قد تلقت العرض نفسه الذي صادفها أول حياتها، بين أن تسافر لألمانيا أو تسافر للخليج. عرض عليها غسان السوري الجريمة الثالثة الذي ودع مقعد البرلمان بعدما أخذ صابونة فيه، وافتتح مقهى جديداً – أن تشاركه هو بنقوده وهي بجسدها الذي سيملأ المقهى بالزبائن، وصوتها الذي يمنعهم من المغادرة ، ومجيد عرض عليها أن تصحبه لليبيا.

كان عليها وهي جريمة قديمة أن تختار بين جريمتين، اختارت جريمة مجيد بالسفر للخارج، تريد أرضاً لا يعرفها فيها أحد تمارس احتيالها وألاعيبها مع آخرين ومع نفسها أولاً.

وحبيبة اقتنعت بكلام رحمة وحلومة، لكنها اشترطت ان تغني عند درة يومين وعند غسان بقية الأيام حتى تستطيع أن تجمع النقود التي تمكنها من إنتاج الشريط، ورحمة وعدتها أن تحصل لها على فرصة في التليفزيون.

وحلومة تضحك:

- واحدة تغني والأخرى تبكي.

الأحلام سريعة هذه الليلة، صاخبة، حتى وإن كانت بريئة، أجهزة كومبيوترانتشرت في المقهى، كل واحد يضع رأسه في جهازه، وبنات يرسلن رسائل هاتفية للخارج، للخليج تحديداً، بعدها قد يتلقين مكالمات ممن أرسلن لهم، واحدة تقول : تعال إلى تونس، والأخرى : أريد أن أسافر لأراك، وثالثة تتغنج : لو شفتني ستغير رأيك في النسوان.

لا يتعبن من إعادة المحاولات، ولعبت برأسهن الحكاية وازداد إصرارهن بعد أن غمزت صنارة إحداهن واختفت.

ومُحَمَّد كازانوفا يستطيع حل مشاكلهن لأسبوعين فقط ثم يسأم، لكنه يكره هؤلاء البنات المتطلعات، وباربي تداعبه :

- حل مشاكلهن يا كازانوفا، يجب أن تشارك في حل مشاكل الوطن.

- البركة فيك، غيَّري الصنف يرتاحوا.

دون أن يدير وجهه ناحيتها.

- انظر لى، أنا أفضل منك، أقوم بحل مشاكل الشباب جميعاً واحداً بعد الآخر.

تقهقه:

- بالعدل وحياتك.

ثم إني الوحيدة التي أعطي الأجير أجره فور انتهاء العمل مباشرة.

وبضحكة ترن في قلب المقهى:

- الشباب سوف يقيمون لي تمثالاً، أما أنت فلن تتذكرك واحدة إلا كعابر أو ذكرى سيئة، أنت أخذت حقك وحق الجيران، تجري وراء مزاجك فقط، أما أنا فأجري وأتعب من أجل هؤلاء.

تقترب من وجهه تدفع أنفاسها أمام أنفه : لو عرضوا عليَّ أن أكون وزيرة في الحكومة القادمة فسأرفض، أنا أحب القطاع الخاص، أكتب بالقطعة ولا يعطونني شيئاً، وأعمل بالقطعة ويعملون عندي بالقطعة ويأخذون أجرهم مضاعفاً، وأعطي كل شيء حقه.

تضحك :

- أخذت الموضوع كله على أكتافي، أدفع نيابة عن الدولة، أروّح عنها وعن شعبها وأدفع نيابة عنها الهموم.

تقترب أكثر:

- والسيقان وحياتك.

وهو لا يرد.

تكمل الضحك، تسحب أنفاسها وتبتعد.

باربي سعيدة، لكنها لا تسلم من القلق، وإن بددته في مبارياتها اليومية، الدوري عندها ممتد طوال العام لا يتوقف.

العمر يمضي، وهي رغم كثرة اللاعبين حولها، تحتها وفوقها، وحيدة، تحاول أن تبدد وحدتها بهؤلاء الشباب الذين يقدمون لها كريم الوجه الذي تعشقه، وإكسير الشباب الخالد، لكنها تنسف قلقها قبل النوم، تقول لحالها: أنا جميلة وبطة ولدي ميراث كبير وعندما أتعب سأشتري حائطاً أستند عليه، وبلدنا مكتظ بالحوائط. تضع أوراقاً أمامها، تكتب وتسجل وقتما تحب أو عندما لا يكون لديها عمل أو مشروع، تكتب حكايات المقهى التي تدور أمامها، والتي تدور من خلفها وتسمعها أو تفهمهما وحدها.

كل يغني على ليلاه، واحدة تضع حلمها أمامها، وأخرى تريد أن تطير في الهواء، وثالثة عبرت خلفه لدولة أخرى، وواحدة لا تحلم لأبعد من غدها، تختار صبياً وعندما يفرغ العالم من الصبيان سوف تختار حائطاً من الحوائط تريح جسدها المتعب عليه، وواحدات أحلامهن في رسائل التليفون عبر الهواء، وهناك أحلام على مقاس ليلة واحدة أو غزوة واحدة أو مركبة.

قلت لك من البداية، لا تقلق، هذا كل شيء تقريباً، أحلام تطير، وأخرى ترتطم بالسقف وتعود، لا يمرق من الشباك إلا طير جامح، أحلام النساء واضحة هذه الليلة.

وحدها نعيمة في زاويتها القصية، لم تعد تحلم بالرجال ولا بالأوروبي، حتى ولو نغصت عليها الذكرى لحظة لتشد الشوكة من قلبها، تعيش وتضحك.

حتى ولو غنى جورج وسوف " والله لاتأمنهم عشاق آخر زمن، انت اللي حلمت بيهم، جرحوك الله يجازيهم، غلطان لما أبقى منهم".

كانت تسمعه من قبل فتسيل دموعها، الآن أصبحت تدندن معه، كأنه يغني لواحدة غيرها، لم تعد تبحث عن آحاد تدفن حكايتها في حكاياتهم، أصبحت ركناً أساسياً من أربعة أركان، ركن لها وآخر لحلومة، وثالث لباربي، ورابع لألفة تركته وسافرت، وبينهن تلعب الأحلام الصغيرة، وحبيبة لها الهواء، أما درة فتملك وسط المقهى وسقفه ونسور جاهزة لتحملها، وتترك للآخرين أن يحتموا ويحتفوا بالأعمدة، كل واحد وعموده.

وحدها نعيمة تقتل وحدتها، حتى أخوها الذي حرق البحر بدا كصورة بعيدة قديمة، لكنها تتمسك به كحلم باهت بعد أن طارت بقية الأوراق.

لم تعد تشغل بالها كثيراً بما فات، قسمت نفسها بين المقهى وأبو جعفر، تمر عليه في بيته تطبخ له، تطبخ أيضاً لأبو شندي الذي لم يشأ أن يترك بيته توفيراً للنفقات رغم عرض أبو جعفر واقتراح نعيمة أن يسكنا معاً، يخاف أن يركبه الجنون، وهو بينه وبين حافته خيط رفيع، ثم إنه يريد قطعة من أرض وأربعة حوائط حتى ولو كانت بالإيجار، لا يستطيع أن يترك البيت، حتى لا يشعر أنه معلق في الهواء تطوحه الريح وقتما تشاء، قسمت نفسها بينهما، تطبخ حنانها في أصابعها حتى يبرأ واحد، تصب اطمئنانها الجديد في عينيها حتى يهدأ الآخر.

تمسح لأبو شندي كل ندبة في وجهه أو روحه، كل جرح غائرمن الشظايا التي صادفته طوال عمره، تفرك له الأكل، تهرسه، حتى تستطيع أسنانه المتبقية أن تتحمله.

يوم وراء يوم وليلة عقب ليلة ، الأحلام تكاد تتجاور والأجساد تتلامس، تحيك جسراً دافئاً من محبة، رغيفاً طرياً ساخناً من حنان، والخيوط التي بعدت بينها وبين ماضيها تقصر بينها وبين أبو شندي، تصحبه في رحلة المقهى، تجلس معه على طاولته، يتفرجان على الناس، يرميان بحكاياتهما في الحكايات العابرة، ينهمكان داخل التفاصيل، يذوبان فيها ليبتعد كل منهما عن تفاصيله، ينسجان تفاصيل قطعة جديدة.

فؤاد أبو شندي موزع بين طفلتيه وحلمه بالعودة، ووقته بين متابعة مباريات كرة القدم ولعب الورق، ونعيمة تحت إبط، وأبو جعفر تحت إبط يتفرجون على المباريات، بالأحرى يتفرجون على الناس الذين يستعدون للفرجة كأنهم يستعدون لمعركتهم الأخيرة في الحياة، يراقبونهم وهم يتحدثون قبل المعركة الكروية، وهم ينتقضون أثناءها مع كل ركلة، يصرخون ويضربون الهواء ويسبون الجميع، وحين ينتصرون يعودون إلى بيوتهم ليناموا سعداء مرتاحين في انتظار معركة أخرى.

تجلس بجانبه وهو يلعب الورق، يلعب هذه الأيام على الفلوس ليربح، لم يعد يلعب للمتعة أوليزيح الخرف القادم، تعطيه من نقودها إن خسر، ولا تأخذ شيئاً إن ربح، أصبحت حائطه دون أن يرتب، تسللت إليه دون أن تشعره.

تحاول أن تجذبه بكل الطرق.

هو يحتاج لوطن دائم، وهي تحتاج لواحد دائم، لم يبق من حلمها القديم إلا أن يكون أجنبياً، وأبو شندي أجنبي وقريب في الوقت نفسه، وزوجته بعيدة ومفترية.

هو على نار وهي على حارٍّ.

فلتأخذه.

ربما كان شعوراً بالرضا بعد طول كفاح، شعوراً داخلياً بالتعويض المفاجئ عن كل شيء، تعويض ما سرقته أختها منها في الماضي تحديداً.

لكنها لن تسرق، ولا تحتاج.

هو يحتاج لمن تضعه على بطنها ليهدأ ظهره، يحتاج لمن تضع ساقها على كتفه ليشعر أنه قادر ، وهي تحتاج لمن يضع يده على كتفها طويلاً لتشعر أنها إنسانة، يلمس شعرها، ثم ينزل على خصرها لتشعر أنها أنثى، محبوبة قبل أن تكون مرغوبة.

وحتى لو كنت مرغوبة فقط يا نعيمة كاف له وكاف لك لتمسحي به كل أدران روحك، الجسد الحي يمسح موت الروح أحياناً .

تلعب معه من قريب:

- أنت مع فريق الترجي، وأنا مع النادي الإفريقي.

وبنصف ابتسامة متوعدة :

- الفائز يأخذ المهزوم كله، من يربح في المباراة يربح الآخر.

والابتسامة تزداد توعداً :

- وبنفس النتيجة.

يضحكان بحذر، خاصة أبو شندي، كأنهما يعرفان أن المسألة قد تدخل في الجد، واللعب صار على المكشوف.

تمني نفسها أن يخسر فريقها بأربعة أهداف، ألف هدف، تشجع الفريق الآخر بحرارة.

لا يا نعيمة هدف واحد حنون أفضل من أربعة طائشة، هدف واحد في الشبكة أفضل من أربعة يتسللون ويجرون فراراً من الداخل للخارج.

من هي نعيمة تلك يا أبو شندي ؟

لماذا تحرك لعالمها، بدفء بائعات الهوى الذي لا يظهر في القرن مرتين، بائعة الهوى إن أصيبت بداء الدفء تعشق فتجن أو تموت.

هل تكون نعيمة هي بائعة الهوى الثانية عشرة ؟

اضرب رأسك في الحائط بقوة، أو انتظر، لا تقترب واهدأ، واحلم أي حلم بأي لون كان.

تلمح عينيه ترسوان فوق عجيزة درة.

تضحك وتغمزه :

هذه مخصصة فقط للوزراء والرؤساء.. ومستعملة.

يشجعان بحرارة، هي أكثر، رغم أن فريقها مغلوب.

عقب المباراة تتنهد براحة، تلتفت ناحيته:

- هات ما عليك.

تمسكه بخفة من أرنبة أنفه، تحركها خفيفاً، وبضحكة بها طفولة وغنج معاً، تقول كأنها تمزح:

- لحم ولّا فلوس.

تقولها دون ألم.

يمسح على وجهها، يحتضن كتفيها بين ذراعيه، يشدها ويخرجان معاً.

عيون حلومة خلفهما، خلف غيرهما، تتابع الأحلام التي تطير، التي تتقافز فوق الطاولات، تجرها قبل أن تختبئ خلف بعضها، تشاهد حلم مهدي يضرب السقف ويلتصق به، تتذكر أن ألفة ومجيد وغسان ليسوا ضمن باقة الأحلام ولا داخل مغارة الكوابيس، تتأكد أنهم في ملف الجرائم، وإن كانت ألفة جريمة تغري بخوض غمارها، تصنع لهم ملفاً تسميه : ملف الكوابيس، تخزن بقية الأحلام والكوابيس، تطمئن على أن كل حلم في مكانه أو زاويته، وأن كل كابوس على مقعده، أحلام تطول وأخرى تقصر، تغلق الجهاز بسرعة على أسراره قبل أن تضعه على كتفها تتهيأ للخروج وتعبر باب المقهى.

باب لِلّا درة

اختفى الضباط والمخبرون دفعة واحدة من المقهى، انقطع خبرهم بين يوم وليلة.

اختفوا جماعة، بدت درة مفجوعة، ظهرها عارٍ وإن حاولت أن تغطيه، لكن ما ضاعف قلقها أنهم لا يردون على تليفوناتها المتكررة، ولا واحد، كأنه اتفاق جماعي، لا بد أن في الأمر سراً لا تعرفه.

مع الوقت راحت تشعر أن روحها سقطت في ساقيها، إذ مهما كان هناك من أسرار، مهما بلغت، فهي تسقط مسرعة في حجرها.

إنها تتباهى على الدنيا كلها بذلك، تشوف حالها على الجميع، وبدا أن كل ألعاب التفاخر بطنجرة السلطة قد أصابتها سهام الصمت الحار والسكتة القلبية مرة واحدة.

اختفوا جماعة وإن حضروا متفرقين، ولاح فجأة أن للمقهى سماءً عالية على غير العادة، تعالت الأصوات والضحكات، وراح الهواء يتراقص فوق رءوس الزبائن.

- هواؤهم ثقيل، ريحهم ورائحتهم.

بتنهيدة مسموعة من أبوشندي : كانوا يشفطون الأوكسجين من الهواء.

أبوشندي المتوجس دائماً من أنهم يحسبون عليه كل حركة، يعرفون مواعيد قدومه ومغادرته وحتى الهواء الذي يخرج منه، وأسنانه الغائبة بين بقية أسنانه الموجودة، هو يعرف بحسه المخابراتي القديم أن أفضل طريقة للاختباء بعيداً عن أعينهم أن يقترب منهم، أن يعيش بينهم حتى لا يروه ولا يشغلوا بالهم به، لهذا لم يذهب إلى مقهى آخر، ثم إنهم هنا مشغولون بمعاركهم الصغيرة، ووجودهم كان ونساً أيضاً يا أبوشندي، يستطيع أن يوسط درة لحل مشاكل الإقامات المتأخرة، وفاتورة الكهرباء التي لا يدفعها إلا عند استحقاق الفاتورة الجديدة، وعلى الأقل إذا كان لم يستطع أن ينال درة فليحصل على شيء من منافعها،.. أي حاجة والسلام.

يضحك وحده، وبصوت نصف مسموع : غاروا في ستين داهية.

عشرة أيام، لا حس ولا خبر ولا هاتف، غُمَّ على قلبها، زادها شيخ الأمن، الضابط الشيخ أو الشيخ الضابط الذي يرابط في المقهى ما بين الصلوات، من الجامع إلى المقهى طوال الليل والنهار وبالعكس.. والثواب يزداد بعدد الخطوات يا قمرالليالي، يراقب الزبائن هناك ويراقب المصلين هنا، يلعب بمفاتيح الجامع في يده بصوت واضح وحركة مكشوفة دائمة واقفاً جالساً ، تفكر أن تسأله، لكنها تخشى أن يراها ويدها على بطحتها، في الأساس تخشى أن يفتح معها سكة قديمة أغلقتها.

هي بالطبع لا تعنيها السكك، هي ملكة فتحها وإغلاقها ومعها مفاتيحها أيضاً وبضرواة وأكثر، لكنها تخشى أن يقعد على قلبها وطاولتها ليل نهار، أن يعسكر عندها ويشل حركتها، والجامع قريب، تعرف أنه يريد أن يرفع لها الأذان من جديد، يرفعه لها وحدها، وهي لم ولن تعطي خيطاً طويلاً لأحد، إلا لساعة أو شهر على الأكثر، إلا لمن بيدهم منافع يسيل لعابها لها وتسند ظهرها بها، حتى وإن عاودت اللعبة عدة مرات لا تبقي أحداً مرتاحاً معتقداً أنه ملكها ، تعرف الرجال مثل كف يدها، هكذا توقن، يريدون أن يقفزوا ويهربوا أو يقذفوا ويملكوا، هذه هي اللعبة الأكثر جدية التي تعرف أنها تجيدها أكثر من نساء كثيرات.

هو أيضاً مشغول وإن لم يرم طوبتها، يفكر أن يصطحب مهدي معه للجامع، حارس شخصي لزوم الأبهة ، يراقب به من يشاء ويخيف به من قد يفكر من الزنادقة في التهور ومهاجمته أو التحرش به، ليس خائفاً على الجامع، للجامع رب يحميه، ثم إنه متوجس أن يضع مهدي مرة واحدة كل غله من جماعة البوليس فيه، يفجره فيه ويأخذ حقه بفعل متهور وغير محسوب.

يقترب، يأخذ رأيها في الموضوع.

- لكنه مسيحي !

- مسيحي صيني تايواني، ليس مطلوباً منه أن يقيم الشعائر، مهمته واضحة وبابه سهل.

بطاقة شخصية يا مهدي، بطاقة تعريف، تستطيع أن تعمل بها في أي مكان وأن تحل كل مشاكلك.. تستطيع أن تخرج للشارع وتجلس في المقهى كأي واحد عادي.

يبدو أنه أذن في مالطة، وأن الطلقة كانت مطاطية، مهدي في دنيا ثانية، يريد بطاقة سريعة إلى أمريكا أو العراق، وآخر ما يمكن أن يفكر فيه أن يراقب المصلين أو يتابع نملة، أو يحرس جامعاً لن يأتي المسيح إليه.

- مارينز في الجامع، آخر عمل يمكن أن أقوم به، ثم إن المسيح سيغضب.

- لن يغضب.

- أنا أعرفه أكثر منك.

وحدها قلقة، أخبرها شيخ الأمن هذا أنها أخطأت خطأً لا يغتفر عندما هنأت السيد الرئيس بعيد الخريف، وأن اللافتة حملت معنى كبيراً بالغ السوء حسب عليها.

- عليك أن تحترسي جيداً، خذي بالك من نفسك.

بهتت أول الأمر ودخلت في بعضها ، إلا أنها كبست روحها، أكدت له وهي تضحك بسخرية أنها أردات أن تجامل السيد الرئيس بحضور الخريف الجميل.. أجمل خريف خريفنا،حاولت أن تنتهز أية مناسبة ولو صغيرة ولو اخترعتها كي تعبر عن محبتها وولائها.

- سأعلق له اللافتات في كل الفصول، وحول المقهى من كل الجهات.

– لكنك نسيت السيدة الأولى.

– سأصنع لها مناسبة لوحدها، سأعيد افتتاح المقهى وأعلق لها لافتات في كل أنحاء البلد.

تضحك في وجهه لتغيظة، لتشعره أن الموضوع بسيط ثم تستدرك : سأسمي المقهى باسمها، حتى ولو أخذت نصفه.

هي تعرف تماماً أن البلد صغير، ودبة النملة يمكن تفسيرها على أنها دبة تمساح، إشاعة أو وشاية واحدة من صاحبنا يمكن أن تضربها في مقتل وتغلق عليها أبوابها المفتوحة، لذا سنت لنفسها قانوناً أن تفتح باباً جديداً ولا تغلق باباً قديماً ، وحتى حين تغلق، تنسحب بهدوء لتتجنب المشاكل تاركة نافذة مواربة، وبحزم غير مستفز، قانون درة، سيدة القوانين غير المكتوبة.

حدست أن صاحبنا يريد أن يدخلها ومقهاها في عبه، بالأحرى بين ساقيه أو تحتهما، يريد أن يعشش في شقوقها وسقوفها مرة أخرى، وأن يقفل أبوابهما عليه وحده، تأكدت من ذلك حين أعاد عليها الموضوع مراراً، وبتفصيلة جديدة كل مرة وبتقاسيم وجه جديدة أيضاً ، في الأخيرة قال بحنان وحزم معاً، بصوت مرقوق :

– لا تقلقي، طالما أنا بجانبك.

– حاضر يا سيدنا الشيخ.

قالتها بلطف وفرح ظاهر ليهدأ.

صدق حدسها، وهي التي اعتقدت أنه تاب أو يخشى على ظل عمامته.

فكرت ربع ثانية أن تذهب معه مرة أخرى ليمسح هزيمته التي انتكس بها في المرة السابقة، لكنها خشيت أن ينتفض هذه المرة ولن يتركها في حالها من بعد، أو يعود لحالته القديمة فينتقم منها خشية أن تفضحه.

لكأنها تعرف أن بعض الشيوخ، شيوخ الأمن تحديداً لا يقبلون أن يخرجوا من أية لعبة إلا فائزين، ما بالك أن يخرجوا خاسرين.

قررت أن تستعمل نصوص قانونها المقدس، تستخرج السفافيد المخبأة لتشويه على نار مقدسة، تلاعبه من بعيد، وأن تخرج الموضوع كله من رأسها حتى يظهر له رأس، لكن الذي أوجعها وأجفلها أنه قال لها بالفم المليان :

- قهوتك سمعتها أصبحت معروفة.

- نعم !!

- بصراحة، يقولون إنها لم تعد لمة الأحباب، بل لمة القحاب.

بهتت.

- ولا يجب أن تعلق لافتة للسيد الرئيس على مقهى تلطخت سمعته.

أعطاها تحت الحزام، وهو يريد أن يغطس تحته فقط،لكنها استفاقت بسرعة، فرصة وجاءت لها، تجاوزت هلعها :

- المقهى بصاحبته، وإذا لم يعد يعجبك ، فالمقاهي في الشارع أكثر من البيوت.

تحت الحزام أعطته أيضاً، لكنها حسب قانونها بعد أن كالت له أبقت خيطاً، لا تصنع أعداءً، إحدى فضائلها الكثيرة :

- نحن لا نستغني عنك أبداً ، لكن تهمنا راحتك فقط.

- راحتي عند الأحباب.

يوماً بعد يوم، وهو على المنوال نفسه .

تفكر في كلامها وإن دارته، لكن الرعب زال عنها بعدما أحست أنها لعبته وحده، خشيت في البداية أن تكون لعبة الآخرين وسرقها هو.

تعرف أن السلطة تذوب في لحظة، شاهدت بعينيها تطاير بعضهم أمامها وأن من كان يعسكر عندها ليل نهار اختفى مرة واحدة، وتعرف أنه العدو الباقي، وأنها يجب أن تزيحه لتسمتع بجسدها بحركتها على راحتها في المقهى، في العالم :

- غيرت رأيي، سأسمي المقهى باسمي.

لا تعرف من أين واتتها الجرأة، فاجأته كما فاجأت نفسها.

كأنه بوغت وقبل أن ينطق اتجهت ناحية الباب ثم فتحته على مصراعيه ونظرت إليه.

تعرف بخبرتها، باحتكاكها الدائم بهم أن السلطة تأتي فجأة وتذهب فجأة، وعلى قدر ما يجب عليك مهادنتها أحياناً يجب مواجهتها حيناً، الفرصة أصبحت سانحة لتنتهي من لعبة شبعت منها ولو مؤقتاً، ثم إن غيابهم وما يصل إليها يؤكد أن الوقت

ليس وقتهم، وأن عليها أن تذهب في اتجاه الريح بعدما تأكدت الأنباء المتواترة حول ما يعم البلاد، وأن الذي يجري سراً خلف الباب يظهر علناً خلف الشاشة.

هو لا يريد أن يخرج، يعرف مثلها وإن أخفى أن الأيام القادمة ليست له ولا لأمثاله، لذا يريد أن يستعير لعبتها وأن يبقي خيطاً سيحتاجه في المستقبل.

لم تتحرك أنملة من عند الباب، ثم أطالت النظر إليه.

أغلقت الباب خلفه، تشعر أنها تخلصت منهم بضربة واحدة ولو بسبب لا يد لها فيه، غمة وانزاحت ولن يعودوا.

بسرعة تعود لعالمها، تقرر أن تضع خطة جديدة، الأمر يستحق، والمرء يجب أن يخطط للمستقبل، تقرر أن تغير ديكور المقهى وألوانه، تفكر للحظة أن تبدل اسمه، تحوله إلى مقهى المعازيم، يحتضن في جوفه كل الأحبة وكل الونس، لكن عليها أولاً أن تغير اللاعبين، أن تزيح المجاهدات اللواتي تعبن من النضال، وفاحت رائحة معاركهن المجيدة وتفاصيلها، يجب تغييرهن بعد أن تحولن لمراكز قوى داخله، يجب إدخال جيل جديد بعد أن أصبحن يلعبن مبارياتهن بنفس الخطط القديمة، يجاهدن بالغاية لا بالوسيلة.

ابتعدت خطوتين عن الموضوع وتركت لكسوف وسفيان أن يتخلصا من الأوزان الثقيلة ، اللواتي أصبحن ماركة مسجلة، أن يقوما بالمهمة تحت إشرافها، قد تلغي حفلات الغناء ليلتي السبت والأحد مؤقتاً حتى تبدل نوعية الزبائن، لكنها تعشق السهر والغناء والإيراد الكبير، تعشق أكثر ذلك الطقس الذي ترى فيه احتكاك

الأجساد وارتطامها ورقص البنات بالمتعة والإغراء، ولعاب الرجال الذي يسيل حتى تكاد حلوقهم تجف، تنتشي بألعاب الصيد والطرائد حين تقع في الشباك كأنها وقعت في كل شبكة أو أوقعتهم جميعاً في شباكها، ولو استطاعت لجعلت الأيام كلها غناء.

بدلت الكراسي والطاولات، وضعت إضاءات جديدة، لكنها احتفظت بالأعمدة والأثداء في أماكنها واطمانت عليهم بنفسها، وفي خطوة تحسب لها، وتدل على جديتها ووعيها بأهمية التغيير ومدى تقديرها لعظم المهمة التي أوكلتها لها الأقدار – ألغت مؤقتاً غزواتها الخارجية حتى تراقب الموقف عن كثب، وتحصن الجبهة الداخلية أولاً.

يوماً بعد يوم، يتبدل الجو ويتغير الطقس : ألفة تحجبت، تلبس غطاء أسود على رأسها، تمر عليها كلما أتت من غزوة ليبيا، تفرد ذراعها المثقل بالذهب، ملامحها تبدلت، اختفى الزين والعين من وجهها وصدرها ترهل قليلاً، لم يتبق من ثروتها سوى بنطالها الضيق الذي مازال قابضاً بقوة على الجمر، لكنها عيونها مازالت طافحة بالحياة طامعة فيها تقول بثقة وغنج متقطع :

– الحجاب كباب.

في الأيام التالية تعود بنفس زيها القديم، ببلوزاتها الحارقة المحرقة، ببنطالاتها وثروتها المحترمة، كأن شيئاً لم يتغير، تشبه نفسها بالضبط متقلبة كأيامها.

غسان استقر في مقهاه الجديد بعد أن استعار منها مجاهداتها القدامى، يجمعن له الأصوات في الانتخابات القادمة.

ونعيمة انتقلت إلى طاولة الفلسطينيين، أصبحت فلسطينية أكثر منهم، أكثر من شادي، والوشاح الفلسطيني يغطي كتفيها طوال الوقت.

والفلسطينيون على حالهم ، مصرون على التجمع يومياً صباح مساء، يضمون طاولتين في طاولة واحدة حتى لا ينسوا بعضهم، كأنهم خائفين أن ينفرطوا ثانية، يمنحون المكان دفئاً رغم بؤسهم الواضح، وحكاياتهم التي لم تفهم منها شيئاً تقريباً.

تعجبها هيئة شادي العاشق بوسامته اللعوب وابتسامته التي تتسكع على وجهه طوال الوقت، كأنه سيلتقي بالملاك العاشق بعد قليل، كأنه ينتظر أن يطل من النافذة، يناديه ويخرجان معاً.. تفكر أن تأخذه لفة، لكنها ترجىء الحكاية لحين ميسرة.

أبو جعفر الذي يصعب حاله عليها وعلى الكافر، أصيب تليفونه بفيروس، تأتيه مكالمات من أناس لا يعرفهم، يرسل رسائل لأرقام مختلفة كيفما اتفق، يضرب أرقاماً لأناس ماتوا أو هاجروا، تشاهده يقف على حيله ويرمي الهاتف على طول ذراعه ليتفتت إلى مائة قطعة ليرتاح راحة أبدية من انتظار مكالمات لا تجيء أو أصوات لا تشفي غليله.

الوحيد الرابح من البداية للنهاية هو كسوف، نذل فاخر، يقرأ الكف ويحصد النقود، يرتب مواعيد البنات والرجال ويقبض من الناحيتين، ويعوض غياب أي

أحد في المقهى، ينقل الفحم إن غاب حامله، ويراقب لها من شاءت من الزبائن، وابتسامته المطبوعة على وجهه لا تغيب.

تكتمل اللعبة، تكتمل قطع البازل، يضع جنونه في جنون مهدي، يؤانسان بعضهما طوال الوقت، يتعاركان حول أميركا ثم يتصالحان ويحلمان بالسفر للعراق.

مجيد غار في ستين داهية، لم يتبق منه سوى رائحة خفيفة في ثياب ألفة وذهبها.

وزوجها على حاله، لكنها سمحت له أن يقترب منها في الصباح فقط، يحضران للمقهى معاً، تضيّفه بنفسها، تعد له قهوته وتلاعبه حتى يحل عن سمائها بقية اليوم، وأبوشندي المعلم يقول لها :

- المعلم هنا كل يوم، المياه رجعت لمجاريها.

- لا أسمح لك أن تتهمني بواحد مثل هذا.

يولول في أذنيها كل مساء أن تترك المقهى وتعود للبيت، وتدع سفيان وكسوف يديرانه، أو تغلقه نهائياً.

- نجوم الظهر أقرب له.

المقهى ملعبها، فيه ترعرعت وشبت، شاهد حي على جولاتها وصولاتها، تترك نصف روحها فيه قبل أن تغادره ليلاً، لا تستطيع أن تتخيل الدنيا بدونه، تاريخه وتاريخها مكتوبان بحبر واحد بدم واحد، ستأخذها قدماها إليه دون أن تدري، ولو كانت عمياءً، ستأخذهم أقدامهم إليه وإليها دون أن يدروا، كأنهم عميان مخطوفون بحبل من حرير.

سلطتها، وجاهتها ودنياها.

تستمتع بحريتها وتقلب أسرارها وتشاهد شعبها.

مقهى يحتضن الجميع، سره داخله، يطوي غرامه في أعمدته المنتصبة وأثدائة اللامعة المدورة، يسحب الأرواح قبل الأقدام.

انظر، الآن يدخل فرد جديد انتقته من السوبر ماركت ودعته، يدخل الأخ رفيق يسبقه صوت مفاتيح سيارته المرسيدس الجديدة، يتقدمه جسده الرياضي الممشوق، ورغبة نافرة في عينيه تصطدم من أول نظرة بشبقها الكامن الجاهز، كمزيج ثقيل فاخر من التهتك، تحتضنه كما يليق بتباشير صباح طازج.

بنات جدد يخطرن إلى المقهى كعصافير الجنة، ليبحثن بدأب عن مستقبلهن، يقابلهن كسوف المحتال بابتسامته المطبوعة، وأولاد جدد يهش لهم سفيان برأس منحن كخادم مطيع أنجز الواجب الذي أملاه عليه ضميره.

قلت لك منذ البداية لا تقلق، إن مرت واحدة أعجبتك وخطفها واحد آخرفستقع بين رجليك في اليوم التالي أو بعد يومين على الأكثر، أو ستصادف في طريقك أسخن منها.

كلهن تحت جناح الباترونة وظلها.

تتذكر أنها نسيت شيئاً مهماً، تنتفض بسرعة ببنطالها الحرير المحبوك، وخريطة نهرالنيل تجري بين ساقيها، تقف بجسد مشدود قاس مستقيم متلو، لين..ينتهي ولا ينتهي، كأنها تستعد لحياتها من نقطة البداية.

- إلى أين يا ست الكل ؟

يلاحقها أبوشندي.

قبل أن تجيب تسمع ضجيجاً، تلمح رحمة وحلومة بينهما حبيبة المغنية تلوح بجواز سفر وبطاقة طائرة، بابتسامة عريضة على وجهها، على جسدها، تتقدمهما وقد نبتت لها أجنحة.

تعانقهن بقوة، ترفع إصبعين بعلامة النصروتلقي القبلات، تتجه نحو الحمام حيث صور السيد الرئيس التي كانت قد أنزلتها لتنظفها.

تشاهد البنات والأولاد الجدد، والعابرين الجدد أيضاً - يتبادلون الأرقام وبعض اللمسات الناعمة المسروقة.

تسمع همهمات وضحكات، ترى الأوراق التي تحمل أرقام الهواتف، لم يتأخر أحد عن أداء واجبه.

تخرج منتشية.

أمام باب المقهى وقفت البنات في انتظار أن يأتي المغرمون بسياراتهم ليحملوهن، وسطهن بنات الأحد ، وهن سعداء يتبادلن ابتسامات وغمزات، والضحكات تكاد تطير في الهواء.

ثورة الغرام كما تحبها هي، كما تعيش لها، نذرها من قلبها لقلبها، وتعرف أن عمرها سيطول حتى تحققها هي.

تشعر أنها ستطير، الحياة كما تحبها هي.

وبابتسامة عريضة، تستدير لتعود بعد أن اطمأنت على الحياة الجديدة، النشوة تصعد إلى أعلى رأسها وتغطي جسدها، تزاحم البنات حول المرآة لأول مرة في مقهاها، تلقي نظرة على نفسها، تلف لتتأكد من اندفاع عجيزتها، تتهيأ لتخطف رفيق إلى مغامرة جديدة.

تنسى لماذا جاءت.

تقع عيناها على صور السيد الرئيس في مكانها من الحمام.

لبرهة تنظر إليها، تستدير لتخرج، تغير اتجاهها نحوها مرة ثانية، فجأة تركلها بقدمها، تسّاقط مبعثرة على أرضية الحمام، تحملها بأطراف أصابعها إلى سلة القمامة.

كل شيء يحدث في الحمام.

المقاهي التي ولدت فيها الرواية :

مقهى الأوبرا

مقهى باب سويقة

مقهى العتيق

مقهى الشواشية

مقهى للّا عربية

مقهى بابليون

مقهى باب الحومة

- تونس-

- مقهى الحاج مغربي – مصر

(وعد بشراء خمس نسخ من الرواية).

taweela2000@hotmail.com